أغاثا كريستي

البيت الأعوج



البَيْت الأعوَج

أغاثا كريستي

البيت الأعوج

CROOKED HOUSE

by

AGATHA CHRISTIE

ترجمة

سمية فلّو عبود

ARABIC EDITION 1993

P.O.Box:7038 - Limassol
CYPRUS
P.O.Box:113/5796 -Beirut
LEBANON

ISBN 1-85513-179X

الطبعة الاولى، آب/اغسطس ١٩٩٣
الغلاف، تصميم رملة شماعة
رسوم، شيفورن كوريغان

■ ١٠ ■

التقيت صوفيا ليونيدس للمرة الأولى في مصر، والحرب تشارف على نهايتها. كانت تشغل منصباً إدارياً عالياً في أحد فروع وزارة الخارجية هناك. عرفتها في البداية بصفة رسمية، وسرعان ما نالت إعجابي بفضل كفاءتها التي أوصلتها إلى المركز الذي تحتلّه بالرغم من صغر سنّها (كانت في الثانية والعشرين من عمرها).

بالإضافة إلى ملامحها الجذابة كانت سريعة البديهة وتتمتع بروح فكاهية ساخرة وجدتها مبهجة للغاية. تصاحبنا. كان التحدث إليها متعة لا تُضاهى وكانت لقاءاتنا على العشاء أو للرقص من حين لآخر مصدر فرح وسرور.

كنت على يقين من ذلك: وحين تلقيت الأوامر بالانتقال شرقاً عند نهاية الحرب في أوروبا صرت على يقين من شعور آخر ـ انني أحبّ صوفيا وأريدها زوجة لي.

كنّا نتناول طعام العشاء في فندق شيبرد بالقاهرة حيث تكشّف لي ذلك الإحساس. ولم يكن ذلك صدمة أو مفاجأة، بل إقرار بواقع أعايشه منذ فترة. تأملتها بنظرة مختلفة ـ لكنني لم أر فيها إلّا المزايا التي عرفتها وأحببتها: شعرها الأسود

المتموّج الذي يـرتفع بغـرور فوق جبينهـا، وعيناهـا الزرقـاوان المفعمتان بالحيوية، وذقنها المربع الصغير الذي يدل عـلى ميلها للمشاكسة، وأنفها المستقيم.

أعجبتني بذلتها الرمادية الأنيقة والقميص الأبيض الرقيق. أنعشتني وأغراني مظهرها الإنكليزي ذلـك أنها رغم غيـاب طال ثلاث سنوات عن أرض الوطن، لا تستطيع أية فتاة أخـرى أن تبدو إنكليزية أكثر منها ـ وفيما كنت أفكـر في ذلك تسـاءلت ما إذا كانت إنكليزية بالفعل كما يدلّ عليه مظهـرها. هـل تستطيع الحقيقـة أن تصل إلى درجـة الكمال التي يصـل إليهـا الأداء المسرحيّ؟

تحدثنا معاً، وتناقشنا في أمور عديدة، في أمور نحبها وأخرى ننفر منها، وفي المستقبل، وفي الأصدقاء والمعارف ـ وانتبهت أن صوفيا لم تذكر لي شيئاً عن عائلتها. كانت تعرف كلّ شيء عني، (كانت تجيد الاستماع للآخرين) ولم أكن أعرف شيئاً عنها.

افترضت أنها تنتمي إلى وضع اجتماعي مـألوف، لكنهـا لم تشر إليه مرة واحدة. وحتى هذه اللحظة ما زلت عاجزاً عن فهم موقفها هذا.

سألتني صوفيا بماذا أفكر.

قلت لها بصراحة: أفكر فيك.

قـالت: آه، فهمت. وبدت كـأنهـا أدركت ذلـك قبـل سمـاع جوابي.

قلت: قـد لا نلتقي مرة ثـانية في السنتـين المقبلتين، وأنـا لا أعرف تماماً متى أعود إلى إنكلترا. لكنني حين عودتي أريد أن ألتقي بك وأن أتقدم لطلب الزواج منك.

لم تظهر عليها الدهشة، وواصلت تدخين سيجارتها دون أن تنظر إليّ.

تضايقت وخفت أن تسيء فهم كلامي، فقلت لها: إسمعيني يا صوفيا، أنا لا أريد على الإطلاق أن أطلب منك الزواج الآن، لأن الوضع غير ملائم. قد ترفضين بسبب التسرّع وسوف أشعر بالبؤس وقد أرتبط بامرأة بشعة ثأراً لكرامتي. وحتى لو توافقين ماذا سنفعل؟ هل نتزوج ونفترق مباشرة؟ أم نعلن خطوبتنا التي ستدوم فترة طويلة؟ أنا لا أرضى بذلك لكِ. قد تلتقين برجل آخر وتشعرين بأنك مجبرة على أن تكوني مخلصة لي. نحن نعيش في جوّ محموم ومهووس وغالبية الناس تتخذ قرارات حاسمة بتسرع غير مألوف، وعلاقات الزواج وعلاقات الحبّ تنعقد وتنحلّ بالسرعة نفسها. أريدك أن تعودي إلى بيتك حرّة وغير مرتبطة وأن تلتفتي إلى عالم ما بعد الحرب من حولك وتتخذي لنفسك موقعاً فيه. المشاعر التي تربطنا، يا صوفيا، يجب أن تستمر، وأنا لا أريد زواجاً من نوع آخر.

قالت صوفيا: ولا أنا أيضاً.

ـ في هذه الحالة أعتقد أنه يحق لي أن أطلعك على ـ حقيقة مشاعري.

قالت صوفيا هامسة: لكن لا داعي لاستخدام تعابير عاطفية.

ـ حبيبتي ـ ألم تفهمي؟ كنت أحاول ألّا أقول لك أنني أحبك...

قاطعتني قائلة: لقد فهمت ذلك جيداً يا تشارلز. وأنا معجبة بأسلوبك، وتستطيع حين عودتك أن تتصل بي ـ هذا إذا كنت لا تزال ترغب في ـ .

وجاء دوري لكي أقاطعها.

ـ ليس عندي أيّ شكّ في ذلك.

ـ الشك موجود دائماً يا تشارلز. قد يطرأ عامل غير متوقّع ويؤثر على مجرى الأمور. أنت، مثلاً، لا تعرف عني شيئاً، أليس كذلك؟

ـ أنا لا أعرف حتى عنوانك في إنكلترا.

ـ أنا أسكن في «سوينلي دين».

إنها ضاحية معروفة من ضواحي مدينة لندن تشتهر بثلاثة من أهم ملاعب الغولف في المدينة.

أضافت بإيقاع موسيقي هادىء: في بيت صغير أعوج.

رأت بريق الدهشة في عينيّ وبدت مسرورة وهي تذكر تلك الجملة المقتبسة من أغنية معروفة: «وكانوا جميعاً يسكنون في بيت صغير أعوج...» بيتنا ليس صغيراً لكنه بالتأكيد أعوج ـ سطحه فيه أجزاء عديدة مثلثة الزوايا، فيه أقسام خشبية وأخرى مكسوّة بالجصّ!.

ـ هل أنت من عائلة كبيرة؟ هل عندك إخوة وأخوات؟

ـ لي أخ واحد، وأخت، وأم وأب وعمّ متزوج وجدّ وخالة وزوجة جد.

قلت مأخوذاً: يا إلهي!

ضحكت.

ـ لم نكن بالطبع نعيش في بيت واحد من قبل. لكن الحرب والقصف جعلا العائلة تجتمع ـ لا أعرف ـ وحدقت وهي عابسة وأضافت:

ـ ربما كان أفراد العائلة يعيشون دائماً مع بعضهم البعض

من الناحية الروحية ـ تحت رعاية جدي وحمايته. جدي شخصية متميزة فعلاً، لقد تجاوز الثمانين، قصير القامة وله حضور ملفت بحيث يبدو الآخرون باهتين من حوله.

قلت: إنه مثير للاهتمام.

ـ هو كذلك فعلاً. إنه يوناني الأصل من مدينة سميرنا واسمه أريستيد ليونيدس. والتمعت عيناها قليلاً وهي تضيف: إنه ثري جداً.

ـ وهل سيظل أحد ثرياً بعد نهاية هذه الحرب؟

ردّت صوفيا بإصرار: أجل، جدي. إنه لا يتأثر بالأساليب المتبعة لابتزاز أموال الأغنياء، بل يحاول أن يبتز المبتزّين.

أضافت تقول: إنني أتساءل ما إذا كنت ستحبه؟

سألتها: وهل أنت تحبينه؟

ـ أكثر من أي إنسان آخر.

٢

لم أعد إلى إنكلترا إلاّ بعد مضيّ سنتين ونيّف، لم تكن فيهما الحياة سهلة. كتبت إلى صوفيا عدداً من الرسائل، وكانت تردّ عليّ بشكل منتظم. كانت رسائلها، مثل رسائلي، خالية من التعابير الغرامية. كنّا من خلال الرسائل صديقيْن نتناقش في عدة قضايا وأفكار ونبدي رأينا في شؤون الحياة العادية. لكنني كنت واثقاً أن مشاعر كلّ واحد منا تجاه الآخر كانت تنمو وتزداد صلابة.

عدت إلى إنكلترا ذات يوم رمادي هادئ من أيام شهر أيلول/ سبتمبر. أوراق الأشجار كانت ذهبية اللون تحت أشعة ضوء المساء الباهت، والريح كانت تعصف ثم تهدأ فجأة. من المطار أرسلت برقية إلى صوفيا:

ـ وصلت للتو. هل تتناولين العشاء معي في مطعم ماريو عند التاسعة؟ ـ تشارلز.

بعد حوالي ساعتين كنت جالساً أقرأ في صحيفة التايمز صفحة الولادات وإعلانات الزفاف والوفيات ولفت إنتباهي اسم ليونيدس، فقرأت الإعلان:

«بمزيد من اللوعة والأسى، تنعي إليكم بريندا ليونيدس وفاة

زوجها المحبوب أريستيد ليونيدس، الذي وافته المنية في بيته في سوينلي دين عن سبعة وثمانين عاماً في التاسع عشر من شهر أيلول الجاري».

وتحته مباشرة قرأت إعلاناً ثانياً:

«تنعي عائلة ليونيدس، المأسوف عليه، الوالد والجدّ، أريستيد ليونيدس الذي وافته المنية على نحو مفاجىء في بيته في سوينلي دين. ترسل باقات الزهور إلى كنيسة القديس أيلدريد في سوينلي دين».

استغربت من وجود إعلانين، وقد يكون هذا ناتجاً عن خطأ تحريري أدّى إلى نشر خبر واحد مرتين. المهم بالنسبة لي هو وضع صوفيا. أرسلت إليها مباشرة برقية ثانية:

قرأت منذ قليل نبأ وفاة جدك. تعازيّ القلبية. أرجو أن تتصلي بي لتحديد موعد آخر للقائنا يكون مناسباً لك ـ تشارلز.

وصلتني برقية من صوفيا عند الساعة السادسة وأنا في بيت والدي. وكان نصها:

سأكون في مطعم ماريو عند التاسعة من هذا المساء. صوفيا.

شعرت بالاضطراب والتوتر لأنني سألتقي بصوفيا ثانية. مرّ الوقت ببطء مزعج. وصلت إلى مطعم ماريو قبل الموعد بعشرين دقيقة. صوفيا تأخرت خمس دقائق فقط.

من الطبيعي أن يشعر المرء بصدمة حين يلتقي شخصاً لم يره منذ فترة طويلة وكان حاضراً في ذهنه طوال فترة الفراق. حين دخلت صوفيا من الباب الزجاجي المتأرجح شعرت أن لقاءنا غير واقعيّ. كانت ترتدي فستاناً أسود وقد أجفلني ذلك لسبب أجهله. معظم السيدات من حولي كنّ يرتدين ثياباً

سوداء، لكن صوفيا كانت ترتدي فستان حداد ـ والذي أثار دهشتي أن تكون صوفيا من النساء اللواتي يرتدين الأسود للحداد ـ حتى على فقيد عزيز على قلبها.

تناولنا كأسين من الكوكتيل عند البار، ثم توجهنا إلى الطاولة المحجوزة لنا. تبادلنا الحديث بسرعة وبانفعال حول أصدقاء مشتركين عرفناهم أثناء الإقامة في القاهرة. كان الحديث مفتعلاً لكنه ساعدنا على تجاوز الارتباك في بداية اللقاء. قدمت لها تعزيتي بوفاة جدّها واكتفت صوفيا بالقول بهدوء أن ذلك كان سريعاً جداً. ثم عدنا إلى ذكرياتنا. بدأت أشعر بعدم ارتياح، وأن هناك خللاً معيناً؛ خلل غير ناتج عن الارتباك الطبيعي في بداية اللقاء. بالتأكيد توجد مشكلة، ومشكلة لها علاقة بصوفيا نفسها. هل ستقول لي أنها التقت برجل آخر وأنها تميل إليه؟ أو أن شعورها نحوي كان مجرد غلطة؟

لم أقتنع بما تبادر إلى ذهني ـ ولم أعرف سبباً لتغير صوفيا. وفي هذه الأثناء كنا نواصل حديثنا المصطنع.

حين وضع الخادم فنجاني القهوة على الطاولة وابتعد وهو ينحني لنا، تغيّر الموقف على نحو مفاجىء وعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي. شعرت أن صوفيا تجلس معي في مطعم إلى طاولة صغيرة، كما كنا نجلس غالباً في الماضي، وسنوات الفراق تلاشت بيننا.

قلت: صوفيا.

وفي الحال ردّت: تشارلز.

تنهدت بعمق وبارتياح.

قلت: أخيراً ارتحنا، ماذا حدث لنا؟

ـ إنها على الأرجح غلطتي. كنت غبية.

ـ هل كلّ شيء على ما يرام الآن؟

ـ أجل، كل شيء على ما يرام.

تبادلنا الابتسامات.

قلت: حبيبتي! وبعد قليل أضفت: متى نحدد موعد زفافنا؟

ذبلت ابتسامتها، وعاد ذلك الخلل يرسم جداراً بيننا.

قالت: لا أعرف، لست واثقة يا تشارلز من أنني أستطيع أن أتزوجك.

ـ لكن، صوفيا! ولم لا؟ هل سبب ذلك شعورك بأنني غريب عنك؟ هل أنت بحاجة لمزيد من الوقت لتعتادي عليّ ثانية؟ هل هناك رجل آخر في حياتك؟ لا... وسكتّ ثم قلت: أنا مجنون. لا علاقة لرأيك بأي شيء من هذا القبيل.

قالت: لا علاقة له بذلك فعلاً.

انتظرتُ تفسيرها. ثم قالت بصوت منخفض: السبب في تريثي هو وفاة جدي.

ـ وفاة جدك؟ لكن لماذا؟ ما علاقة ذلك بزواجنا؟ أنتِ لا تقصدين... ولا تفكرين... هل هناك مشكلة مالية؟ ألم يترك ثروة؟ لكن بالتأكيد يا حبيبتي...

ـ المشكلة لا علاقة لها بالمال أو بالثروة. وابتسمت لي ابتسامة سرعان ما زالت، وأضافت تقول: أعرف أنك مستعد لأن تأخذني بالثوب الذي أرتديه، كما يقول المثل. وجدي أيضاً لم يخسر في حياته أيّ مبلغ جمعه.

ـ ما الأمر إذاً؟

ـ إنه موته... إنني أعتقد يا تشارلز أنه مات مقتولاً...

حدّقت فيها وقلت: يا لها من فكرة مذهلة! وما الـذي يجعلك تفكرين في ذلك؟

ـ إنها ليست مجرد فكرة.

منذ البداية رفض الدكتور الذي عاينه أن يوقّع عـلى شهادة وفاته، بل طالب بإجراء تشريـح للجثة. من الـواضح أنـه يشك بوجود شيء غير طبيعي.

لم أناقشـها، لأنها ذكية جداً وإذا توصلت إلى استنتاج فـهذا يعني أنها أشبعته درساً ويمكن الاستناد إليه.

قلت لها بإخـلاص: قد تكـون هذه الشكـوك في غير محلّهـا. وإذا افترضنا بالفعل أنها في محلها، كيف يؤثّر ذلك علينا؟

ـ قـد يكون لـذلك تـأثيره في ظـروف معينـة. أنت تعمـل في السلك الدبلـوماسيّ، واختيـار الزوجـة المناسبـة لك لا يخضـع لرغبة شـخصيـة فقط، بل يكـون للمسؤولين رأيهم فيـه أيضاً. لا... أرجـوك لا تحاول أن تـردّ بانفعـال. لا تقل كلمـات تشعر بأنك ملـزم أن تقولهـا... وأنا واثقـة أنك مقتنـع بها في الـوقت نفسه... وأنا من الناحية النظرية أوافقك عليها. يجب أن تعرف أنني متكبـرة... متكبرة جـداً. أريد أن يكـون زواجنا منـاسبة سعيدة بالنسبة للجميع... ولا أريد أن يقدم أي واحد منا أدنى تضحية من أجل الحب؟ وكما قلت لك، قد تكون الشكوك...

ـ تعنين أن الدكتور قد يكون مخطئاً؟

ـ حتى لـو لم يكن مخطئاً لا يعـود لذلـك أهمية، طـالمـا أن الشخص المناسب هو الذي قتل جدي.

ـ ماذا تقصدين بذلك يا صوفيا؟

ـ أعـرف أن كلامي يخيفـك، لكنني أريد أن أكـون صريحة معك.

وأدركت مقدماً ما أريد قوله فتابعت تقول: «لا يا تشارلز. لن أقـدم أي تفسير آخـر. لقد شرحت لـك ما فيـه الكفـايـة. كنت مصمّمة على الحضور، وعلى اللقاء بك هذه الليلة... لكي أخبرك بنفسي بملابسات الحـادثة وأشرح لـك موقفي. لن نستطيـع أن نفكر بالاستقرار قبل تسوية هذه المشكلة...

ـ إشرحي لي مخاوفك على الأقل.

هزت رأسها وقالت: لا أريد ذلك.

ـ لكن... يا صوفيا...

ـ لا، يا تشارلز. لا أريدك أن ترى الأمور من وجهـة نظري أنا. أريدك أن تتأملها من الخارج وبدون تحيّز.

ـ وكيف لي أن أفعل ذلك؟

نظرت إلي وتألق بـريق غريب في عينيهـا الزرقـاوين. وقالت: ستعرف الردّ من والدك.

كنت قد أخبرت صوفيا في القاهرة أن والـدي يشغل منصب مساعد مفوّض في سكوتلاند يارد. وكان لا يزال في منصبه هذا. حين سمعت كلماتها شعرت بأن حملاً كبيراً يوضع على كتفيّ.

ـ المسألة معقدة إلى هذه الدرجة إذاً؟

ـ أظنّ ذلك. هل تـرى رجلاً جـالساً إلى طـاولة وحـده قرب الباب... إنه لطيف ويبدو بليد الحسّ كأنه جندي سابق؟

ـ أجل.

ـ كان في محطة سـوينلي دين هـذا المساء حـين صعدت في القطار.

ـ تقصدين أنه يلاحقك؟

ـ أجل. أعتقد أن جميع أفراد العائلة... كيف نقول ذلك عادة؟... يخضعون للمراقبة. لقد ألحوا لنا بعدم مغادرة المنزل. لكنني كنت مصمّمة على لقائك، فتسلّلت من نافذة الحمام ونزلت على أنبوب الماء.

ـ حبيبتي!

ـ لكن رجال الشرطة قديرون، وقد عرفوا طبعاً نصّ البرقية التي أرسلتها لك. حسناً... دعنا من ذلك الآن... المهم أننا التقينا... لكن من الآن فصاعداً يجب أن يكون كل واحد منّا بمفرده.

تريثت قليلاً ثم أضافت: لسوء الحظ، لا شك في أننا نتبادل الحبّ.

ـ لا شك في ذلك على الإطلاق. ولا تقولي: لسوء الحظ. أنت وأنا عشنا أياماً صعبة في حرب عالمية، ونجونا مرات عديدة من الموت... وأنا لا أستطيع أن أفهم كيف أن الموت المفاجىء لرجل عجوز... بالمناسبة، كم كان عمره؟

ـ سبعة وثمانون عاماً.

ـ بالتأكيد. لقد قرأت الخبر في صحيفة «التايمز». لو أنك تطلبين رأيي، سأقول أنه مات من الشيخوخة، وأعتقد أن أيّ محقّق يحترم نفسه سيوافق معي.

ـ لو أنك كنت تعرف جدي جيداً كنت ستتفاجأ من موته لأي سبب كان!

■ ٣ ■

كنت دائماً أجد قدراً من الاهتمام بنشاط والدي وعمله، لكنني لم أكن أتصوّر أنني سأهتم به بشكل مباشر أو أنني سأجد نفسي معنياً به شخصياً.

لم أكن قد التقيت بوالدي بعد. لم أجده في البيت عند وصولي، أخذت حماماً وحلقت ذقني وغيرت ملابسي وخرجت للقاء صوفيا. عند عودتي قال لي غلوفر أن والدي موجود في غرفة مكتبه.

كان جالساً إلى طاولته يحدّق عابساً في مجموعة من الأوراق أمامه. نهض بسرعة حين رآني.

ـ تشارلز! أهلاً، أهلاً، طالت غيبتك هذه المرة.

لو أن رجلاً فرنسياً شاهد لقاءنا، بعد خمس سنوات من الحرب، كان سيشعر بخيبة أمل، مع أنّ جميع الأحاسيس التي يثيرها اجتماع الشمل كانت موجودة. أنا ووالدي نتبادل محبة صادقة، وكلّ منا يقدّر مشاعر الآخر ويفهمه جيداً.

قال لي: عندي زجاجة ويسكي من النوع الجيد. قل لي متى تريد أن تتذوقه. أعتذر لأنني لم أكن موجوداً عند وصولك، عندي عمل كثير هذه الفترة. بدأنا التحقيق في قضية صعبة.

أسندت ظهري إلى الكرسي وأشعلت سيجارة. سألته: قضية أريستيد ليونيدس؟

قطب حاجبيه بسرعة ورمقني بنظرة فاحصة. سألني ببرود وبتهذيب: ما الذي يجعلك تقول ذلك يا تشارلز؟

ـ كنت على حقّ إذاً؟

ـ وكيف عرفت؟

ـ وصلتني معلومات معينة.

انتظر مزيداً من الشرح.

ـ المعلومات التي وصلتني كانت من داخل البيت.

ـ أخبرني بالأمر يا تشارلز.

ـ قد لا يعجبك ما سأقوله. لقد تعرفت على صوفيا ليونيدس في القاهرة. ووقعت أسير حبّها، وأنوي أن أتخذها زوجة لي. التقيت بها هذا المساء وتناولنا العشاء معاً.

ـ تناولت العشاء معك؟ هنا في لندن؟ كيف استطاعت أن تفعل ذلك؟ لقد طلبنا من أفراد العائلة أن... طلبنا منهم بمنتهى اللّطف عدم مغادرة البيت.

ـ هذا صحيح، وصوفيا خرجت من نافذة الحمام واستخدمت ماسورة المياه لتصل إلى الأرض.

ارتسمت ابتسامة نحيلة على شفتي الوالد وقال: يبدو أنها شابة موهوبة.

ـ ومجموعتك من رجال الشرطة على درجة عالية من الكفاءة. لقد تمكن أحد رجالك من ملاحقتها حتى مطعم ماريو. سوف تقرأ اسمي في التقرير الذي سيقدمه لك. الطول: ٥,١١ قدماً،

والشعر بنّي، والعينان عسليتان، والبذلة زرقاء داكنة ومخطّطة، الخ...

تأملني والدي بإصرار وسألني: هل هذه العلاقة... جدية؟

ـ أجل، يا أبي، إنها علاقة جدية.

ساد الصمت فترة.

سألته: هل لديك مانع؟

ـ لم أكن لأمانع لو أنني عرفت منذ أسبوع فقط. إنها من عائلة ذات مركز وجاه... وسوف تحصل على إرث كبير... وأنا أعرفك جيداً، أنت لا تتعلّق بأية فتاة بسهولة. لكن يبدو أن...

ـ ماذا تريد أن تقول يا أبي؟

ـ سيكون كلّ شيء على ما يرام لو أن...

ـ لو أن ماذا؟

ـ لو أن الشخص المناسب هو الذي ارتكب الجريمة.

تلك كانت المرة الثانية في هذه الليلة التي أسمع فيها هذه العبارة. بدأت أهتم بالأمر.

ـ ومن هو بالتحديد هذا الشخص المناسب؟

رمقني بنظرة حادّة.

ـ إلى أيّ حد تعرف هذه القضية؟

ـ لا أعرف شيئاً عنها.

ـ لا شيء؟ وبدا مدهوشاً: ألم تخبرك الفتاة؟

ـ لا. قالت لي أنها تفضل لو أرى إلى الوضع من الخارج وبدون تحيّز.

ـ ترى ماذا تقصد بذلك؟

ـ أليس هدفها واضحاً؟

ـ لا يا تشارلز. لا أعتقد ذلك.

أخذ يروح ويجيء وهو عابس. كان قد أشعل سيجاراً، والسيجار انطفأ دون أن يضعه في فمه. هذا دليل على شدّة قلقه.

سألني فجأة: ماذا تعرف عن العائلة؟

ـ اللعنة على الجميع! أعرف أن هناك رجلاً عجوزاً وعنده مجموعة من الأبناء والبنات والأحفاد والأنسباء. لا أعرف الفروع جيداً. وسكت قليلاً ثم قلت: من الأفضل أن تشرح لي الأمر بنفسك يا أبي.

ـ أجل وجلس وقال: حسناً، سوف أبدأ من البداية.. من أريستيد ليونيدس الذي وصل إلى انكلترا وهو في الرابعة والعشرين.

ـ يوناني من سميرنا.

ـ تعرف ذلك عنه؟

ـ أجل، وهذا تقريباً كلّ ما أعرفه.

فتح الباب غلوفر وقال ان المفتش تافيرنر وصل.

قال لي والدي: هو المسؤول عن القضية، وقد بدأ تحرياته حول العائلة ويعرف عن هذا الموضوع أكثر مني. دعه يدخل يا غلوفر.

سألته ما إذا كانت الشرطة المحلية في سوينلي دين طلبت مساعدة سكوتلاند يارد.

ـ هذه المنطقة تقع تحت سلطتنا. سوينلي دين تعتبر من ضمن لندن الكبرى.

أحنيت رأسي للمفتش تاڤيرنر عند دخوله. كنت أعرفه منذ سنوات عديدة. سلم علي بحرارة وهنأني على عودتي بالسلامة إلى أرض الوطن.

قال لي والدي: كنت أحاول أن أضع تشارلز في صورة ما حدث. إذا أخطأت تستطيع أن تصحّح لي خطأي يا تاڤيرنر. وصل ليونيدس إلى لندن في عام ١٨٨٤. أنشأ مطعماً صغيراً في سوهو، جنى منه ربحاً وفيراً، فأنشأ مطعماً ثانياً. وفي غضون فترة غير طويلة صار يمتلك سبعة أو ثمانية مطاعم. وجميعها كانت تدرّ عليه الأرباح.

قال المفتش تاڤيرنر: لم يرتكب أي خطأ في تجارته.

ـ إنه يتمتع بحاسّة تمييز طبيعية، وقد صار مموّلاً لمعظم المطاعم المعروفة في لندن، ثم تحوّل إلى متعهّد للحفلات والسهرات على نطاق واسع.

قال تاڤيرنر: وكان نشاطه يشمل مجالات أخرى، منها تجارة الملابس المستعملة، والحليّ الرخيصة وأشياء أخرى عديدة. فكّر قليلاً ثم قال: وكان بالطبع مخادعاً.

سألته: هل تقصد أنه كان لصّاً؟

هزّ تاڤيرنر رأسه.

ـ لا، لم أقصد ذلك. إنه مخادع فعلاً ـ لكنه ليس لصاً. لم يرتكب في حياته أي عمل مخالف للقانون. لكنه كان يفكر في كلّ الوسائل الممكنة لكي يلتفّ حول القانون. لقد تمكّن بأسلوبه هذا من تجميع ثروة هائلة حتى أثناء الحرب الأخيرة، بعد أن صار كهلاً. لم يفعل شيئاً يطاله فيه القانون.. لكنه حين كان يخطو خطوته تجد أنك مضطر لتبريرها قانونياً، إذا فهمت ما

أقصد. وحين تنتهي من إيجاد المبرّرات القانونية للخطوة الأولى يكون قد باشر بالقيام بمشروع آخر.

قلت: يبدو من كلامك أنه لم يكن شخصية جذابة.

ـ الغريب في الأمر أنه كان على قدر من الجاذبية، وكان يلفت النظر بقوة شخصيته. لم يكن في شكله ما يعجب، كان قزماً... ملامحه بشعة... لكن له سحره الخاص والنساء كنّ يقعن في غرامه.

قال والدي: أثار زواجه دهشة الجميع، لأنه تزوج من ابنة إقطاعي كبير.

رفعت حاجبيّ وقلت: زواج مصلحة؟

هزّ والدي رأسه وقال: لا، كان زواجاً عن حبّ. التقت به من أجل الإعداد لحفلة زفاف صديقة لها، وأحبته من اللقاء الأول. رفض والدها هذه العلاقة، لكنها كانت مصمّمة على الزواج منه. قلت لك، هذا الرجل كان جذاباً... وكانت شخصيته متميّزة بغرابتها وحيويتها مما جعل الفتاة تتمسك به لأنها شعرت بالملل من الرجال الآخرين الذين يحيطون بها.

ـ وهل كان زواجهما ناجحاً؟

ـ كان ناجحاً للغاية، على عكس ما هو متوقع. بالطبع لم ينجحا في التقريب بين أصدقائهما (في تلك الأيام لم يكن المال قادراً على تخطي الحواجز الطبقية) لكن ذلك لم يؤثر على سعادتهما. عاشا بدون أصدقاء. شيد منزلاً لا يمكن أن يتصوّره عقل إنسان، وذلك في ضاحية سوينلي دين، وأنجبا فيه ثمانية أولاد.

ـ هذا بالفعل تاريخ للعائلة.

ـ كان ليونيدس العجوز ذكياً في اختياره لضاحية سوينلي دين، لأن الموقع صار مرغوباً من الطبقات الراقية. لم يكن ملعبا الغولف الثاني والثالث قد شيّدا بعد. وكان هناك خليط من سكان المنطقة المحليّين الذين كانوا مولعين بحدائقهم وكانوا يحبون السيدة ليونيدس، ومن بعض الأثرياء من المدينة الذين كانوا يرغبون في التقرّب من ليونيدس لكي يفسح لهم المجال في اللقاء بذوي النفوذ من معارفه. كان السيد ليونيدس وزوجته سعيدين للغاية إلى أن وافتها المنية بعد إصابتها بالتهاب صدري في عام ١٩٠٥.

ـ وتركت له ثمانية أولاد؟

ـ أحدهم مات وهو لا يزال طفلاً. وشابان استشهدا في الحرب الأخيرة. وله ابنة تزوجت وهاجرت إلى استراليا وقد ماتت هناك. وابنة ثانية غير متزوجة ماتت في حادثة سيارة. وثالثة ماتت منذ سنة أو سنتين. لا يزال عنده إبنان على قيد الحياة، إبنه البكر ويدعى روجر وهو متزوج وليس عنده أولاد، وفيليب المتزوج من ممثلة شهيرة وعنده ثلاثة أولاد: صوفيا التي تعرفها وأوستاس وجوزفين.

ـ والجميع يعيشون في البيت الذي أطلق عليه اسم «النتوءات الثلاثة».

ـ أجل. بيت روجر ليونيدس تدمّر بالقصف منذ بداية الحرب. وفيليب وعائلته كانوا يعيشون مع الرجل العجوز منذ عام ١٩٣٧. وفي البيت أيضاً خالة كبيرة في السن، تدعى الآنسة دوهافيلاند، وهي أخت السيدة ليونيدس الأولى. كانت الخالة تكره زوج أختها، لكنها بعد وفاة أختها اعتبرت أن من

واجبها أن تقبل دعوة صهرها للإقامة في بيته من أجل العنـاية بالأولاد.

قال المفتش تافيرنر: وقد قامت بـواجبها أحسن قيام. لكنها ليست من اللواتي يغيرن رأيهن في الآخـرين، كانت طـوال هذه المدة تعبر عن نفورها من ليونيدس وأسلوبه في العمل...

قلت: حسناً، البيت مليء بالسكان، من هو القاتل برأيك؟

هزّ تافيرنر رأسه.

ـ لا يزال الوقت مبكراً لتحديد ذلك.

قلت له: إنني أراهن بأنـك تعرف القـاتل. هيـا، يا تـافيرنـر أعطنا رأيك، لسنا في قاعة المحكمة هنا.

قال تافيرنر وهو مقطب الجبين: لسنا في قاعـة المحكمة، وقـد لا ندخل تلك القاعة أيضاً.

ـ تعني أنه لم يمت مقتولاً؟

ـ لقـد مات مقتـولاً، بالسمّ. لكن أنت تعـرف جرائم السمّ، تكون قضاياها عادة معقّدة ومن الصعب جداً التوصل إلى أدلّة واضحـة. صعبة جـداً، وتتطلب براعـة ودقّة. قـد تشير جميـع الاحتمالات إلى طريق واحد...

ـ هـذا ما أردت التـوصل إليـه. تبدو القضيـة واضحـة في ذهنك، أليس كذلك؟

ـ في هذه القضية احتمـال واضح وقـوي جداً، والتفـاصيل مُعدّة بإتقان. لكنني واثق من أن هذا الوضوح مخادع.

التفتّ نحو والدي أستنجد به.

قال ببطء: أنت تعرف يا تشارلز أنه في القضـايا الإجـرامية

غالباً ما يكون الاحتمال الواضح هو الإحتمال الصحيح. لقد تزوج ليونيدس العجوز للمرة الثانية منذ حوالي عشر سنوات.

ـ عندما كان في السابعة والسبعين؟

ـ أجل، وتزوج من شابة في الرابعة والعشرين.

صفّرت إعجاباً.

ـ ومن هي هذه الشابة؟

ـ شابة التقى بها في صالة للشاي. شابة محترمة وأنيقة ـ وعلى قدر من الجمال لكنها تبدو ضعيفة وفاترة.

ـ ومن المفترض أن تكون هي الاحتمال الأقوى؟

قال تافيرنر: أريد يا سيدي أن ألفت انتباهك إلى أنها في الرابعة والثلاثين ـ وهذا السن خطير. إنها تحب الحياة المرفّهة، وفي البيت شاب يعمل مدرساً خصوصياً للأحفاد. لم يشارك في الحرب لأنه مصاب بضعف في قلبه، أو أنه قدم عذراً مشابهاً. وتربط بينه وبين السيدة ليونيدس صداقة حميمة.

نظرت إليه وأنا أفكر في الأمر. لا شك أن هذه عقدة معروفة ومألوفة. والسيدة ليونيدس كما قال والدي محترمة جداً، وهناك عدد كبير من الجرائم ترتكب تحت ستر الإحترام.

سألته: ما هو نوع السم الذي استخدم؟ الزرنيخ؟

ـ لا. لم يصلنا تحليل المختبر النهائي بعد، لكن الدكتور يرجّح أنه «الإيسرين».

ـ هذا السمّ غير شائع، أليس كذلك؟ ليس من الصعب الوصول إلى المشتري.

– ليس الأمر بهذه البساطة. كان السم موجوداً في قارورة قطرة للعيون.

قال والدي: ليونيدس كان يعاني من مرض السكّري، وعليه أن يأخذ كل يوم حقنة من الأنسولين. والأنسولين يوزّع في قوارير صغيرة لها غطاء مطاطي، والإبرة يتم غرسها في هذا الغطاء لسحب الدواء السائل.

وحزرت ما حدث:

– وفي المرة الأخيرة لم يكن في القارورة الأنسولين بل الإيسرين؟

– تماماً.

– ومن الذي أعطاه الحقنة؟

– زوجته.

فهمت ما كانت تقصده صوفيا حين قالت: الشخص المناسب.

سألته: هل السيدة ليونيدس الثانية على علاقة طيبة بسائر أفراد الأسرة؟

– لا. أعتقد أن العلاقة لا تتعدى تبادل بعض الكلمات.

بدأ الأمر يزداد وضوحاً. لكن المفتش تافيرنر لم يكن سعيداً بهذا الاستنتاج السريع.

سألته: ما الذي يزعجك؟

– لو أنها هي الجانية، يا سيد تشارلز، كان من السهل عليها أن تستبدل قارورة السمّ بقارورة إنسولين أصلية. وأنا لا

أستطيع أن أفهم لماذا لم تفعل ذلك إذا افترضنا أنها مذنبة فعلاً.

ـ صحيح، الحقّ معك. وهناك عدة قوارير من الأنسولين؟

ـ آه، طبعاً، قوارير ملآنة وقوارير فارغة. ولو أنها فعلت ذلك لم يكن الدكتور سيلاحظ شيئاً، لأن عوارض التسمّم بالإيسرين لا تزال غير معروفة. لكن الدكتور أخذ يفحص قارورة الانسولين الأخيرة للتأكد من أنها تحتوي على نسبة التركيز الملائمة أو أنها صالحة للاستعمال، وانتبه في الحال أن السائل الذي تحتويه لم يكن الأنسولين.

قلت وأنا أفكر: وهكذا تبدو السيدة ليونيدس إما غبية جداً ـ أو ذات ذكاء مميّز.

ـ تقصد أنها...

ـ أقصد أنها راهنت على أنك سوف تستنتج أن الجاني لا يمكن أن يكون غبياً إلى هذا الحدّ. ما هي الاحتمالات الأخرى؟ هل هناك مشبوهون آخرون؟

قال والدي بهدوء: الشبهة تتوزّع على جميع المقيمين في البيت. كان العجوز يحتفظ بكمية وافرة من قوارير الأنسولين، كمية تكفي لأسبوعين تقريباً. ومن السهل على أي شخص أن يعبث بمحتويات إحدى القوارير ويكون واثقاً أنها سوف تستخدم في أيام معدودة.

ـ وأي شخص كان يستطيع الوصول إلى هذه القوارير؟

ـ لم تكن مخبأة في خزانة مقفلة. كانت توضع على رف في خزانة الأدوية في الحمام التابع لجناحه الخاص. وأي مقيم في البيت يستطيع أن يدخل إلى هذا الجناح ويخرج منه بحرية.

ـ هل يوجد دافع قوي؟
تنهّد والدي.

ـ يا عزيزي تشارلـز، أريستيد ليـونيدس كـان ثرياً جداً. صحيح أنه وزّع جزءاً من ثروتـه على أفـراد عائلتـه، لكن ربما يكون أحدهم طمع في الحصول على المزيد.

ـ لكن الأرملـة الشابـة هي أكثـر واحـدة تـرغب في ذلـك. وصديقها، هل هو غنيّ؟

ـ لا، إنه فقير كفأر يختبيء في كنيسة.

فجأة تذكرت الأغنية التي أشـارت صوفيـا إلى جملة فيهـا، وردّدت في سرّي مقطعاً من تلك الأغنيـة التي يحفظها الأطفـال عادة:

«يُحكى ان رجلاً محدودب الظهر مشى في طريق عـوجاء وجـد نصف شلن اعوج قرب جدار أعوج وكانت عنده قطة عوجاء اصطادت فاراً أعـوج وكان الجميـع يسكنون في بيت صغيـر أعوج».

سألت تافيرنر: ما هو رأيك بالسيدة ليونيدس؟

أجابني ببطء: من الصعب أن أعطيك رأيـاً واضحاً... إنهـا ليست ذات شخصيـة بسيطة ـ لـذلك يصعب عليـك أن تعرف بماذا تفكر. إنها تحب العيش المرفّه... هذا على الأقل أنا متأكد منه. إنها تشبه برأيي قطة كبيرة وكسولة... أنا لا أكره القطط. لا بأس بالقطط...

وتنهّد وقال: نحن نريد التوصل إلى دليل قاطع.

فكرت أنه على حقّ، كلنا نريد التـوصل إلى الـدليل عـلى أن

السيدة ليونيدس هي التي حقنت زوجها بالسمّ. صوفيـا تريـد ذلك، وأنا أريده، والمفتش تاڤيرنر يريده أيضاً.

عندئذٍ ستصبح الحياة جميلة!

لكن صوفيا لم تكن واثقة من شكوكها، وأنا أيضاً ولا أعتقد أن المفتش تاڤيرنر كان واثقاً من شكوكه أيضاً...

■ ٤ ■

في اليوم التالي قصدت منزل: «النتوءات الثلاثة» مع تاڤيرنر.

وجودي هناك كان غريباً. كان على الأقل غير متعارف عليه. لكن والدي لم يكن يميل دائماً إلى القرارات المتعارف عليها.

كنت أتمتع بموقع مقبول لأنني عملت في السابق مع جهاز الأمن الخاص في سكوتلاند يارد وذلك في الأيام الأولى لاندلاع الحرب.

لكن وجودي في بيت ليونيدس كان مختلفاً تماماً... لكن يبدو أن كفاءتي السابقة أعطتني صفة رسمية، إلى حدّ ما.

قال لي والدي: إذا أردنا التوصل إلى حلّ لهذه القضية يجب علينا أن نحصل على معلومات موثوقة من الداخل. يجب أن نعرف جيداً الأشخاص الذين يقيمون في البيت. يجب أن نعرفهم على حقيقتهم من الداخل... وليس من الخارج. وأنت الرجل المناسب الذي يستطيع الحصول على هذه المعلومات.

لم يعجبني كلامه. رميت بعقب سيجارتي من النافذة المشبّكة وقلت له:

- هل أنا جاسوس في الشرطة؟ هل تريدني أن أكون كذلك؟

المطلوب مني هو الحصول على المعلومات من صوفيا التي أحبّ، والتي تحبني وتثق بي، كما أظنّ.

تضايق والدي وقال لي بنبرة حادّة:

ـ أرجوك لا تنظر إلى الأمر من الزاوية المبتذلة. أريد أن أسألك أولاً، أنت واثق، أليس كذلك، أن صديقتك الشابة لم تقتل جدّها؟

ـ بالطبع أنا واثق منها. يا لها من فكرة سخيفة.

ـ عظيم... وهذا هو رأينا أيضاً. لقد غابت عن البيت سنوات عديدة، وحافظت على علاقة وطيدة بجدّها. خصّص لها مدخولاً سخياً، وأعتقد أنه كان سيفرح لخطوبتكما وكان على الأرجح سيقدم لها هدية زفاف تليق بها. نحن لا نشك بها، لأنه ليس لدينا أيّ مبرّر لذلك. لكن يجب أن تفهم أنها لن تقبل الزواج منك طالما أننا لم نتوصل إلى حلّ الغموض في هذه القضية. هذا ما فهمته من حديثها معك. وأريدك أن تفهم أيضاً أنه من الصعب جداً حلّ الغموض في هذا النوع من القضايا. قد نكون متأكدين أن الزوجة وصديقها تعاونا لتنفيذ الجريمة... لكن إثبات ذلك موضوع آخر. ليست لدينا حتى الآن المعطيات الكافية لوضع القضية بين يدي النائب العام. وطالما أننا لم نتوصل إلى دليل إثبات قاطع ضدّها، لن يتعدى اتهامنا لها مجرّد الشك. أنت تفهم ما أقصده، أليس كذلك؟

ـ أجل، فهمت قصدك.

قال والدي بهدوء بعد ذلك:

ـ لماذا لا تصارحها بالحقيقة؟

ـ تقصد أن أطلب من صوفيا... أن... وسكتّ.

كان والدي يهزّ رأسه بحماس وقال: أجل، أجل. أنا لا أطلب منك أن تبدأ مهمتك دون أن تصارح الفتاة بنواياك، أخبرها بطبيعة مهمتك واسألها رأيها في ذلك.

وهكذا، وفي اليوم التالي رافقت المفتش تافيرنر والرقيب لامب إلى سوينلي دين.

تجاوزنا ملعب الغولف بمسافة قصيرة، وانعطفنا في طريق فرعية، تخيلت أنها كانت قبل الحرب مقفلة بواسطة بوابة حديدية ضخمة. وهذه تم الاستيلاء عليها إما بسبب الحماسة الوطنية أو أنها صودرت من قبل السلطات المختصة. انطلقت بنا السيارة في طريق ملتوية تحيط بها شجيرات الورود ووصلنا إلى فسحة مرصوفة بالحصى أمام البيت.

ويا له من بيت! استغربت لماذا أطلقوا عليه اسم «النتوءات الثلاثة»، كان الأجدر أن يسموه «بيت الأحد عشر نتوءاً»! والغريب في الأمر أنه يوحي بأنه مشوّه... وأعتقد أنني عرفت سبب تشويهه. إنه بالفعل يشبه الكوخ في شكله، لكنه كوخ تضخّم حتى تجاوز المقاييس المعروفة. شعرت وكأنني أنظر إلى كوخ ريفيّ من خلال عدسة مكبّرة: العوارض الخشبية المائلة، والهيكل الخشبي الذي يكسو الجصّ بعض أجزائه، والنتوءات... إنه بالفعل بيت أعوج توسّع ونما كما ينمو الفطر أثناء الليل!

هكذا تصوّر صاحب المطاعم اليوناني البيت الإنكليزي. كان يريده بيتاً انكليزياً... بحجم قصر!

ترى ماذا قالت السيدة ليونيدس الأولى حين رأته؟ أعتقد أنه لم يسألها رأيها مسبقاً ولم يطلعها على الخريطة. كان يريد،

على الأرجح، أن يقدم لها مفاجأة على طريقته. ترى هل أجفلت أم ابتسمت؟

من الواضح أنها عاشت فيه بسعادة وهناء.

قال المفتش تافيرنر: مشهد غير اعتيادي، أليس كذلك؟ يبدو أن العجوز أضاف إليه عدة غرف ـ حتى صار بالإمكان تقسيمه إلى ثلاثة بيوت مستقلّة، إلى حدّ ما، لكلّ بيت مطبخه وكلّ ما يحتاج إليه. كلّ شيء في الداخل من الطراز الأول، وكأنه فندق فخم.

خرجت صوفيا من الباب الرئيسي. كانت حاسرة الرأس وترتدي قميصاً أخضر وتنّورة من التويد فذهلت حين رأتني. وقالت: أنت؟

قلت: صوفيا، أريد أن أتحدث إليك. أين نستطيع أن نتحدث بهدوء؟

شعرت أنها تردّدت، لكنها استدارت وقالت: تفضّل!

مشينا على العشب الأخضر. كان مشهد ملعب الغولف الأول في سوينلي دين جميلاً، وتعلو في وسطه تلّة عليها مجموعة من أشجار الصنوبر، وتبدو وراءه البيوت الريفية من خلال الضباب الغائم.

قادتني صوفيا إلى حديقة مزخرفة بالصخور، كانت مهملة إلى حدّ ما، يوجد فيها مقعد خشبي قديم غير مريح على الإطلاق، وهناك جلسنا. ثم قالت: حسناً؟

لم يكن صوتها مشجّعاً. فأخبرتها بالأمر... بصراحة تامة.

استمعت إليّ بانتباه. لم يكن وجهها يدلّ على تفكيرها، وحين

وصلت إلى نهاية كلامي تنهدت. كانت تنهيدتها عميقة. وقـالت: والدك رجل ذكي جداً.

ـ والدي عنده مبررات. إنها برأيي فكرة مرفوضة ولكن...

قاطعتني وقالت: لا، لا تقـل أنها فكـرة مرفـوضة، لانهـا قد تكون ذات فائدة. والدك يـا تشارلـز يدرك تمـاماً الأفكـار التي تدور في رأسي. إنه يعرف الوضـع أفضـل منك.

وبحركة مفاجئة وعنيفة دلّت على يـأسها، شـدّت على يـديها وقالت: يجب أن أعرف الحقيقة. يجب أن أعرفها.

ـ بسببنا؟ لكن، يا حبيبتي...

ـ ليس فقط بسببنا يا تشارلز. يجب أن أعرف الحقيقة لكي أرتـاح. أنا لم أكن صريحـة معك البـارحة يـا تشارلـز، لكنني سأعترف لك الآن بأنني خائفة.

ـ خائفة؟

ـ أجل... خائفة... خائفة... خائفة... رجال الشرطة ووالدك وأنت والجميع يعتقدون أن بريندا هي القاتلة.

ـ تشير الاحتمالات...

ـ آه، أجل، هذا افتراض محتمل. محتمل فعلاً. لكنني حين أقول أن بريندا قد تكون هي الجانية، أدرك تمامـاً أنني أتمنى لو كانت هذه هي الحقيقة، لأنني بالفعل لا أعتقد ذلك.

قلت ببطء: لا تعتقدين ذلك؟

ـ لا أعرف. أنت عرفت القضية من الخارج كمـا أردتك أن تفعل. والآن سأعرضـها عليك من الداخل. إنني بكلّ بسـاطة لا

أعتقد أن بريندا ترتكب جريمة ولا تـورّط نفسها في أي خطـر. إنها حريصة للغاية.

ـ وصديقها الشاب؟ لورانس براون؟

ـ لورانس جبان كالأرنب. ليست عنده الشجاعة الكافية.

ـ من الصعب التأكد من ذلك.

ـ أجـل، من الصعب أن نعـرف، لأن النـاس يفـاجئـوننـا بتصرفاتهم. يتركون انطباعاً لدى الآخرين ويتبين فيما بعد أنـه انطباع خاطىء تماماً. هذا غير صحيح دائماً... بل أحياناً. لكن بريندا على أية حال... وهزّت رأسها وتابعت تقول: كانت دائمـاً تسلك سلوكاً مناسباً، كالنساء اللواتي يُقمن في جنـاح الحريم. تحب الراحة والاستـرخاء وتنـاول الحلويـات واقتناء المـلابس الجميلـة والحليّ وقـراءة الروايـات الرديئـة والـذهـاب إلى دور السينما. وأؤكد لك أنها كـانت تنعم بالسعـادة مع جـدي، وقد يبدو ذلك غريباً حين نتذكر أنه كان في السابعة والثمانين. جدي كان قوي الشخصيـة، كما تعـرف: يُخيّل إليّ أنـه يجعل المـرأة تشعر كأنها... كأنها ملكة... محظيّة السلطان! كنت منذ زواجه للمرة الثانية أشعر بـأنه يـوحي لبرينـدا أنها امـرأة رومنسية ومثيرة. كان يجيـد التعامـل مع النسـاء طوال حيـاته... وهـذه موهبة لا يخسرها الرجل مهما كبر في السنّ.

تركت مسألة بريندا جانباً وعدت إلى جملـة قالتهـا صوفيـا وقد أزعجتني فسألتها: لماذا قلت أنك خائفة؟

ارتعشت صوفيا قليـلاً وضغطت على يـديها. وقـالت بصوت منخفض: لأن هذا صحيح. يهمّني جداً يا تشارلز أن أشرح لك وضعي. إنني أنتمي إلى عائلة غريبة الأطـوار... كلّ واحـد منا

على جانب من القسوة... وهي قسوة من أنواع مختلفة. هذا ما يثير قلقي. الأنواع المختلفة.

لا شك أنها رأت علامات عدم الفهم على وجهي، لذلك تابعت تقول بحماس:

ـ سأحاول أن أشرح لك ما أعنيه. سأبدأ بجدي على سبيل المثال. كان يحكي لنا مرة عن صباه في «سميرنا»، وقال بشكل عاديّ أنه طعن رجلين بالسكّين هناك. كان قد تشاجر معهما بسبب إهانة لا تغتفر، لا أذكر التفاصيل، لكنه أشار إلى عملية الطعن وكأنها حدثت بشكل طبيعيّ، ويبدو أنها لم تكن تعني له شيئاً. لكنها بدت لي حدثاً غريباً ويصعب تقبله على نحو اعتياديّ في إنكلترا.

أحنيت رأسي.

ـ هذا نوع من القسوة. وأضافت صوفيا تقول: جدتي أيضاً، التي بالكاد أتذكرها، لكنني سمعت الكثير عنها. أعتقد أنها كانت قاسية لأنها كانت بدون مخيلة. كانت تنتمي إلى سلالة من صيادي الثعالب... جنرالات كبار في السن يصدرون الأوامر بإطلاق النار على الآخرين. متعجرفون ولا يترددون باتخاذ قرارات حاسمة في شؤون الحياة أو الموت.

ـ ألا تعتقدين أنك تعودين إلى تاريخ بعيد؟

ـ معك حقّ... لكنني أعترف بأنني أخاف من الإنسان المتكبر والقاسي في الوقت نفسه. أما والدتي فهي ممثلة... وهي قريبة جداً إلى القلب. لكنها لا تمتلك على الإطلاق أيّ إحساس بالتناسب. إنها واحدة من أولئك الأنانيين الذين يرون إلى الأمور فقط من زاوية تأثيرها عليهم. هذا مخيف إلى حدّ ما،

كما تعرف. وهناك أيضاً كليمنسي، وهي زوجة عمي روجر. إنها عالمة وتقوم حالياً بأبحاث هامة، وهي قاسية أيضاً، وتظهر قسوتها في سلوكها البارد وفتورها تجاه الآخرين. عمي روجر هو نقيض لها... إنه صاحب أطيب قلب في العالم وهو محبوب جداً، لكنه صاحب مزاج مخيف فعلاً. بعض الأمور تجعل دمه يفور ولا يعود يعرف ماذا يفعل في هذه الحالة. وهناك والدي...

صمتت فترة طويلة. ثم أضافت ببطء: والدي، يجيد السيطرة على تصرفاته، بحيث لا نستطيع التكهّن بحقيقة أفكاره. إنه لا يترك أيّ شكل من أشكال الانفعال يظهر عليه أبداً. وهذه الحالة هي على الأرجح ردّة فعل غير واعية للدفاع عن النفس ضدّ الإفراط الذي تعيشه والدتي في انفعالاتها، لكن حالته هذه تثير قلقي أحياناً.

قلت لها: يا صغيرتي العزيزة، أنت تجهدين نفسك بدون مبرر. سوف تصلين في النهاية إلى أن كلّ فرد من أفراد الأسرة قادر على ارتكاب الجريمة.

– وهذا صحيح. بما في ذلك أنا.

– ليس أنتِ!

– بلى يا تشارلز، لا تستطيع أن تعتبرني استثناء. أعتقد أنني أستطيع أن أقتل شخصاً ما... وسكتت لدقيقة أو دقيقتين، ثم أضافت: لكنني إذا أقدمت على ذلك، يجب أن يكون الهدف يستحق فعلاً.

ضحكت. لم أستطع أن أتمالك نفسي. وصوفيا ابتسمت.

قالت: ربما أكون مجنونة، لكننا يجب أن نتوصّل إلى الحقيقة. لو أن بريندا تكون هي القاتلة...

شعرت فجأة بالشفقة على بريندا ليونيدس.

■ ٥ ■

أقبلت نحونا سيدة عجوز تمشي برشاقة. كانت تضع قبعة من اللّباد على رأسها، وترتدي تنورة بدون شكل محدد وقميصاً صوفياً سميكاً.

قالت صوفيا: هذه خالتي إيديث.

توقفت العجوز عدة مرات وانحنت فوق الأزهار، ثم اقتربت منا. فنهضت واقفاً.

ـ أقدم لكِ تشارلز هايورد يا خالتي إيديث. وهذه خالتي الآنسة دوهاڤيلاند.

كانت إيديث دوهاڤيلاند في السبعين من عمرها تقريباً. شعرها كتلة رمادية مشعّثة، ووجهها لوّحته الشمس ونظرتها ماكرة وحادّة.

سألتني: كيف حالك؟ لقد سمعت عنك. عدت من الشرق من مدة قريبة. كيف حال والدك؟

أجبتها، وأنا مندهش: انه بخير.

قالت الآنسة دوهاڤيلاند: أعرفه منذ كان صبياً. وعرفت

والدته أيضـاً. أنت تشبهها. هـل جئت لمساعـدتنا... أم لـديك غرض آخر؟

قلت بشيء من الإنزعاج: آمل أن أستطيع المساعدة.

أحنت رأسها.

ـ ونحن بحـاجة للمسـاعدة. المكـان يعجّ بـرجال الشرطـة. يظهـرون فجأة في كـلّ الأرجاء. لا يعجبني معظمهم. أي شـاب تلقى تعليمـه في مدرسـة محترمـة لا يجدر بـه أن يلتحق بكلية الشرطة. رأيت ابن مويرا كينول منذ أيام وهو ينظم السير عنـد ماربيل آرش. لم يعد الإنسان يعرف المجتمع الـذي يعيش فيه. والتفتت نحو صوفيا.

ـ سألتني المربية عنك يا صوفيا، بشأن السمك.

قالت صوفيا: لا تهتمي للأمر، سأتصل بالتلفون لكي يؤمنوا لنا ما نحتاجه من السمك.

وتـوجهت بخطى رشيقـة نحـو البيت. استـدارت الآنسـة دوهاڤيلانـد بدورهـا ومشت ببطء في الاتجاه نفسـه. لحقت بها ومشيت بجانبها.

قالت الآنسة دوهاڤيلاند: لا أعرف كيف كنـا سنعيش بدون المـربيات. في كـلّ بيت تقريبـاً توجـد مربيـة عجوز. إنهـا تأتي لتغسل وتكوي وتطبـخ وتقوم بـأعمال منـزلية أخـرى. المربيـة عندنا أمينة، وقد اخترتها بنفسي... منذ سنوات.

توقفت وانحنت لتقتلع بوحشية عشبة خضراء متشابكة.

ـ يـا لها من عشبـة كريهـة... اللبلاب! إنهـا أسـوء نبتـة معترشة! تشد وتخنق... ولا تستطيع أن تقتلعهـا كما يجب لأن

جـذورها تنغـرس عميقـة في الأرض. فسحقت النبتـة الخضراء بشراسة تحت قدمها.

قالت وهي تنظر إلى البيت: هذه قضية غـامضة يـا تشارلـز هايورد. ما هو رأي رجال الشرطة؟

ربما لا يجدر بي أن أسألك. تسمّم أريستيد مسألة غريبـة. وحين أدرك أنه مـات أجد ذلـك غريبـاً أيضاً. لم أكن أحبـه... أبداً! لكنني لم أتعوّد بعد على موته... البيت يبدو فارغاً بدونه.

لم أقل شيئاً، لأن إيـريث دوهاڤيـلاند بـالرغم من أسلـوبها الفظّ في الكلام بدت وكأنها تسترجع ذكرياتها.

– كنت أفكر في الصباح... مضى زمن طويل وأنا أسكن هذا البيت. أكثر من أربعين سنة. جئت بعد وفـاة أختي. هو الـذي طلب مني ذلـك. سبعـة أولاد... وصغـيرهم لم يتجـاوز السنـة الأولى من عمره... كيف أتركهم لكي تربيهم امرأة غريبة؟ كـان ذلك الزواج منذ البدايـة مرفـوضاً. كنت أقـول دائماً أن أختي مارسيا وقعت تحت تأثير سحر ما. أجنبي بشع وقصير القـامة ومن عامة الناس! ترك لي حرية التصرّف... لا أستطيع أن أنكر ذلك. طلبت ممرضـات ومربيـات للأطفـال وأرسلت الكبار بينهم إلى المدارس. وتمكنت من تأمين طعام خاص يناسبهم... لا تلك الأطباق الغريبة والغنية بالتوابل التي كان يأكلها هو.

تمتمت قائلاً: وبقيت هنا منذ تلك الفترة؟

– أجل. هذا غريب... كنت أستطيع أن أتـرك البيت بعد أن كبـر الأولاد وتزوجـوا... أعتقد أنني بـدأت أهتم بـالحـديقـة. وكانت هناك مشكلة فيليب أيضاً. إذا تـزوج رجل من ممثلـة لا يستطيع أن يعيش حياة أسريّة. لا أعرف لماذا تنجب الممثلات.

بعد الولادة مباشرة تسرع الواحدة منهن إلى مسرح «الذخائر»(*) في إدنبره أو إلى أبعد مسرح ممكن عن بيتها. فيليب أجاد التصرف، انتقل إلى هذا البيت مع كتبه.

ـ ماذا يفعل فيليب ليونيدس؟

ـ يؤلف الكتب. لا أعرف لماذا اختار التأليف، لأن أحداً لا يريد أن يقرأ كتاباته. جميعها تدور حول تفاصيل في حكايات تاريخية غامضة. أنت لم تسمع عن أي مؤلف له، أليس كذلك؟

اعترفت بذلك.

قالت الآنسة دوهاڤيلاند: عنده مال كثير، هذه هي المشكلة. بعض الأشخاص يجب أن يبتعدوا عن نزواتهم ويتعلموا كيف يكسبون عيشهم.

ـ ألا تدرّ عليه مؤلفاته؟

ـ بالطبع لا. والده صاحب نفوذ واسع لكنه لم يرَ داعياً لأن يجعل من مؤلفات فيليب عملاً مربحاً... أريستيد منحه ما يوازي مئة ألف باوند... هذا مبلغ مذهل! ولكي يوفّر نفقات التسجيل بعد وفاته جعل أريستيد جميع أولاده مستقلّين مادياً عنه. روجر يتولى إدارة مؤسسة «التعهّدات المتحدة»، وصوفيا حصلت على حصة جيدة. والمبلغ المخصص للولدين الآخرين أودعه لهما في المصرف.

ـ في هذه الحالة لا أحد يربح من موته!

رمقتني بنظرة غريبة.

(*) مسرح الذخائر: مسرح تقدم فيه فرقة واحدة عدة مسرحيات في موسم واحد.

ـ بلى، جميعهم يربحون. جميعهم يحصلون على المزيد من المال. لكن كان بإمكانهم الحصول على ذلك بمجرد أن يطلبوه منه.

ـ هل لديك أية فكرة حول الشخص الذي حقنه بالسمّ يا آنسة دوهاڤيلاند؟

ردّت وقد غيّرت نبرة صوتها:

ـ لا، ليست لديّ أية فكرة حول هذا الشخص؛ ولقد سبب لي هذا الأمر قلقاً بالغاً. ليس من السهل أن تعيش في بيت وأنت تعرف أن فيه مجرماً طليقاً. أعتقد أن رجال الشرطة سيضيّقون الخناق على بريندا المسكينة.

ـ وأنت لا تعتقدين أنهم على حقّ في ذلك؟

ـ بكل بساطة، لا أعرف. عرفتها منذ البداية وأدركت أنها غبية جداً عادية في تصرفاتها إلى حدّ الابتذال. لا أتصوّر أن شخصاً يقتل بالسمّ تكون هذه صفاته. لكن من ناحية ثانية من الواضح أن شابة في الرابعة والعشرين حين تتزوج من رجل على عتبة الثمانين تكون بالتأكيد طامعة في ثروته. ولو أن الأمور كانت تسير بشكل طبيعي كانت بريندا ستصبح أرملة غنية بعد فترة غير طويلة. لكن أريستيد كان عجوزاً قوي البنية لدرجة ملفتة. والسكري لم يكن يزيد حالته الصحية سوءاً. بدا بالفعل وكأنه سيعيش حتى المئة. أعتقد أنها ملّت من الانتظار...

قلت: وفي هذه الحالة... وسكتّ.

وقالت الآنسة دوهاڤيلاند بسرعة: وفي هذه الحالة هناك احتمال أنها بادرت إلى تنفيذ رغبتها. هذه بالطبع دعاية سيئة لها، لكنها على أية حال ليست من العائلة.

سألتها: أليست عندك أفكار أخرى حول الموضوع؟

- وأية أفكار تريد أن تكون لديّ؟

ساورتني الشكوك بأنها لم تصارحني بكل ما كان يدور في رأسها.

تلك الكلمات الساخرة والعبارات غير المترابطة أحياناً كانت تخفي وراءها عقلاً ذكياً ناشطاً. وتساءلت في سرّي ما إذا كانت الآنسة دوهافيلاند هي التي وضعت السم لأريستيد بدلاً من الدواء.

ليست هذه بفكرة مستحيلة. تذكرت طريقتها الوحشية في سحق نبتة اللبلاب بقدمها وهي تنتقم منها حتى قضت عليها. وتذكرت الصفة التي أطلقتها صوفيا. القسوة. نظرت بطرف عيني إلى إيديث دوهافيلاند. إذا كان لديها دافع واضح وكاف... لكن أيّ دافع يكون بالنسبة لها واضحاً وكافياً؟

لكي أعرف الإجابة يجب أن أتقرّب منها أكثر.

■ ٦ ■

كـان البـاب الخـارجي مفتـوحـاً. دخلنـا إلى قـاعـه ملفتـة بـاتساعهـا. كان أثـاثها الفـاخر يجمـع بين خشب السنـديان الداكن والنحاس اللّماع. وفي آخرهـا حيث يكون السلم عـادة، كان هناك جدار أبيض وباب.

قالت الآنسة دوهـاڤيلانـد: في الطابق الثـاني الجناح الـذي يخصّ صهري. والطابق الأرضي لفيليب وماجدة.

دخلنا من باب على اليسار الى قاعة استقبال كبيرة. جدرانها كانت مطلية بـاللون الأزرق البـاهت، والمقاعـد مغطاة بـالقماش المطرّز والمقصّب، وعلى الطـاولات وعلى الجـدران توزّعت صـور ولـوحات لممثلـين وراقصين ولمشـاهد من مسرحيـات ولتصاميم متعـدّدة. مجموعـة من صـور راقصي البـاليـه عُلقت فـوق رفّ المدفأة. في أرجـاء الغرفـة مجموعـات من أزهار اللؤلؤ الكبـيرة البنية اللون وباقات من القرنفل.

قالت الآنسة دوهاڤيلاند: أعتقد أنك تريد مقابلة فيليب؟

هـل كنت أريد مقـابلة فيليب؟ لا أعـرف. كنت أريـد رؤيـة صوفيا فقط. وقـد فعلت ذلك. أظهـرت لي موافقتهـا التامـة على خطة والدي... وهي الآن في مكـان ما في البيت تجـري إتصالاً

هاتفياً من أجل السمك، ولم تعطني أية إشارة حول الطريقة التي يجب أن أباشر بها تحرياتي. هل أقدم نفسي إلى فيليب ليونيدس على أنني شاب أودّ الزواج من ابنته، أو أنني مجرد صديق لها رغبت في زيارتها (وهذا غير معقول في الظروف السائدة!) أم أنني مساعد للشرطة؟ لم تترك لي الآنسة دوهافيلاند مجالاً للردّ على سؤالها. إنه بالفعل لم يكن سؤالاً أبداً، بل تأكيد. كانت الآنسة دوهافيلاند برأيي تميل إلى جزم الأمور أكثر من طرح الأسئلة. فقالت: سندخل إلى غرفة المكتبة. مشت أمامي في غرفة الاستقبال وانتقلنا إلى ممرّ ومنه دخلنا إلى غرفة أخرى.

كانت غرفة واسعة مليئة بالكتب. لم تكن جميع الكتب مرتبة على الرفوف التي وصلت حتى السقف، كان هناك كتب على الكراسي والطاولات وحتى على الأرض، ومع ذلك لم تبد الغرفة في حالة من الفوضى.

كانت غرفة باردة. وشعرت أنه ينقصها رائحة معينة كنت أتوقع وجودها. كانت تفوح منها رائحة الكتب العتيقة ورائحة طفيفة لشمع النحل. بعد قليل عرفت أن الغرفة تنقصها رائحة التبغ. فيليب ليونيدس لم يكن من المدخنين.

كان يجلس إلى مكتبه ووقف حين رآنا ندخل.. إنه طويل القامة، في الخمسين من عمره تقريباً، وهو وسيم لدرجة ملفتة. جميع الذين تحدثت إليهم كانوا يشدّدون على بشاعة اريستيد ليونيدس لذلك كنت أتوقع أن يكون ابنه على البشاعة نفسها. لم أكن أبداً أتوقع رؤية رجل متناسق الملامح: الأنف المستقيم، والفكان لا عيب فيهما، والشعر الأشقر يخالطه الشيب وهو مردود ليكشف عن جبهة عريضة.

قالت الآنسة دوهافيلاند: هذا تشارلز هايورد يا فيليب.

ـ كيف حالك؟

لا أعرف ما إذا كان سمع إسمي من قبل. اليد التي مدّها لمصافحتي كانت باردة. وملامحه كانت فاترة. شعرت بالضيق. كان يقف أمامي بهدوء وبدون مبالاة.

سألته الآنسة دوهافيلاند: أين رجال الشرطة المزعجون؟ هل جاء أحد منهم اليوم لمقابلتك؟

ـ أعتقد أن المفتش... (وألقى نظرة على بطاقة كانت موضوعة على مكتبه)... المفتش تافيرنر سوف يحضر بعد قليل.

ـ وأين هو الآن.

ـ لا أعرف يا خالة إيريث. إنه في الطابق الثاني على الأرجح.

ـ عند بريندا؟

ـ لا أعرف.

من مجرد النظر إلى فيليب ليونيدس يدرك المرء استحالة أن يكون قد ارتكب جريمة قتل.

ـ هل استيقظت ماجدة؟

ـ لا أعرف. إنها لا تنهض من سريرها قبل الحادية عشرة عادة.

قالت الآنسة دوهافيلاند: يبدو هذا صوتها.

كان صوتها عالياً وهي تسرع في الكلام وتقترب من الغرفة بخطوات سريعة أيضاً. انفتح الباب من خلفي فجأة ودخلت

علينا السيدة ليونيدس. لا أعرف كيف نجحت في اعطاء انطباع أن ثلاث نساء دخلن بدلاً من امرأة واحدة.

كانت تدخن سيجارة في بسم طويل، وترتدي ثوباً طويلاً فضفاضاً من الساتان الخوخيّ اللون، وكانت ترفع طرفه قليلاً بيدها. شعرها الطويل كان ينساب على ظهرها. وجهها بدا عارياً كوجه أية سيدة لم تضع المساحيق بعد. عيناها زرقاوان وواسعتان، وكانت تتحدث بسرعة وبصوت مبحوح وجذاب ونطق سليم.

ـ يا حبيبي لم أعد أحتمل هذا الوضع... لم أعد أحتمله على الإطلاق... لم تنشر الصحف التعليقات على ما حدث بعد، لكنها ستنشرها قريباً بالتأكيد... وأنا لا أستطيع أن أقرر ماذا سأرتدي عند استجوابي... إنني متضايقة جداً... لا أريد اللون الأسود، ربما أختار البنفسجي الداكن... ولم تعد عندي قطعة قماش واحدة... أضعت عنوان ذلك الرجل المخيف الذي أشتريها منه... أنت تعرف، الكاراج قرب جادة شافتسبري... وإذا ذهبت إليه بالسيارة سيلاحقني رجال الشرطة، وقد يطرحون عليّ أسئلة مزعجة، أليس كذلك؟ وماذا سأقول لهم؟ كم أنت هادىء يا فيليب! كيف تستطيع أن تكون هادئاً إلى هذه الدرجة؟ ألا تفكر في أننا قد نغادر هذا البيت المنفّر الآن؟ الحرية... الحرية! آه، ذلك العجوز المسكين... بالطبع لم نكن لنترك البيت لو أنه ما زال على قيد الحياة. كان يحبنا فعلاً بالرغم من المشاكل التي حاولت تلك المرأة أن تختلقها لتفرق بيننا. أنا متأكدة أننا لو غادرنا البيت وتركناه معها كان سيحرمنا من كلّ شيء. يا لها من إنسانة فظيعة! ذلك العجوز الطيب المسكين كان على عتبة التسعين... وجميع مشاعر الحب والرعاية التي أحطناه بها لم تكن كافية لتردع تلك المرأة

الفظيعة التي كانت على أهبة الاستعـداد. أتعرف يـا فيليب أن هذه الحادثة فرصة رائعة بالنسبة لمسرحيـة إيديث تـومبسـون. هذه الجريمة تعتبر دعاية مسبقة لها. بيلدنشتاين يقول أنه قـد يحصـل لي على الـدور... لأن تلـك المسرحيـة المملّـة عن عمـال المنـاجم ستتوقف في غضـون أيام... إنـه دور رائـع... رائـع. أعرف أنهم يقولون أنني يجب أن أمثل دائماً الأدوار الكوميدية بسبب شكـل أنفي.. لكن أنت تـعـرف أن هنـاك الكثـير من الكوميديا في مسرحية إيـديث تومبسـون... لا أعتقد أن المؤلف كان يقصد ذلـك...! الكوميـديا تسـاعد عـلى زيادة التشـويق. أعرف تماماً كيف سألعب الدور... إنه دور امرأة عاديـة وغبية ومدعية حتى اللحظة الأخيرة وفجأة...

ورفعت يدها... وقعت السيجارة على المكتب وهـو من خشب الماهوغاني الفاخـر وبدأت تشعلـه ببطء. مدّ فيليب يـده بهدوء والتقط السيجارة ورماها في سلّة المهملات.

ـ وبعد ذلك قالت ماجدة ليونيدس بصوت هامس، وعيناهـا اتسعتا فجأة وتصلّبت ملامحها: لا شيء سوى الرعب.

ظلّ الخوف مسيطراً على ملامحها لفترة قصيرة، ثم ارتاحت وبدت وكأنها طفلة حائرة ستبدأ بالبكاء في أية لحظة.

فجأة زالت كل مظاهر الانفعال عن وجهها وكـأنها مسحتهـا بالإسفنجة والتفتت نحوي وسألتني بشكل رسمي:

ـ ألا تعتقد أن هذا هو الأسلوب المناسب لتمثيل دور إيديث تومبسـون؟

قلت لها أن هذه هي الطـريقة المنـاسبة لتمثيـل دور إيديث تومبسون. ولم تكن لـدي فكرة واضحـة عن هذا الـدور، لكنني

كنت أرغب في بداية جيدة مع والدة صوفيا.

قالت ماجدة: كانت تشبه بريندا؛ أليس كذلك؟ هل تعرف أن هذه الفكرة لم تخطر في بالي من قبل. إنها فكرة مهمة. هل أشير إليها أثناء الحديث مع المفتش؟

الرجل الجالس إلى المكتب قطب جبينه بشكل طفيف. وقال لها: لا داعي يا ماجدة لأن تقابليه، أستطيع أن أخبره بنفسي ما يريد معرفته.

ـ لا أقابله؟ وارتفعت نبرة صوتها: لكنني يجب أن أقابله! يا حبيبي، يا حبيبي، أنت بدون مخيلة إطلاقاً! لا تقدّر أهمية التفاصيل. إنه يريد أن يعرف بالتحديد كيف حدثت الحادثة والملابسات المحيطة بها، كل الأمور الصغيرة التي استرعت انتباهنا للوهلة الأولى...

ـ أمي قالت صوفيا وهي تدخل، لا داعي لأن تقولي للمفتش الكثير من الكذب.

ـ صوفيا، حبيبتي...

ـ أعرف يا عزيزتي أنك هيأت نفسك وأنك ستقدمين عرضاً جميلاً جداً. لكنك أسأت فهم الدور. أنت مخطئة.

ـ كلام فارغ. أنت لا تعرفين...

ـ إنني أعرف الوضع جيداً. يجب أن تلعبي الدور بطريقة مختلفة يا حبيبتي. امرأة خاضعة... بدرجة مخفّفة... متفهمة... وواعية... وتحاولين حماية عائلتك.

بدت ماجدة ليونيدس كطفلة بسيطة حائرة. وقالت: حبيبتي... هل أنت واثقة...

ـ أجل. تكلمي من غير توكيد. هذا هو المقصود.

وأضافت صوفيا وقد ارتسمت على شفتي والدتها ابتسامة رضا:

ـ حضرت الشوكولا الساخنة. إنها في غرفة الجلوس.

ـ آه... حسناً... أنا جائعة...

وتوقفت عند الباب وقالت:

ـ أنت لا تعرف... وكانت كلماتها موجهة إليّ أو إلى رفّ الكتب خلف رأسي، كم هو رائع أن تكون عندك ابنة!

قالت كلمتها الأخيرة وخرجت.

قالت الآنسة دوهافيلاند: اللّه يعلم ماذا ستقول لرجال الشرطة!

قالت صوفيا: ستكون على ما يرام.

ـ قد تقول أي كلام.

ـ لا تقلقي. سوف تلعب الدور كما يطلب منها المنتج أن تلعبه. وأنا المنتجة!

خرجت وراء والدتها ثم استدارت قليلاً لتقول:

ـ المفتش تافيرنر يريد مقابلتك يا أبي. أنت لا تمانع أن يحضر تشارلز المقابلة. أليس كذلك؟

شعرت أن مسحة طفيفة من الارتباك بدت على ملامح فيليب ليونيدس. وهذه ردّة فعل طبيعية، لكن طبعه اللامبالي كان في صالحي هذه المرة. فقال هامساً: آه، بالطبع... بالطبع. وكانت نبرة صوته غير واضحة تماماً.

دخل المفتش تافيرنر بخطوات واثقة ورشيقة وهو متأهب للعمل فشعرت بشيء من الراحة.

كأنه كان يقول: مرحلة الانزعاج ليست طويلة وسوف نخرج من هذا البيت نهائياً... وسأكون أسعد إنسان حين يتم لنا ذلك. لا نريد أن نبقى هنا، أستطيع أن أؤكد لكم...

لا أعرف كيف استطاع أن يوحي بذلك بدون أن ينطق كلمة واحدة، اكتفى بأن جرّ كرسيّاً إلى جوار المكتب لكي يبلّغ عمّا فعله حتى الآن، وأنا جلست بعيداً كي أترك له حرية التصرّف.

قال فيليب: هل من جديد أيها المفتش؟

قالت الآنسة دوهافيلاند: هل تريدني أن أبقى أيها المفتش؟

ـ لست في حاجة إليك الآن يا آنسة دوهافيلاند. سأراك فيما بعد لنتحدث قليلاً...

ـ بالطبع. ستجدني في الطابق الثاني.
خرجت وأغلقت الباب وراءها.

سأله فيليب مرة ثانية: هل من جديد أيها المفتش؟

ـ أعرف أنك رجل مشغول جداً ولا أريد أن أزعجك لفترة طويلة. لكنني أستطيع أن أقول لك سراً بأن شكوكنا باتت مؤكدة. والدك لم يمت ميتة طبيعية. موته كان نتيجة لجرعة قوية من «الفيزوستغمين»... المعروف عادة باسم «إيسرين».

أحنى فيليب رأسه دون أن يبدو عليه انفعال مميز. وتابع تافيرنر كلامه يقول: لا أعرف ما إذا كانت هذه الحقيقة توحي لك بشيء.

ـ وبماذا توحي؟ إنني أعتقد أن والدي أخطأ وتناول السمّ.

ـ وهل تعتقد ذلك فعلاً يا سيد ليونيدس؟

ـ أجل، يبدو لي هـذا ممكناً جـداً. كان عـلى عتبة التسعـين ونظره كان ضعيفاً.

ـ وقـد أفـرغ محتـويـات قـارورة قطـرة العـين في قـارورة الأنسولين. هل يبدو لك ذلك ممكناً يا سيد ليونيدس؟

لم يجبه فيليب. وازدادت ملامحه غموضاً.

تابع تاڤيرنر يقول: وجدنا قارورة قطرة العين فارغـة، في سلة المهملات، وبدون بصمات. هذه المسألة وحدها تثير الشكوك. لو أن الأمر تم بصورة طبيعيـة كنا سنجـد على القـارورة بصمات عديدة: بصمات والدك بـالتأكيـد، وبصمات زوجتـه أو بصمات خادمه...

نظر إليه فيليب ليونيدس وسـأله: ومـاذا عن الخادم؟ مـاذا عن جونسون؟

ـ هل تشك أن يكـون جونسـون هو الجـاني؟ من المؤكد أن الفرصة كانت سانحة أمامه. لكن حين نفكر بالدافع نجـد الأمر مختلفاً. كان من عادة والدك أن يدفع له مكافأة كلّ سنة... وفي كلّ سنة كان يزيد له المكافأة عن السنة السابقـة. وقد قـال له والدك بصراحة أن هذا المبلغ هو تعويض عن أي مبلغ آخر كان سيتركه له في وصيته. وبعد سبع سنـوات من الخدمـة وصلت المكافأة إلى مبلغ كبير وهي قابلة للـزيادة. من الـواضح إذاً أن مصلحة جونســون أن يطول عمـر والدك. وبـالإضافـة إلى ذلك كـانت علاقتهمـا ودية، وسجـلّ جـونســون السـابق يشـير إلى نزاهته... إنه خادم أمين ومؤهل. وسكت قليلاً ثم أضاف: نحن لا نشك في جونسون.

ردّ فيليب بدون انفعال: فهمت.

ـ والآن يا سيد ليونيدس، أرجو أن تعطيني بياناً مفصلاً عن تحركاتك يوم وفاة والدك.

ـ بالتأكيد أيها المفتش. كنت في هذه الغرفة طوال النهار... ما عدا فترات الطعام بالطبع.

ـ هل رأيت والدك؟

ـ ألقيت عليه تحية الصباح بعد تناول طعام الفطور، كما تعوّدت أن أفعل كلّ يوم.

ـ هل كنت وحدك معه في الغرفة؟

ـ كانت... كانت زوجة أبي معنا.

ـ هل كان طبيعياً؟

ردّ فيليب بنبرة ساخرة: لم يبد عليه أنه كان يعرف أنه سيقتل في ذلك اليوم.

ـ هل القسم الذي يخصّ والدك في البيت منفصل تماماً عن هذا القسم؟

ـ أجل، والممر الوحيد هو من خلال الباب الموجود في القاعة.

ـ وهل يكون هذا الباب مقفلاً عادة؟

ـ لا.

ـ أبداً.

ـ لم أجده مقفلاً ولا مرة.

ـ وأي شخص يستطيع أن يتنقّل بحرية بين هذا القسم من البيت وذاك؟

ـ بالتأكيد، لأن البيت مقسّم فقط من أجل تسهيل الخدمات المنزلية.

ـ كيف عرفت بموت والدك؟

ـ أخي روجر، الذي يسكن الجناح الغربي من الطابق العلويّ، نزل مسرعاً ليقول لي أن والدي مصاب بنوبة مفاجئة. كان يتنفس بصعوبة ويدا مريضاً جداً.

ـ ماذا فعلت؟

ـ اتصلت بالطبيب، ولا يبدو أن أحداً غيري فكّر في ذلك. لم أجده فتركت لـه رسالـة أطلب منه فيهـا الحضور إلى البيت في أسرع وقت ممكن. ثم صعدت إلى الطابق العلويّ.

ـ وبعد ذلك؟

ـ كانت حالـة والدي صعبـة وقد فـارق الحياة قبـل وصول الطبيب.

لم يظهـر من نبرة صـوت فيليب أي انفعال، كـان ببساطـة يسرد الحدث كما وقع.

ـ أين كان سائر أفراد العائلة؟

ـ زوجتي كانت في لندن. وعـادت إلى البيت ولم تمكث هناك فتـرة طويلـة. صوفيـا أيضاً لم تكن مـوجودة، عـلى مـا أظنّ. أوستاس وجوزفين كانا في البيت.

ـ أرجـو ألّا تسيء فهمي يا سيـد ليونيـدس لكنني أريد أن أعرف منك ما هو تأثير وفاة والدك على وضعك المالي.

ـ إنني أقدّر تماماً رغبتك في معرفة كل الوقـائع. لقـد منحنا والدي جميعاً الاستقـلال المالي منـذ سنوات. عـيّن أخي رئيس

مجلس إدارة وصاحب أكبر نصيب من الأسهم في شركة التعهدات المتحدة ـ وهذه أكبر شركة عنده ـ ويتولى أخي اتخاذ جميع القرارات المتعلّقة بالشركة. ومنحني ما أعتبره مبلغاً يعادل نصيب أخي... أعتقد أنه بلغ حوالي مئة وخمسين ألف باوند موزعة على أسهم في شركات عديدة وسندات مالية... وأستطيع أن أوظف رأس المال كما أريد. وكان قد منح أختي مبلغينْ كبيرين أيضاً لكنهما فارقتا الحياة.

ـ وهل ظلّ هو نفسه رجلاً ثرياً؟

ـ لا، لم يترك لنفسه سوى مدخول متواضع نسبياً. قال ان هذا سيجعله أكثر اهتماماً بالحياة. ومنذ ذلك الحين... وللمرة الأولى ارتسمت ابتسامة ضئيلة على شفتيْ فيليب وتابع يقول: صار نتيجة لمشاريع متنوعة أكثر ثراء مما كان عليه.

ـ أنت وأخوك اخترتما السكن في هذا البيت، هل حدث ذلك بسبب صعوبات مالية؟

ـ بالطبع لا، لقد وجدنا السكن هنا ملائماً لنا. كان والدي يقول لنا دائماً أننا نستطيع السكن معه متى نشاء. ولأجل ظروف عائلية وجدت هذا الوضع ملائماً لي.

وبعد قليل أضاف فيليب: كنت في الوقت نفسه شديد التعلّق بأبي. انتقلت مع عائلتي إلى هذا البيت عام ١٩٣٧. أنا لا أدفع إيجاراً لكنني أدفع ما يترتّب عليّ من الضرائب.

ـ وأخوك؟

ـ أخي انتقل إلى هنا بعد الغارة الجوية التي تعرضت لها مدينة لندن عام ١٩٤٣ والتي أدت إلى تدمير منزله.

ـ هل لديك فكرة يا سيد ليونيدس عن وصية والدك؟

ـ عنـدي فكرة واضحـة حول هـذا الموضـوع. لقد أجـرى تعديلات على وصيته في عام ١٩٤٦. والدي لم يكن رجلاً كتوماً، كان يحب عائلته ويثق بها. عقد اجتماعاً للعائلة حضره محاميه وأطلعنا جميعاً على بنود وصيته. وهذه البنـود صارت واضحـة بالنسبة لكم عـلى ما أظن. أعتقـد أن السيد غـايتسكيل زودكم بـالمعلومـات الكافيـة. باختصـار تنـال زوجـة أبي، كمـا تنصّ الوصية، مبلـغ مئة ألف بـاوند بعـد دفع الضرائب المتـوجّبة ـ وذلك بالإضـافة إلى هـدية الـزواج السخية جـداً والتي منحها إياها والدي. وما يتبقّى من ممتلكاته يتـوزع إلى ثلاث حصص، إحـداها لي، والثـانية لأخي، والثـالثة تـوضع في رعـاية أمينـة وتخصّص للأحفاد الثلاثة. الإرث كبـير، لكن النفقات والـرسوم ستكون باهظة أيضاً.

ـ هل هناك توصية تخصّ الخدم أو الأعمال الخيرية؟

ـ ليست هناك أية توصية من هذا النوع. كان والدي يـزيد رواتب الخدم كلّ سنة إذا استمروا في الخدمة.

ـ هـل أنت... أرجو أن تسمـح لي بأن أسـألك... في حـاجة للمال في الوقت الحالي، يا سيد ليونيدس؟

ـ ضريبة الدخل، كما تعرف، نسبتها مـرتفعة... لكن دخـلي يكفي ويزيد عن احتياجاتي... واحتياجات زوجتي. بـالإضافـة إلى ذلك كان والدي يقدم لنا هبات سخية، وفي حال حـدوث أيّ طارىء كان لا يتأخر عن تقديم المساعـدة اللاّزمـة. ثم أضاف ببرود وبوضوح:

ـ أؤكد لك أيها المفتش انه لم يكن لدي أي دافع مادي لكي اتمنى أن يموت والدي.

ـ أرجوك أن تقبل اعتذاري يا سيد ليونيدس إذا كنت تصوّرت أنني أعني ذلك. لكننا بحاجة لمعرفة جميع الوقائع. والآن أنا مضطر لأن أطرح عليك أسئلة دقيقة. إنها تدور حول علاقة والدك بزوجته. هل كانا سعيدين في حياتهما؟

ـ حسب ما أعرف كان سعيدين جداً.

ـ ألم يكونا يتشاجران؟

ـ لا أعتقد ذلك.

ـ لكن كان بينهما فارق كبير في السنّ؟

ـ هذا صحيح.

ـ وهل أنت... أرجو المعذرة... كنت موافقاً على زواج والدك الثاني؟

ـ لم تُطلب موافقتي على ذلك.

ـ ليس هذا جواباً يا سيد ليونيدس.

ـ بما أنك تلحّ في طرح السؤال، سأجيبك بأنني اعتبرت هذا الزواج عملاً غير عاقل.

ـ هل صارحت والدك بمعارضتك؟

ـ حين عرفت بالأمر كان الزواج قد تمّ.

ـ كانت صدمة لك... أليس كذلك؟

لم يجبه فيليب.

ـ هل نشأ جرّاء ذلك نفور بينكما؟

ـ لوالدي مطلق الحرية في أن يفعل ما يحلو له.

ـ هل كانت علاقتك ودية مع السيدة ليونيدس؟

ـ كانت علاقة جيدة.

ـ هل هي علاقة صداقة؟

ـ نحن لا نلتقي غالباً.

غيّر المفتش تافيرنر موضوع الأسئلة. وسأل فيليب:

ـ هل تستطيع أن تخبرني عن لورانس براون؟

ـ لا أعرف عنه الكثير. والدي هو الذي استخدمه.

ـ لكن عمله كان يقتصر على إعطاء الدروس لولديك يا سيد ليونيدس.

ـ هذا صحيح. إبني كان يعاني من إصابة بشلل الأطفال. لحسن الحظ كانت إصابة طفيفة... ولم يكن من المستحبّ إرساله إلى مدرسة عادية. اقترح والدي أن يستقدم له ولابنتي الصغيرة جوزفين مُدرساً خاصاً... وكان مجال الاختيار في تلك الفترة ضيقاً... لأن المدرس يجب أن يكون مُعفًى من الخدمة العسكرية. كانت مؤهلات هذا الشاب مقبولة ومعه ورقة الإعفاء المطلوبة، فأعجب والدي وخالتي (التي كان الأطفال برعايتها دائماً)، وأنا وافقت بدوري. أود أن أضيف في هذا المجال أنني مرتاح تماماً لأسلوبه في تأدية عمله، وهو مخلص وذو كفاءة.

ـ وغرفة نومه موجودة في جناح والدك من البيت، وليس هنا؟

ـ وجدنا له غرفة مناسبة في الطابق العلوي.

ـ هل لاحظت... وأنا أعتذر منك لهذا السؤال... أية علامات ودّ بينه وبين زوجة والدك؟

ـ لم ألحظ أبداً أية علامات من هذا القبيل.

ـ وهل سمعت حول هذا الأمر أي إشاعة أو قيل وقال؟

– أنا لا أستمع إلى الإشاعات أو إلى القيل والقال أيها المفتش.

قال المفتش تاڤيرنر: وهذا جدير بالتصديق. أنت إذاً لم تر أي سوء ولم تسمع سوءاً ولا تريد أن تقول شيئاً سيئاً؟

– تستطيع أن تلخّص الأمر كما تشاء أيها المفتش.

وقف المفتش تاڤيرنر وقال: حسناً، شكراً جزيلاً لك يا سيد ليونيدس.

وخرجت من الغرفة وراءه.

قال تاڤيرنر: أف! يا له من سمكة باردة!

■ ٧ ■

قال تاڤيرنر: والآن سنتحدث قليلاً مع السيدة فيليب، واسمها الفني ماجدة ويست.

سألته: هل هي ناجحة في التمثيل؟ لقد سمعت اسمها من قبل، وأعتقد أنني شاهدتها في عروض مختلفة، لكنني لم أعد أذكر أين ومتى.

قال تاڤيرنر: إنها من أولئك الفنانين القريبين من الشهرة. قامت ببطولة مسرحية أو مسرحيتين في ويست إند، وصارت معروفة في مسرح الذخائر... وهي غالباً ما تشترك في مسرحيات ثقافية أو في نوادي الأحد. أعتقد أن سبب عدم انطلاقتها كما يجب كان لأنها لا تكسب عيشها من التمثيل. كانت قادرة على اختيار الأدوار، وعلى التجوّل من مسرح لآخر، ومن وقت لآخر كانت توظف المال وتنتج عرضاً إذا أعجبها دور في المسرحية... وغالباً ما يكون دوراً غير ملائم لها. ونتيجة ذلك كانت في تصنيفها بين مجموعة الفنانين الهواة لا المحترفين. إنها ممثلة جيدة، خاصة في الأدوار الكوميدية... لكن المنتجين لا يحبونها... يقولون أنها تتمتع باستقلالية وأنها تثير المشاكل... تميل إلى الشجار والإيقاع بين زملائها. لا أعرف إلى أيّ مدى

تصل صحة هذا القول... لكنها من الواضح أنها غير محبوبة بين زملائها الفنانين.

خرجت صوفيا من باب غرفة الجلوس وقالت: والدتي في انتظارك أيها المفتش.

تبعت تاڤيرنر إلى داخل غرفة الجلوس. لم أتمكن للوهلة الأولى من معرفة تلك المرأة التي كانت جالسة على المقعد المطرّز.

شعرها الطويل كان مرفوعاً على طريقة العصر الإدوارديّ، وكانت ترتدي بذلة أنيقة بلون رمادي داكن، وقميصاً له ثنايا ناعمة بلون ليلكي هادىء وقد جمعت القبة ببروش هو عبارة عن حجر كريم عليه نقش بارز. للمرة الأولى انتبهت لجمال أنفها ذي الرأس المائل. ذكّرتني إلى حد ما «بأثين سايلر»، وكان من الصعب أن أصدق أنها هي نفسها تلك المرأة المضطربة التي كانت ترتدي الثوب الخوخيّ اللون.

قالت: المفتش تاڤيرنر؟ أرجوك تفضل بالجلوس. هل تريد أن تدخن؟ هذه القضية مخيفة فعلاً، وأنا أشعر الآن أنني لا أستطيع استيعاب ما حدث.

كان صوتها منخفضاً وبدون انفعال، صوت شخص قرّر أن يبدو مسيطراً على انفعالاته.

تابعت تقول: أرجوك أن تقول لي إذا كان بإمكاني أن أقدم لك أية مساعدة.

ـ أشكرك يا سيدة ليونيدس. أين كنت في الساعة التي حصلت فيها المأساة؟

ـ أعتقد أنني كنت أقود السيارة في طريقي من لندن إلى

البيت. كنت في ذلك اليوم قد تناولت طعام الغداء مع صديقة لي في مطعم آيڤي. ثم شاهدنا عرض أزياء. التقينا بعد ذلك بمجموعة من الأصدقاء في مقهى بيركلي. حين وصلت إلى البيت كان الجميع في حالة من الفوضى. قيل لي أن حماي أصيب بنوبة مفاجئة، وأنه مات بسببها. ارتجف صوتها قليلاً.

ـ هل كنت تحبين حماك؟

ـ كنت متفانية...

ارتفعت نبرة صوتها قليلاً. صوفيا لمست بلطف زاوية لوحة ديڤاس. رجعت نبرة صوت ماجدة إلى الدرجة الملّطفة التي كانت عليها.

ـ كنت أحبه كثيراً قالت بصوت هادىء: كنا جميعاً نحبه. كان طيباً للغاية معنا.

ـ وهل كانت علاقتك طيبة بالسيدة ليونيدس؟

ـ لم نكن نلتقي كثيراً ببريندا.

ـ لماذا؟

ـ لا يوجد بيننا ما يجمعنا. بريندا مسكينة. لا شك أن ظروف حياتها كانت قاسية أحياناً.

حركت صوفيا لوحة ديڤاس للمرة الثانية.

ـ حقاً؟ وكيف ذلك؟

ـ آه، لا أعرف. وحركت رأسها وقد ابتسمت ابتسامة حزينة.

ـ هل كانت السيدة ليونيدس سعيدة مع زوجها؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ هل كانا يتشاجران؟

مرة ثانية ابتسمت وهزّت رأسها: لا أعرف، أيها المفتش. إن القسم المخصّص لهما في البيت منفصل تماماً عنّا.

ـ كانت تربطها بالسيد لورانس براون علاقة صداقة، أليس كذلك؟

تصلبت ملامح ماجدة ليونيدس. عيناها نظرتا بلوم إلى تاڤيرنر. وقالت بوقار: لا أعتقد أنه يحق لك أن تطرح أسئلة كهذه. بريندا تربطها علاقة صداقة مع الجميع. إنها بالفعل ودودة.

ـ ما هو رأيك بالسيد لورانس براون؟

ـ إنه هادىء جداً، ولطيف، ولكن يصعب عليك أن تعرف أنه موجود. أنا بالفعل لم ألتق به كثيراً.

ـ هل أنت راضية عن عمله؟

ـ أعتقد ذلك. إنني بالفعل لا أعرف. يبدو فيليب مرتاحاً له.

حاول تاڤيرنر إثارتها بطرح أسئلة محرجة.

ـ إنني أعتذر لسؤالي هذا، ولكن هل تعتقدين أن علاقة يمكن وصفها بأنها علاقة حبّ كانت قائمة بين السيد براون والسيدة بريندا ليونيدس؟

وقفت ماجدة. بدت سيدة جليلة: لم أرَ أي دليل على هذا الإدعاء. لا أعتقد أيها المفتش أن هذا السؤال لائق. إنها زوجة حماي.

كدت أصفّق لها.

وقف المفتش بدوره. وقال لها بنبرة ساخرة: وهل هذا السؤال لائق لأن أطرحه على الخدم؟

لم تجبه ماجدة.

قال لها المفتش وهو يغادر الغرفة: أشكرك يا سيدة ليونيدس.

قالت صوفيا لوالدتها بحرارة: لقد أجدت التصرف يا حبيبتي.

أخذت ماجدة تعبث بخصلة شعر خلف أذنها اليمنى ونظرت إلى نفسها في المرآة. وقالت: أجل... أعتقد أن هذا هو الأسلوب المناسب لتأدية الدور.

نظرت صوفيا إليّ. وسألتني: ألا تريد مرافقة المفتش؟

- إسمعيني يا صوفيا، ما يجب عليّ أن أفعله... وسكتّ. انتبهت أنني لا أستطيع التحدث بصراحة عمّا يجب علي أن أفعله أمام والدتها. لم تظهر ماجدة ليونيدس حتى الآن أي اهتمام بحضوري، إلاّ حين أسمعتني آخر جملة عن البنات قبل مغادرتها خشبة المسرح. قد أكون صحافياً، أو خطيب ابنتها، أو مرافقاً غامضاً لرجال الشرطة، أو حانوتياً... جميع هؤلاء تصنفهم ماجدة ليونيدس تحت عنوان واحد: الجمهور.

نظرت السيدة ليونيدس إلى قدميها وقالت بامتعاض: هذا الحذاء بشع. تافه.

انصعت لرغبة صوفيا حين حركت لي رأسها بإصرار، وأسرعت في الخروج لألحق بتافيرنر. التقيت به في القاعة الخارجية وهو يهمّ بفتح الباب الذي يفضي إلى السلم. فقال لي: أريد مقابلة الأخ الأكبر.

صارحته بمشكلتي بدون مقدمات.

ـ قل لي يا تاڤيرنر، ما هو دوري هنا بالتحديد؟

بدا مدهوشاً.

ـ ما هو دورك هنا؟

ـ أجل، ماذا أفعل هنا في هذا البيت؟ إذا سألني أحد، ماذا أقول؟

فكّر في الأمر قليلاً، ثم ابتسم وسألني: وهل سألك أحد حتى الآن؟

ـ لا.

ـ لماذا لا تترك الوضع كما هو إذاً. لا تحاول أبداً أن تشرح. هذا قول مفيد، خاصة في بيت يسود فيه الارتباك مثل هذا البيت. كل فرد مشغول بهمومه الخاصة ومخاوفه وليس في وارد طرح أية أسئلة. سيتقبل الجميع وجودك طالما أنك تبدو واثقاً من نفسك. إنه لخطأ فادح أن تقول شيئاً لا داعي لأن تقوله. والآن سنصعد إلى الطابق العلوي. الباب غير مقفل. أنت بالطبع تدرك أن جميع الأسئلة التي أطرحها هراء! ليس مهماً على الإطلاق من كان في البيت، ومن لم يكن، وأين كان كل واحد منهم في ذلك اليوم بالتحديد...

ـ لماذا إذاً...؟

تابع يقول: لأن هذا يعطيني فرصة لكي أتعرّف إليهم وأكوّن رأياً عن كلّ منهم وأستمع إلى أقوالهم متمنياً أن يقدم لي أحدهم، بالصدفة، مؤشراً مفيداً. ثم سكت قليلاً وقال بصوت هامس: أراهنك أن السيدة ماجدة ليونيدس تعرف الكثير وستبوح به لو تشاء.

سألته: وهل تعتقد أن أقوالها يمكن الاستناد إليها؟

قال تاڤيرنر: لا، لن نستند إليها. لكنها قد تبدأ منحى جديداً في تحرياتنا. كلّ واحد مقيم في هذا البيت الملعون كان يمتلك القدرة والفرصة الملائمة. والذي أبحث عنه هو الدافع.

في أعلى السلم وصلنا إلى باب يؤدي إلى الممر إلى الجهة اليمنى. على الباب مطرقة نحاسية طرقها المفتش تاڤيرنر عدة مرات.

فتح رجل لنا الباب بشكل مفاجيء وكأنه كان يقف خلفه مباشرة، كان عملاقاً غير رشيق، له كتفان عريضتان وشعره داكن ومشعّث، وله وجه بشع للغاية لكنه لطيف إلى حدّ ما. نظر إلينا ثم أشاح بنظره بعيداً بارتباك كما يتصرّف عادة الأشخاص الشرفاء والخجولون في الوقت نفسه.

قال: آه، أهلاً. تفضلا. كنت ذاهباً... لكن هذا غير مهم. تفضلا إلى غرفة الجلوس. سأخبر كليمنسي... آه، أنت هنا يا حبيبتي. هذا المفتش تاڤيرنر. إنه... هل عندنا سجائر؟ انتظرا قليلاً. من فضلكما. وتوارى خلف باراڤان وهو يتمتم: أرجو المعذرة بأسلوب مضطرب وخرج من الغرفة.

كان خروجه يشبه خروج نحلة طنّانة تاركاً خلفه سكوناً واضحاً.

كانت السيدة روجر ليونيدس واقفة بالقرب من النافذة. لفتت نظري في الحال شخصيتها والجوّ المسيطر على الغرفة التي كنا نقف فيها.

كانت الجدران مطلية باللون الأبيض... أبيض ناصع ليس عاجياً أو بلون قشدي باهت وهذا ما يعنيه المرء عادة حين يصف طلاء منزل بأنه «أبيض».

فوق رفّ المدفأة لوحة وحيدة كناية عن مجموعة من المثلثات باللونين الرماديّ الداكن والأزرق. لم تكن في الغرفة قطع عديدة من الأثاث... فقط ما تستدعيه الضرورة، ثلاثة أو أربعة مقاعد وطاولة لها سطح زجاجيّ ورفّ صغير للكتب. لا وجود للتحف. في الغرفة ضوء وفضاء وهواء. كانت تختلف عن غرفة الاستقبال الكبيرة المليئة بالمقاعد المطرزة والملونة في الطابق السفلي كما يختلف الطبشور والجبنة. والسيدة روجر ليونيدس كانت تختلف عن السيدة فيليب ليونيدس كما تختلف أية امرأة عن امرأة أخرى. فيما كان المرء سيشعر أن ماجدة ليونيدس تستطيع أن تكون، وهي غالباً كذلك، على صورة نصف دزينة من النساء على الأقل، كانت كليمنسي ليونيدس توحي بأنها لا تستطيع أن تكون إلاّ نفسها. إنها امرأة ذات شخصية حادة جداً ومميزة.

كانت في الخمسين من عمرها، كما أظن، شعرها رمادي وقصير للغاية لكنه بدا جميلاً على رأسها ولم يكن فيه أثر للبشاعة التي كنت دائماً أنعت بها هذه الطريقة لقصّ الشعر. ملامحها تدل على ذكائها وحساسيتها المرهفة ولها عينان لونهما رماديّ باهت ونظرتهما ثاقبة وغريبة. كانت ترتدي ثوباً بسيطاً من الصوف الأحمر الداكن الذي كان يلائم تماماً قامتها النحيلة.

أحسست مباشرة أنها امرأة تثير الذعر... أعتقد أنني تخيلت ذلك لأنني أعرف أنها تختلف عن سائر النساء العاديات. فهمت الآن لماذا استخدمت صوفيا كلمة «قسوة» وهي تتحدث عنها. كانت الغرفة باردة وسرت الرعشة في أوصالي.

قالت كليمنسي ليونيدس بصوت هادىء وواضح: تفضل بالجلوس أيها المفتش. هل هناك أخبار جديدة؟

ـ الموت كان ناتجاً عن سم «الإيسرين» يا سيدة ليونيدس.

قالت بعد فترة من التفكير: هناك جريمة إذاً. من الصعب أن تكون الوفاة نتيجة حادثة من أي نوع، أليس كذلك؟

ـ لا، يا سيدة ليونيدس.

ـ أرجوك أن تكون لطيفاً مع زوجي أيها المفتش. هذا الخبر سيكون له شديد الأثر عليه. كان يحب والده محبة فائقة، وهو رقيق القلب. إنه إنسان عاطفي.

ـ هل كنت على علاقة طيبة بحماك يا سيدة ليونيدس؟

ـ أجل، كنت على علاقة طيبة معه. ثم أضافت بهدوء. لم أكن أحبه كثيراً.

ـ ولماذا؟

ـ كنت أنفر من أهدافه في الحياة... ومن أساليبه في التوصل إليها.

ـ والسيدة بريندا ليونيدس؟

ـ بريندا؟ نادراً ما كنت ألقاها.

ـ هل تعتقدين أنه من الممكن أن تكون هناك علاقة بينها وبين السيد لورانس براون؟

ـ هل تعني علاقة حب؟ لا أعتقد ذلك. لكنني في الواقع لا أعرف شيئاً حول هذا الموضوع.

بدا من نبرة صوتها أنها غير مبالية بذلك على الإطلاق.

رجع روجر ليونيدس بالضجيج نفسه الذي يشبه طنين النحلة. وقال: تأخرت بسبب مكالمة هاتفية. حسناً، أيها المفتش؟ حسناً؟ هل لديك أخبار جديدة؟ ما هو سبب وفاة والدي؟

ـ الوفاة كانت نتيجة التسمّم «بالإيسرين».

ـ حقاً؟ يا الهي! هذا من فعل تلك المرأة إذاً! لم تعد تستطيع أن تنتظر! انتشلها من حياة الفقر وهذه هي مكافأته. لقد قتلته ببرود مخيف! يا إلهي، أشعر أن الدماء تغلي في عروقي حين أفكر في ذلك.

سأله تافيرنر: هل لديك سبب خاص يجعلك تفكر على هذا النحو؟

كان روجر في هذه الأثناء قد أخذ يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يمرر يديه بعنف على شعره.

ـ سبب؟ ومن غيرها الجاني؟ لم أكن أثق بها أبداً... ولم أكن أحبها أبداً! لم يكن أيّ منّا يحبّها. أصبت أنا وفيليب بالذهول حين جاء والدنا ذات يوم إلى البيت وصارحنا بما فعل! في سنّه! كان عملاً مجنوناً... مجنوناً. والدي كان رجلاً مدهشاً، أيها المفتش. في ذكائه كان شاباً وممتلئاً بالحيوية كأنه رجل في الأربعين. كلّ شيء امتلكه في هذه الدنيا يعود الفضل فيه إليه. كان مستعداً لأي شيء لأجلي... لم يخذلني مرة واحدة. أنا الذي خذلته... حين أفكر في ذلك...

ورمى نفسه بتثاقل على أحد المقاعد. جاءت زوجته بهدوء إلى جانبه.

ـ هيا يا روجر، هذا يكفي. لا ترهق نفسك.

ـ أعرف يا عزيزتي... أعرف. وتناول يدها: لكن كيف أظل هادئاً... كيف أحتمل...

ـ يجب أن نحافظ جميعاً على هدوئنا يا روجر. المفتش تاڤيرنر يريدنا أن نتعاون معه.

ـ هذا صحيح يا سيدة ليونيدس.

صرخ روجر: هل تعرفون ماذا أودّ أن أفعل؟ أودّ أن أخنق تلك المرأة بيديّ. لقد حرمت ذلك العجوز الحبيب من عدة سنوات أخرى بيننا. لو أنها معنا هنا... ووقف بعصبية، وهو يرتعش من شدّة الغضب، ومدّ يديه وهو يقول: أجل، سوف أدقّ عنقها، أدقّ عنقها...

قالت كليمنسي بحدّة: روجر!

نظر إليها مرتبكاً وقال: المعذرة يا عزيزتي. ثم التفت إلينا وقال: إنني أعتذر منكما. مشاعري تتحكّم بتصرفاتي. أنا... اسمحا لي بالخروج...

وترك الغرفة للمرة الثانية. فقالت كليمنسي ليونيدس بابتسامة شاحبة وهي تنظر إلى تاڤيرنر:

ـ أنت تعرف طبعاً أنه لا يستطيع أن يؤذي ذبابة.

تقبّل تاڤيرنر تبريرها بتهذيب.

ثم بدأ أسئلته الروتينية كما يسميها.

أجابت عليها كليمنسي ليونيدس بإيجاز وبدقّة:

ـ روجر ليونيدس كان في لندن يوم وفاة والده، كان في «بوكس هاوس» مقرّ شركة التعهّدات المتحدة. عاد إلى البيت في وقت مبكر من بعد الظهر وأمضى معظم وقته مع والده كما تعوّد

أن يفعل. وهي كانت، كالمعتاد، في مؤسسة لامبرت في شارع غوير حيث تعمل. عادت إلى البيت قبل السادسة بقليل.

ـ هل رأيت حماك؟

ـ لا. آخر مرة رأيته فيها كانت قبل وفاته بيوم واحد. تناولنا القهوة معاً بعد العشاء.

لكن هل رأيته يوم وفاته؟

ـ لا. كنت أهمّ بدخول جناحه في البيت لأن روجر اعتقد أنه نسي غليونه هناك... وهو غليون ثمين، لكنني حين وجدت الغليون على هذه الطاولة لم أجد مبرراً لإزعاجه، لأن العجوز كان ينام غالباً حوالي السادسة.

ـ متى عرفت بالوعكة التي ألّمت به؟

ـ جاءت بريندا مسرعة إلينا تحمل الخبر. كان ذلك بعد السادسة والنصف بحوالي دقيقة أو دقيقتين.

هذه الأسئلة لم تكن ذات أهمية، لكن من الواضح أن المفتش تاڤيرنر كان شديد الانتباه للدقة المتناهية في أجوبة تلك المرأة. طرح عليها عدة أسئلة حول طبيعة عملها في لندن. قالت أن الأبحاث التي تقوم بها تتعلّق بالمؤثرات الإشعاعية لانقسام الذرّة.

ـ أنت تعملين إذاً على القنبلة الذرية؟

ـ عملي لا علاقة له بالأهداف التدميرية. تقوم المؤسسة بإجراء تجارب حول الفعالية العلاجية للذرة.

وقف تاڤيرنر مبدياً رغبته في إلقاء نظرة على ذلك الجناح من

البيت. بدت عليها الدهشة لفترة وجيزة لكنها سرعان ما وافقت على طلبه. غرفة النوم فيها سريران وعلى كلّ منهما غطاء أبيض وذكرتني البساطة في كلّ أرجائها بغرفة في مستشفى أو صومعة في دير. الحمام أيضاً كان عادياً بشكل متزمت، بدون أي مظهر من مظاهر الرفاهية وبدون عرض لأدوات التجميل المختلفة. المطبخ كان بدون زخرفة، ونظيفاً بدرجة ملفتة، ومجهزاً بأدوات تخفف من عبء العمل فيه. وصلنا إلى باب فتحته لنا كليمنسي وقالت: هذه غرفة زوجي الخاصة.

تنفست بارتياح. كانت الصرامة القاسية في سائر أنحاء البيت قد بدأت توتّر أعصابي. وهذه الغرفة كانت غرفة خاصة بكل معنى الكلمة. فيها مكتب كبير وغير مرتب تغطيه الأوراق والغلايين القديمة وقد تناثر عليها رماد التبغ. هناك عدة مقاعد كبيرة ومريحة. يغطي الأرض سجاد عجمي. وعلى الجدران علقت صور صارت شاحبة مع الزمن. صور لمجموعات مدرسية، وفرق تلعب «الكريكيت»، وشبان بالزيّ العسكري. وإلى جانبها لوحات مائية فيها مشاهد صحراوية ومنارات وزوارق وبحر وغروب. كانت الغرفة إلى حدّ ما غرفة لطيفة، غرفة رجل محبّ وأنيس وحلو المعشر.

كان روجر يملأ عدة كؤوس لنا وأخذ يبعد الكتب والأوراق عن أحد المقاعد.

ـ المكان يعج بالفوضى. كنت أحاول توضيب بعض الأوراق القديمة. لم يكن المفتش يرغب في تناول كأس من الشراب، وأنا وافقت. قال روجر يتابع كلامه وهو يتقدم نحوي والكأس في يده وأدار رأسه ليقول للمفتش: أرجو المعذرة لما بدر مني منذ قليل. كنت منفعلاً للغاية.

نظـر من حولـه وقد شعـر بأنـه ارتكب ذنبـاً، لكن كليمنسي ليونيدس لم تكن معنا في الغرفة.

قال: إنها امرأة رائعة. أعني زوجتي. كـانت عظيمة في هـذه المحنة... عظيمة! لا أستطيع أن أعبر عن إعجابي بها. وهي في الوقت نفسه عاشت في ظروف صعبـة... صعبة جـداً. أريد أن أشرحهـا لكم. كان ذلـك قبل زواجنـا. كان زوجهـا الأول رجـلاً طيباً... وذكياً، لكنه كان ضعيفاً من الناحيـة الصحية، مصـاباً بـالسلّ عـلى وجه التحـديد. كـان يقوم بـأبحاث هـامـة حـول البلّوريات على ما أظن. كان يتقاضى أجراً زهيداً وعملـه يتطلب دقة وبراعـة، ومع ذلـك لم يستسلم. بذلت الكثـير لأجله، وهي تعرف أن أيامه باتت معدودة. ولم تتذمـر، ولم تقل مـرة واحدة أنها تعبت: كانت تقول دائماً أنها سعيدة. وبعد وفاته عاشت في عزلة تامة. وأخيراً وافقت على الـزواج مني. كنت سعيداً لأنني سـأمنحها بعض الـراحة والسعـادة، وتمنيت عليهـا لـو تتـرك عملها، لكنها بالطبع شعـرت أن واجبها في فتـرة الحرب يقتضي متابعة العمل، وما زالت مصرّة على مواصلـة أبحاثهـا. وتمكنت بـالرغم من ذلـك أن تكون زوجـة رائعة... لقـد ابتسم لي الحظ حين تزوجتها! إنني مستعد لتقديم أي شيء لها.

ردّ تاڤيرنر بعبارات ملائمة، ثم انتقل مرة ثـانية إلى أسئلتـه الروتينية المعهودة. متى عرفت بالوعكة التي ألّمت بوالدك؟

– بريندا أقبلت مسرعة لتنقل لي الخبر. والدك مريض جداً، قالت لي، لقد أصيب بنوبة مفاجئة...

كنت أجلس بجواره منذ أقل من نصف ساعة. كان في صحة جيدة. أسرعت بالدخول إلى غرفته. كان وجهه محتقناً وهو يلهث بصوت مسموع. نـزلت في الحال إلى بيت فيليب. اتصـل فيليب

بـالطبيب. لم نستطع أن نفعـل شيئاً. وبـالطبع لم يكن يخطـر ببالي في ذلك الحين أن في الأمر ما يستدعي الريبة.

بعد قليل تمكنت مع تافيرنر من الإفـلات من الجو العـاطفي المسيطر على غرفة روجر ليونيدس وخرجنا منها لنتوجه إلى أعلى السلم.

قـال تافـيرنر: آه! هنـاك اختلاف كبـير بينه وبـين أخيه. ثم أضاف بشكل غير مترابط: أشياء وغرف لا تخلـو من الغرابـة. إنها تكشف الكثير عن اللذين يقيمان فيها.

وافقت معه وتابع يقول:

ـ زواجهما غريب أيضاً، أليس كذلك؟

لم أكن واثقاً ما إذا كان يقصد بكلامه كليمنسي وروجـر، أو فيليب وماجدة. لأن هذا الكلام ينطبق على الجميع. وبدا لي مع ذلك أن الزواجين يمكن تصنيفهما أنهمـا ناجحـان. على الأقـل زواج روجر وكليمنسي كان سعيداً.

سألني تافيرنر: أنا لا أعتقد أنه قادر على وضع السمّ لأحد، ألا تعتقد ذلك؟ إذا كنت أعطي رأياً مرتجلاً أقول بأنه غير قادر عـلى ذلك. لا نستطيـع أن نتأكـد بسهولـة. لكن الأمـر يختلف بـالنسبة لهـا. إنها امـرأة قاسيـة، وقد تكـون مصابـة بجنون طفيف.

وافقت معه ثانيـة وقلت: لكنني لا أعتقد أنهـا تقدم عـلى قتل شخص معـين لأنها لا تـوافق على أهـدافه في الحيـاة ولا عـلى طريقة حياته. ربما تكون هي الجانية في حـال أنها كـانت تكره الـرجـل العجـوز... ولكن هـل تـرتكب الجـرائم فقط بـدافـع الكراهية؟

قال تاڤيرنر: لا يحدث هذا إلاّ في حـالات نادرة. لم أعمـل في أية قضية من هذا النوع. أعتقد أنه من الأفضـل لنا أن نـركّز تحـرياتنـا حول السيـدة بريـنـدا. لكن لا أحد يعلم مـا إذا كنّا سننجح في التوصّل إلى الدليل.

- ٨ -

فتحت لنا باب الجناح المقابل خادمة، بدت خائفة لكنها ابتسمت حين رأت تاڤيرنر وقالت له:

ـ هل ترغب في مقابلة السيدة؟

ـ أجل، أرجوك.

دخلت أمامنا إلى غرفة الجلوس وتركتنا هناك.

كانت الغرفة تساوي بالمساحة الغرفة في الطابق الأرضي. المقاعد مغطاة بقماش مطبّع زاهي الألوان، وعلى النوافذ ستائر حديدية مخطّطة. فوق رف المدفأة لوحة تركز نظري عليها... ليس فقط لأن يد فنان مبدع هي التي رسمتها، بل بسبب الملامح الملفتة للرجل الذي يحتلّها.

إنها لوحة لرجل عجوز قصير القامة، له عينان سوداوان ثاقبتا النظر. كان يضع على رأسه قلنسوة من المخمل الأسود، وبدا رأسه وكأنه غائر في كتفيه، لكن حيوية الرجل وطاقته الفذة كانتا تشعّان من اللوحة. شعرت أن عينيه المتألقتين أسرتا عينيّ.

قال المفتش تاڤيرنر: هذا هو الرجل. اللوحة للفنان أوغستوس جون. ذو شخصية مميزة، أليس كذلك؟

قلت له: أجل، وشعرت أن هذه الكلمة غير كافية.

أدركت في تلك اللحظة معنى كلام إيديث دوهاڤيلاند حين قالت لي أن البيت يبدو فارغاً بدونه. هذا هو «الرجل المحدودب الظهر» الذي شيّد البيت الصغير الأعوج وبدونه لا يكون للبيت الصغير الأعوج أي معنى.

قال تاڤيرنر: تلك اللوحة لزوجته الأولى، رسمها الفنان سارجنت.

أخذت أتأمل اللوحة المعلقة بين نافذتين. في ملامحها قسوة مثل معظم أعمال سارجنت. طول الوجه فيه شيء من المبالغة... وبدا ذلك أيضاً في التلميح إلى ضخامتها... وفي سائر المقاييس. إنها لوحة لسيدة انكليزية تقليدية... تعيش في مجتمع ريفيّ (بعيد عن التكلّف). جميلة لكن بدون حياة. زوجة غير ملائمة لذلك الرجل القصير القوي والمبتسم الذي يتأمل المكان من فوق رف المدفأة.

انفتح الباب ودخل الرقيب لامب. وقال: لقد فعلت ما بوسعي، يا سيدي، مع الخدم، لكنني لم أصل إلى أية نتيجة.

تنهّد تاڤيرنر.

تناول الرقيب لامب دفتر ملاحظاته من جيبه وتوجه إلى مقعد في ركن بعيد في الغرفة حيث جلس مستعداً.

انفتح الباب ثانية ودخلت السيدة أريستيد ليونيدس الثانية. كانت ترتدي ثوباً أسود... ثوباً ثميناً. نظرت إليها من رقبتها وحتى معصميها. كانت تتحرك برشاقة وبتراخ، واللون الأسود كان جميلاً عليها. لها وجه حسن وشعر كستنائيّ مصفف بطريقة مبالغ في إتقانها. كانت تضع مسحة من المساحيق على

وجهها، وعلى شفتيهـا أحمر شفـاه، ومن الواضـح أنها كـانت تبكي. يزين رقبتها عقد من اللآلىء الكبـيرة وفي اصبعها خـاتم تزينه زمردة، وفي اليد الثانية خاتم عليه ياقوتة كبيرة.

ولفت انتباهي شيء آخر فيها: كانت تبدو خائفة.

قال تافيرنر بهدوء: صباح الخير يا سيـدة ليونيـدس. أعتذر لأنني مضطر لإزعاجك ثانية.

قالت بصوت فاتر: أعتقد أنه لا بدّ من ذلك.

ـ أنت تعرفين بالطبع، يا سيدة ليونيدس، أنـه باستطـاعتك أن تطلبي حضور محاميك؟

وتسـاءلت ما إذا كـانت قد استـوعبت معنى هـذا الكـلام. ويبدو أنها لم تفعل ذلك لأنها اكتفت بالقول وهي عابسة:

ـ السيد غايتسكيل لا يعجبني، ولا أريده.

ـ تستطيعـين أن تطلبي حضور المحـامي الذي تـريدين يـا سيدة ليونيدس؟

ـ وهل هذا ضروري؟ أنا لا أحب المحامين. إنهم يسببون لي الارتباك.

ابتسم تـافيرنـر وقال: هـذا الأمر يـرجـع إليك. هـل نبـدأ الاستجواب إذاً؟

لعق الرقيب لامب طرف قلمه، وبريندا جلست على أريكـة في مواجهة تافيرنر.

سألته: هل توصلتم إلى معلومات جديدة؟

لاحظتُ أن أصـابعها كـانت تعبث بعصبية بثنيـة من ثنايـا ثوبها.

ـ نستطيع الآن أن نقرر بشكل جازم أن زوجك مات مسموماً «بالإيسرين».

ـ هل تعني أن قطرة العين قتلته؟

ـ يبدو من المؤكد أنك حين أعطيت السيد ليونيدس الحقنة الأخيرة، كان السائل داخل الحقنة هو «الإيسرين» وليس «الأنسولين».

ـ لكنني لم أكن أعرف ذلك، ولا علاقة لي بما حدث. صدقني أيها المفتش.

ـ لا شك أن شخصاً معيناً استبدل عن عمد الإنسولين بقطرة العين.

ـ يا له من عمل فظيع!

ـ أجل، يا سيدة ليونيدس.

ـ هل تعتقد أن أحدهم تعمد أن يفعل ذلك؟ أم أن ذلك حدث بالصدفة؟ من الصعب أن تكون المسألة مزاحاً، أليس كذلك؟

قال تاڤيرنر بنبرة واثقة:

ـ نحن لا نعتبر الأمر مزاحاً يا سيدة ليونيدس.

ـ قد يكون أحد الخدم.

لم يجبها تاڤيرنر.

ـ لا أستطيع أن أتصور أن شخصاً آخر ارتكب هذا العمل.

ـ هل أنت متأكدة؟ فكري قليلاً يا سيدة ليونيدس. أليست

لديك أية احتمالات أخرى؟ هل كان في البيت جو من الخلاف؟ ألم يكن هناك نزاع؟ أو حقد؟

ظلّت تتأمله بعينين واسعتين فيهما نظرة تحدّ وقالت: ليست لدي فكرة حول هذا الأمر.

ـ قلت أنك كنت في السينما بعد ظهر ذلك اليوم؟

ـ أجل... عدت في السادسة والنصف... إنه وقت حقنة «الإنسولين». أعطيته الحقنة كما تعوّدت أن أفعل... شعرت أنه ليس على ما يرام. خفت... ركضت إلى روجر... لقد أخبرتك ذلك من قبل. هل أنا مضطرة لأن أعيده مرة تلو الأخرى؟ وارتفعت نبرة صوتها بشكل هستيري.

ـ آسف، يا سيدة ليونيدس. هل أستطيع أن أتحدث الآن إلى السيد براون؟

ـ إلى لورانس؟ لماذا؟ إنه لا يعرف شيئاً.

ـ أودّ أن أتحدث إليه بالرغم من ذلك.

حدّقت فيه بارتياب.

ـ هو الآن في غرفة الدرس يعطي لأوستاس درساً في اللغة اللاتينية. هل تريد أن يحضر إلى هنا؟

ـ لا، سنذهب نحن إليه.

خرج تافيرنر بسرعة من الغرفة، وتبعته مع الرقيب.

قال الرقيب لامب: لقد أثرت مخاوفها يا سيدي.

لم يجبه تافيرنر، وصعد أمامنا على سلّم يفضي إلى ممرّ، ثم إلى غرفة واسعة تطلّ على الحديقة. في داخل الغرفة شاب

وسيم، أشقر الشعر، عمره حوالي ثلاثين سنة، وجلس إلى الطاولة وبجواره صبي أسمر في السادسة عشرة.

نظرا إلينا ونحن ندخل. أوستاس نظر إليّ، ولورانس حدّق باكتئاب في المفتش تاڤيرنر.

لم أر من قبل رجلاً خائفاً إلى هذه الدرجة. وقف ثم جلس، وقال بصوت حاد: آه... صباح الخير أيها المفتش.

ردّ عليه تاڤيرنر بلطف: صباح الخير. هل أستطيع أن أتحدث إليك؟

ـ أجل، بالطبع. سأكون مسروراً. على الأقل...

نهض أوستاس، وسأل المفتش بصوت مهذّب فيه شيء من التكبّر: هل تريدني أن أذهب أيها المفتش؟

قال له معلمه: سوف... سوف نتابع الدرس فيما بعد.

توجه أوستاس بخطى بطيئة إلى الباب. كان يمشي وكأنه مصاب بتصلب في قدميه. التفت نحوي وهو يهمّ بالخروج وابتسم لي. ثم أغلق الباب خلفه.

قال تاڤيرنر: حسناً، يا سيد براون. بات من المؤكد استناداً إلى تحليل المختبر أن السيد ليونيدس مات مسموماً «بالإيسرين».

ـ أنا... هل تعني... أن السيد ليونيدس مات بالسمّ فعلاً؟ كنت أتمنى أن...

قال تاڤيرنر بلطف: مات مسموماً، لأن شخصاً استبدل «الانسولين» بقطرة العين.

ـ لا أستطيع أن أصدق ذلك... هذا شيء لا يُصدّق.

ـ السؤال المطروح الآن، من عنده الدافع للقيام بهذا العمل؟

ـ لا أحد، لا أحد على الإطلاق! ارتفع صوت الشاب من شدّة انفعاله.

ـ هل ترغب في حضور محاميك؟ سأله تاڤيرنر.

ـ ليس عندي محام. لا أريد محامياً. ليس عندي ما أخفيه... لا شيء...

ـ وأنت تدرك طبعاً أن ما ستقوله سيتم تدوينه؟

ـ أنا بريء... أستطيع أن أؤكد لك أنني بريء.

ـ وأنا لم أقل ما يخالف ذلك. سكت تاڤيرنر قليلاً ثم سأله: كانت السيدة ليونيدس أصغر من زوجها بكثير، أليس كذلك؟

ـ أنا... أظن ذلك... أعني، أجل.

ـ لا شك أنها كانت تشعر بالوحدة بعض الأحيان؟

لم يجبه لورانس براون، ومرّر لسانه على شفتيه الجافّتين.

ـ وكان يروق لها أن تجد رفيقاً لها من سنّها تقريباً يعيش تحت سقف بيت واحد معها؟

ـ أنا... لا، على الإطلاق... أعني... لا أعرف.

ـ يبدو لي أنه من الطبيعي أن تكون المودة قد ربطت بينكما.

اعترض الشاب بإصرار.

ـ لم يحدث ذلك! هذا غير صحيح! لا شيء من هذا القبيل! أعرف تماماً بماذا تفكر، لكن أنت مخطىء! كانت السيدة ليونيدس تعاملني بلطف منذ البداية وأنا أكنّ لها احتراماً...

احتراماً كبيراً... لكن لا شيء غير ذلك... لا شيء، أؤكد لك. إن التلميح إلى أمور من هذا القبيل شيء بغيض! بغيض! أنا لم أقتل أحداً... ولم أتلاعب بقوارير الدواء... ولا شيء من ذلك. أنا حساس جداً وسريع التوتر. إن مجرد التفكير بالقتل أعتبره كابوساً... ولقد فهمت المحكمة موقفي هذا ونلت الإعفاء من التجنيد لأن عندي اعتراض ديني على القتل. قمت بالمساعدة في المستشفى بدلاً من القتال... كنت أوقد النار تحت أوعية الغلي الكبيرة... وهذا عمل شاق جداً... لم أعد قادراً على الاستمرار به... لذلك سمحوا لي بأن أمارس التعليم. إنني أفعل ما بوسعي هنا مع أوستاس ومع جوزفين... وجوزفين صبية ذكية، لكنها صعبة المزاج. وجميع سكان البيت كانوا يتعاملون معي بلطف... خاصة السيد ليونيدس والسيدة ليونيدس والآنسة دوهاڤيلاند. وحين طرأ هذا الحادث الأليم... أجدك تشك بي... أنا... بأنني ارتكبت جريمة قتل!

تأمله المفتش تاڤيرنر ببطء وباهتمام متزايد. وقال: أنا لم أقل ذلك.

ـ لكنك تفكر فيه! أعرف أنك تفكر فيه! الجميع يفكرون في ذلك! لقد رأيته في نظراتهم. أنا... أنا لا أستطيع أن أواصل كلامي معك الآن. لست على ما يرام.

وأسرع يخرج من الغرفة. استدار تاڤيرنر نحوي ببطء وسألني:

- ما رأيك به؟

ـ إنه مذعور.

ـ أعرف ذلك، لكن هل تعتقد أنه مجرم؟

قـال الرقيب لامب: إذا طلبت رأيي أقـول أنه لا يجـرؤ على ذلك.

وافق معه تاڤيرنر قائلاً: قد لا يجرؤ عـلى تحطيم رأس أحد، أو إطلاق النار عليه، لكن بالنسبة لهذه الجريمة بـالذات، مـاذا كـان عليه أن يفعـل؟ يكفي أن يستبـدل محتـويـات قـارورتي دواء... مجرد مسـاعـدة بسيطة لـرجل عجـوز لكي يغادر هـذه الدنيا بدون أي ألم تقريباً.

قال الرقيب: كأنه قتله رحمة به.

وبعد فترة انتظار ملائمـة، يعقد الـزواج على السيـدة التي سترث مئة ألف باوند بدون رسوم أو ضرائب، والتي تملك حالياً مـا يعادل هـذا المبلغ أيضـاً، والتي تمتلك بـالإضافـة إلى ذلك اللآلىء والزمرد والياقوت وجميعها بأحجام غير اعتيادية.

تنهّـد تاڤـيرنر وأضــاف: هذا مجـرد افتراض نظـري! لقـد نجحت في إخـافته، لكن هـذا ليس دليلاً عـلى شيء. قـد يشعـر بالخوف حتى ولو كان بريئاً. وعلى أية حال، أنا أشـك أن يكون هو الجاني. يبدو أن الزوجـة هي الجانيـة... لكنني لا أستطيع أن أفهم لماذا لم ترم زجاجة «الإنسولين» أو تغسلها؟

والتفت نحو الرقيب وسأله: ألم يقل لك الخدم شيئاً حول ما يدور بين السيدة والأستاذ براون؟

ـ تقول إحدى الخادمات أن الواحد منهما متيّم بالآخر.

ـ على أي أساس؟

ـ من طريقته في النظر إليها وهي تملأ له فنجان القهوة.

ـ يـا له من دليـل هـام يمكن الاستنـاد إليـه في المحكمـة! أليست هناك أية تصرفات حمقاء؟

ـ لم يلاحظ أحد شيئاً من هذا القبيل.

ـ أعتقد أنهم كانوا سيلاحظونها لـو أنها مـوجودة. بـدأت أقتنع بعدم وجـود أية عـلاقة بينهمـا. ونظر إليّ وتـابع يقـول: إذهب وتحدث إليها. أريد أن أعرف رأيك فيها.

وافقت على مضض وتوجهت إلى غرفة الجلوس، لكنني بدأت أشعر بالاهتمام في الأمر.

- ٩ -

وجدت بريندا ليونيدس جالسة على الأريكة نفسها. نظرت إليّ بحدة وأنا أدخل.

ـ أين المفتش تافيرنر؟ هل سيرجع؟

ـ لا، ليس الآن.

ـ مَنْ أنت؟

وأخيراً طرحت عليّ السؤال الذي كنت أترقّبه منذ الصباح.

أجبتها بقدر من المصارحة:

ـ عملي له صلة برجال الشرطة، وأنا في الوقت نفسه صديق للعائلة.

ـ العائلة! وحوش! إنني أكرههم جميعاً.

نظرت إليّ وهي تقول ذلك وبدت كئيبة وخائفة وغاضبة.

ـ كانوا دائماً كريهين معي... دائماً... منذ البداية. ولماذا لا يحقّ لي أن أتزوج والدهم العزيز؟ ما علاقة ذلك بهم؟ جميعهم أثرياء. هو منحهم تلك الثروة. لا أحد منهم عنده المقدرة لكي يجمعها بنفسه!

وتابعت تقول:

ـ لماذا لا يتزوج الرجل للمرة الثانية... حتى ولو كان كبيراً في السنّ؟ وهو لم يكن بالفعل كبيراً... في روحيته. كنت مولعة به للغاية. كنت مولعة به. ونظرت إليّ بتحدٍّ.

قلت لها: فهمت... فهمت.

ـ أظن أنك لا تصدق ذلك... لكن هذه هي الحقيقة. كنت قد سئمت من الرجال، ولا أريد سوى أن يكون لي بيت... ورجل يهتم بي، ويغمرني بكلمات لطيفة. كان أريستيد يعرف ماذا يقول لي... ويعرف كيف يجعلني أضحك... وكان ذكياً جداً، لأنه يختار وسائل بارعة لكي لا يتقرب مني بالطرق العادية. كان ذكياً جداً. وأنا لست سعيدة لوفاته، بل حزينة.

وأسندت ظهرها إلى الأريكة. فمها كبير إلى حدّ ما، وارتسمت على شفتيها ابتسامة ناعسة وغريبة.

ـ عشت سعيدة هنا. كنت أشعر بالأمان. تعرفت إلى مصممي الأزياء الأنيقة... الذين كنت أقرأ عنهم. صرت مثل سائر النساء في العائلة. وأريستيد كان يمنحني الهدايا الجميلة. مدت يدها لتتأمل خاتمها والياقوتة التي تزينه.

خُيل إليّ وأنا أنظر إلى يدها أنني أرى مخلب قطة، حتى صوتها كان فيه خرخرة كأنه صوت قطة. كانت لا تزال تبتسم لنفسها.

سألتني: أين الخطأ في ذلك؟ كنت لطيفة معه، وعرفت كيف أسعده. انحنت قليلاً إلى الأمام وتابعت تقول: هل تعرف كيف التقيت به؟

أضافت دون أن تنتظر مني جواباً.

ـ كان ذلك في مطعم «غاي شامروك» حيث كنت أعمل. طلب

بيضاً مع خبز محمص وحين حملت إليه الطبق كنت أبكي. قال لي: إجلسي وأخبريني ما بك. قلت: لا أستطيع. سوف يطردونني في الحال إذا فعلت شيئاً كهذا. قال لي: لا تخافي، أنا صاحب هذا المطعم. نظرت إليه وقلت في نفسي انه رجل غريب الأطوار... لكنه يتمتع بجاذبية قوية. أخبرته بالأمر. أعتقد أنك تعرف هذه الحادثة... لا شك أنك سمعتها منهم... وهم نعتوني بالصفات السيئة... لكنني لست كذلك. كانت تربيتي جيدة، وعائلتي كانت تمتلك مخزناً... من المستوى الراقي... للتطريز اليدوي. لم أكن من الفتيات اللواتي يعرفن عدداً كبيراً من الأصحاب ويرخّصن أنفسهن. لكن تيري كان مختلفاً بالنسبة لي، كان ايرلندياً... وهاجر... لم يكتب لي رسالة واحدة... أعتقد أنني كنت غبية. وهكذا وجدت نفسي في ورطة... مثل أية خادمة غبية...

صوتها جمع بين الإزدراء والتكبر.

ـ كان أريستيد رائعاً. قال لي أن كل شيء سيكون على ما يرام. وقال أنه يشعر بالوحدة، وأننا سنتزوج في الحال. شعرت أنني أحلم. ثم تأكدت أنه هو السيد ليونيدس العظيم. كان يمتلك العديد من المخازن والمطاعم والملاهي الليلية. تبدو هذه الحادثة وكأنها قصة خيالية، أليست كذلك؟

قلت بفتور: نوع من أنواع القصص الخيالية.

ـ تزوجنا في كنيسة صغيرة في المدينة... ثم سافرنا إلى الخارج.

نظرت إليّ بعينين كأنهما راجعتان من مسافة بعيدة.

ـ لم أكن حاملاً. كان الأمر مجرد غلطة.

وابتسمت ابتسامتها المائلة.

ـ أقسمت بيني وبين نفسي أن أكون زوجة صالحة له، وقد وفيت بعهدي. كنت أطلب له جميع أصناف الطعام التي يحب، وأرتدي الألوان التي تعجبه وأفعل ما بوسعي لإرضائه. وكان سعيداً معي، لكننا لم نستطع أبداً أن نعيش بهدوء بسبب عائلته تلك. إنهم متطلبون ويعيشون على حسابه. الآنسة دوهاڤيلاند العجوز كان يجب أن تغادر البيت بعد زواجه. قلت له ذلك، لكن أريستيد ردّ قائلاً: مضى زمن طويل وهي تعيش بيننا. صار هذا البيت بيتها. الحقيقة أنه كان يحب أن يظلّوا جميعاً من حوله وتحت تصرّفه. كانوا كريهين معي لكنه لم يلاحظ ذلك أو أنه لم يهتم به. روجر يكرهني... هل رأيته؟ كرهني منذ البداية. إنه غيور. وفيليب متكبر ولا يتحدث معي. والآن يحاولون أن يلصقوا تهمة القتل بي... وأنا لم أقتله، لم أقتله! وانحنت إلى الأمام وقالت بإصرار: أرجوك أن تصدقني.

أشفقت عليها. الطريقة المزرية التي تحدث فيها أفراد العائلة عنها، وحماسهم لأن يصدقوا بأنها هي التي ارتكبت الجريمة... كل هذا صار بالنسبة لي سلوكاً غير إنساني. إنها وحيدة ولا حول لها ومحاصرة بأشخاص يكرهونها.

قالت: وإذا لم أكن أنا الجانية بالنسبة لهم، فإنهم يلقون بالتهمة على لورانس.

سألتها: وماذا عن لورانس؟

ـ أنا تعيسة جداً لأجله. إنه حساس جداً وكان عاجزاً عن المشاركة في القتال. وهذا ليس لأنه جبان، بل لأنه ذو مشاعر مرهفة. حاولت أن أرفع من معنوياته وأدخل البهجة إلى حياته. وهو مضطر لأن يعلّم هذين الولدين الرهيبين. أوستاس مزعج

دائماً، وجوزفين، أنت رأيت جوزفين، وتعرف كيف تتصرّف.

قلت لها أنني لم ألتق بجوزفين بعد.

ـ أعتقد أحياناً أن هذه الصبية تعاني من خلل في دماغها. عندها أساليب خبيثة ومخيفة، وشكلها يدل أيضاً على غرابتها... إنها تجعلني أرتجف أحياناً.

لم أكن أرغب في التحدث معها عن جوزفين. عدت بالحديث إلى لورانس براون.

سألتها: من هو؟ ومن أين؟

صيغة السؤال لم تكن جيدة. توردت وجنتاها.

ـ ليس شخصاً غير عادي. إنه يشبهني... كيف نستطيع أن نجابههم كلّهم؟

ـ ألا تعتقدين أنك تبالغين قليلاً؟

ـ لا، لا أعتقد ذلك. يريدون أن يكون لورانس هو الجاني... أو أن أكون أنا الجانية. ورجال الشرطة معهم. ما هي نسبة الأمل بالنسبة لي؟

ـ لا داعي لأن ترهقي أعصابك.

ـ ولماذا لا يكون واحداً من بينهم هو القاتل؟ أو شخصاً من الخارج؟ أو أحد الخدم؟

ـ أي واحد من هؤلاء ينقصه الدافع.

ـ آه، الدافع. وأي دافع عندي أنا؟ أو عند لورانس؟

شعرت بالضيق، وأنا أقول: قد يكونون مقتنعين، كما أعتقد، بأن بينك وبين لورانس علاقة حبّ، وأنك تنوين الزواج منه!

جلست وقد استقام ظهرها كالسهم في حركة مفاجئة.

- يا له من تفكير بغيض! وهو غير صحيح أيضاً! لم نتبادل كلمة واحدة في هذا الخصوص. كنت أشعر بالإشفاق عليه فقط وأحاول أن أخفف عنه. نحن صديقان، وهذا كل شيء. أنت تصدقني، أليس كذلك؟

شعرت أنني أصدقها. صدقت أنها ولورانس كانا، كما قالت، صديقيْن. لكنني اقتنعت في الوقت نفسه، وقد يكون ذلك لا يزال غامضاً بالنسبة لها، أنها كانت تحب فعلاً هذا الشاب.

نزلت إلى الطابق السفلي أبحث عن صوفيا. كنت أهمّ بدخول غرفة الجلوس حين أطلت صوفيا من باب أبعد في الممر.

قالت: مرحبا. إنني أساعد المربية في تحضير الغداء.

كنت مستعداً للإنضمام إليها، لكنها تقدمت نحوي بعد أن أغلقت الباب خلفها، ووضعت يدها في يدي ودخلنا معاً إلى غرفة الجلوس، التي لم يكن فيها أحد سوانا.

قالت: هل التقيت ببريندا؟ ما رأيك فيها؟

- بصراحة، حزنت لأجلها.

بدت صوفيا مرحة.

- فهمت. لقد تمكنت من استمالتك.

أثارتني كلماتها وغضبت قليلاً.

- المسألة تنحصر في أنني أستطيع أن أرى وجهة نظرها هي، ومن الواضح أنك غير قادرة على ذلك.

- وجهة نظرها بالنسبة لماذا؟

- فكّري يا صوفيا، هل حاول أيّ واحد من العائلة أن يكون

لطيفاً معها، أو أن يتعامل معها باحترام، وذلك منذ زواجها وحتى اليوم؟

ـ لم نكن لطيفين معها، ولماذا نعاملها بلطف؟

ـ فقط لأجل السلوك الطيب نفسه، لا لشيء آخر.

ـ هذا موقف أخلاقي رفيع يا تشارلز. يبدو أن بريندا نجحت فعلاً في أداء دورها.

ـ بصراحة يا صوفيا، أنتِ... لم أعد أعرف ماذا جرى لك.

ـ إنني فقط أحاول أن أكون صادقة مع نفسي وأرفض الإدعاء. تقول أنك عرفت وجهة نظر بريندا. والآن سأشرح لك وجهة نظري. أنا لا أحب الشابة التي تبتكر حكاية تعيسة وتتزوج رجلاً عجوزاً وثرياً بناءً عليها. لي الحق في النفور من هذا النوع من الشابات، ولا أجد أي مبرّر لكي أدعي العكس. ولو أن الوقائع مدوّنة أمامك على الورق بتجرّد، ستشعر بدورك بأنك تنفر من هذه المرأة.

سألتها: وهل حكايتها مختلقة؟

ـ حكاية الحمل؟ لا أعرف. أنا شخصياً لا أعرف.

ـ وأنتِ متضايقة لأن جدك صدقها؟

ضحكت صوفيا وقالت: جدي لم يصدقها. لم يستطع أي إنسان أن يخدع جدي. كان يريد بريندا، ويريد أن يلعب دور السيد الذي يقع في حبّ خادمته الفقيرة. كان يعرف تماماً ماذا يفعل ونفّذ الأمر بناء لخطته هو. من وجهة نظره كان الزواج ناجحاً تماماً... مثل كل مشاريعه الأخرى.

سألتها بسخرية: وهل تعيين لـورانس براون معلمـاً كان من مشاريع جدك الناجحة أيضاً؟

عبست صوفيا.

ـ لست واثقة من أنه لم يكن كذلك. كان جدي يريد بـريندا أن تتسلى وأن تكون سعيدة. ربما فكّـر أن المجوهـرات والثياب ليست كافية، وأنها تحتاج إلى قصة غرام لطيفـة. وربما حسب أن شخصاً مثل لورانس براون، «مـروضاً» بكـل معنى الكلمة، يستطيع أن ينفّذ الدور المطلوب. علاقة صداقة عـاطفية وفيهـا مسحة من الكآبة تمنع بريندا من الخوض في علاقـة فعلية مـع شخص في الخارج. أنا لا أستبعد أن يكون جدي قد أعدّ خطته على هذا النحو تقريباً. كان شيطاناً عجوزاً، كما تعرف.

قلت: لا شك في ذلك.

ـ إنـه بـالطبـع لم يتصـوّر أن الأمـر سيؤدي إلى ارتكـاب جريمة... وتابعت صوفيا تقول بانفعال: هذا ما يـدفعني كي لا أصدق، مع أنني أرغب في ذلـك، أنها هي التي قتلتـه. لو أنهـا أعدت خطة للتخلص منه... أو تشاركت مـع لورانس في إعـداد الخطة... كان جدي بالتأكيد سيعـرف. يبدو هـذا الكلام بعيـد الاحتمال بالنسبة لك...

ـ أعترف لك بأنني أفكر فعلاً أنه احتمال بعيد.

ـ لأنك لم تعرف جدّي. إنه لن يقبل بالطبـع أن يتستر عـلى خطة للتخلّص منه! وهكذا تجد نفسك أمام حائط مسدود.

ـ إنها خائفة يا صوفيا. خائفة جداً.

ـ من المفتش تافيرنـر ورجالـه؟ أجل، أظن أنهم يخيفـونها. ولورانس أيضاً في حالة هيستيرية؟

ـ تقريباً. أظنّ أنه قدم عرضاً منفّراً أمامنا. لا أفهم ماذا تجد أية امرأة في رجل مثله.

ـ حقاً يا تشارلز؟ لورانس عنده جاذبية جنسية.

قلت غير مقتنع: رجل ضعيف مثله.

ـ لماذا يعتقد الرجال دائماً أن رجل الكهف فقط هو الذي يلفت نظر الجنس الآخر؟ لورانس عنده جاذبية جنسية فعلاً... لكنني لا أتوقع أن تنتبه أنت لذلك، ونظرت إليّ وتابعت تقول: بريندا عرفت كيف تؤثر عليك.

ـ لا تكوني سخيفة. إنها ليست ذات حسن أو جمال، وهي بالتأكيد لم تحاول...؟

ـ لم تحاول أن تغريك؟ لا، لكنها جعلتك تشفق عليها. إنها ليست جميلة بالفعل، وليست ذكية أيضاً... لكنها تتمتع بموهبة واحدة فذة: قدرتها على إثارة المشاكل. ولقد نجحت في إثارة مشكلة بيني وبينك.

صرخت مشدوهاً: صوفيا!

لكنها كانت تمشي نحو الباب.

ـ إنس الأمر يا تشارلز. يجب أن أسرع في تحضير الغداء.

ـ سأرافقك وأساعدك.

ـ لا، إبق هنا. ستتضايق المربية من وجود جنتلمان معها في المطبخ.

ـ صوفيا، ناديتها وهي تهمّ بالخروج.

ـ نعم، ماذا تريد؟

ـ لماذا لا يوجد خدم هنا، وفي الطابق العلويّ فتحت لنا خادمة الباب؟

ـ جدي عنده طباخ وخادمة للعمل المنزلي وخادمة تقوم على خدمة الضيوف وخادم خاص به. كان يحبّ الخدم ويمنحهم أجوراً سخية. كليمنسي وروجر عندهما خادمة تأتي أثناء النهار فقط لتنظيف البيت. هما لا يحبان الخدم... في الواقع كليمنسي لا تحبهم. روجر يتناول وجبة غداء غنية في المدينة كل يوم، كي لا يشعر بالجوع في بيته، لأن كليمنسي تعتبر الخس والبندورة والجزر وجبة كافية. في بيتنا كان عندنا خدم في بعض الأحيان، لكن النوبات المزاجية التي تصاب بها والدتي كانت لا تشجعهم على البقاء، فكنا نضطر للقبول بخادمة نهارية حتى نجد الخدم المناسبين. ونحن الآن ليس عندنا سوى خادمة نهارية. والمربية هي الوحيدة التي نحتفظ بها وتساعدنا في الحالات الطارئة. الآن صرت تعرف الوضع القائم.

خرجت صوفيا، وارتميت في مقعد ضخم مطرز ومريح وتركت العنان لأفكاري.

في الطابق الثاني تعرّفت إلى وجهة نظر بريندا. والآن تعرفت إلى وجهة نظر صوفيا. تفهمت تماماً عدالة موقف صوفيا... الذي يمكن اعتباره موقف عائلة ليونيدس. إنهم جميعاً يرفضون وجود تلك المرأة بينهم لأنها برأيهم وصلت إلى موقعها بوسائل حقيرة. ولهم الحقّ في ذلك، وكما قالت صوفيا: على الورق لا يبدو الأمر مقبولاً...

لكن هناك الجانب الإنساني... الجانب الذي رأيته ويرفضون رؤيته. إنهم جميعاً أثرياء ولهم مراكزهم الاجتماعية المرموقة، ولا يستطيعون أن يتفهموا الإغراءات التي يتعرّض

لها المضطهدون. بريندا ليونيدس كانت تطلب الثروة، والأشياء الجميلة والأمان... وبيتاً يأويها، وبالمقابل جعلت زوجها العجوز سعيداً. كنت أشفق عليها. بالطبع وأنا أتحدث إليها كنت متعاطفاً معها... هل أشعر بالقدر نفسه من التعاطف معها الآن؟

للسؤال جانبان... وزوايا مختلفة للإجابة... أية زاوية هي الزاوية الصحيحة... الزاوية الصحيحة... كنت قد نمت ساعات قليلة في الليلة الماضية. واستيقظت باكراً هذا الصباح لمرافقة تافيرنر. وفي دفء الجوّ العابق برائحة الأزهار في غرفة جلوس ماجدة ليونيدس ارتاح جسمي في المقعد الوثير وأغمضت عينيّ...

فكرت في بريندا، في صوفيا، في لوحة الرجل العجوز، وتواصلت أفكاري لتشكّل ضباباً رقيقاً ومريحاً.

استغرقت في النوم...

١٠

استيقظت على مراحل حتى أنني لم أنتبه في الحال أنني كنت نائماً.

رائحة الأزهار ملأت أنفي. أمامي لطخة بيضاء مستديرة بدت وكأنها تطفو في الفضاء. بعد قليل انتبهت أنني أنظر إلى وجه رجل... وجه معلق في الهواء على مسافة قريبة مني. استعدت وعيي قليلاً وصار نظري أكثر دقة. الوجه لا يزال غريباً... مستدير وجبهته ناتئة، والشعر مردود إلى الوراء، والعينان سوداوان وصغيرتان كأنهما خرزتان. وهو بالتأكيد موصول بجسم... جسم صغير ونحيل. كان ينظر إليّ بإصرار.

قال: مرحباً.

أجبته وعيني تطرف: مرحباً.

ـ أنا جوزفين.

كنت قد استنتجت ذلك، إنها أخت صوفيا، جوزفين، وهي في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها. كانت صبية بشعة جداً وتشبه جدّها إلى حدّ بعيد. ويبدو ممكناً أنها تتمتع أيضاً بذكائه.

قالت جوزفين: أنت رجلُ صوفيا.

إنتبهت إلى دقة تعبيرها.

ـ لكنك جئت إلى هنا برفقة المفتش تافيرنر. لماذا جئت معه؟

ـ إنه صديق لي.

ـ حقاً؟ أنا لا أحبه. لن أقول له شيئاً.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ الأشياء التي أعرفها. إنني أعرف الكثير. أحب كثيراً معرفة الأشياء.

جلست على ذراع المقعد تتأمل وجهي بتمعّن. بدأت أشعر بعدم الارتياح.

ـ مات جدي مقتولاً. هل تعرف ذلك؟

ـ أجل. عرفت.

ـ مات مسموماً «بالإيسرين» ونطقت اسم السمّ بحذر بالغ. هذا مثير للاهتمام، أليس كذلك؟

ـ أعتقد ذلك.

ـ أنا وأوستاس مهتمان كثيراً. نحن نحب القصص البوليسية. إنني أريد أن أكون مفتشة. وأنا ألعب هذا الدور الآن. إنني أجمع مفاتيح اللّغز. شعرت أنها طفلة غولة.

واصلت طرح أسئلتها.

ـ الرجل الآخر الذي يرافق تافيرنر هو مفتش أيضاً، أليس كذلك؟ تقول الروايات أنك تستطيع أن تتعرف إلى المفتشين الذين يرتدون الثياب العادية من أحذيتهم. لكن هذا المفتش كان ينتعل حذاء سويدياً.

قلت لها: التقاليد القديمة تتغيّر.

فسرت جوزفين تلك الملاحظة كما تشاء.

قالت: أجل، ستحدث تغييرات كثـيرة هنا الآن، كمـا أتوقـع. سوف ننتقل لنعيش في بيت في لندن قرب الجسر. أمي تريد ذلك منذ فترة طويلة، وستكون سعيدة جداً. لا أعتقد أن أبي يمـانع طالما أن الكتب ستنتقـل أيضاً. لم يكن قـادراً على اتخـاذ هذه الخطوة من قبل. لقد خسر مبلغاً كبيراً في إيزابل.

سألتها: إيزابل؟

ـ أجل، ألم تشاهدها؟

ـ آه، هذا عنوان مسرحية؟ كلا، لم أشاهدها. كنت مسافـراً في الخارج.

ـ عرضها لم يطل. أعتقد أنها كانت فاشلة تمـاماً، وأن دور إيزابل ليس مناسباً لأمي، ألا تعتقد ذلك؟

استعدت انطباعاتي عن ماجدة، ووجدت أنها لا توحي بـأية ميزة لها علاقة بـإيزابـل، لا حين رأيتهـا في الثوب الفضفـاض الخوخيّ اللون ولا حين كانت ترتدي بـذلة أنيقـة: لكنني أعتقد أن هناك انعكاسات متعدّدة لشخصيتها لم أرها بعد.

قلت بحذر: قد لا يكون مناسباً لها.

ـ كـان رأي جدي أن المسرحيـة فاشلـة. قال أنـه لن يموّل مسرحية دينية هستيرية، وأنها لن تحقق أي نجاح على مستوى شباك التذاكر. لكن أمي كانت مصرّة للغاية. وأنا لم أكن معجبة بالمسرحية أيضاً لأنها لا تشبـه القصة التي وردت في الإنجيـل. أعني أن إيـزابـل لم تكن شريـرة كمـا يصفهـا الإنجيـل، بـل شخصية وطنية ولطيفـة جداً. هـذا جعل المسرحيـة مملّة. لكن

النهاية ظلت جيدة. إنهم يرمونها من النافذة. ولا تـأتي الكلاب لتـأكلها، هـذا مؤسف، أليس كذلـك؟ إنني أحب كثيـرا وصف الكلاب وهي تأكلها. قالت أمي أنه يستحيل إحضار الكلاب إلى خشبـة المسرح، لكنني لا أفهـم وجـه الاستحـالـة في ذلـك. يستطيعون استخدام كلاب مدرّبة. وأخذت تردّد في لذة: وتأكل الكـلاب إيزابـل ما عـدا باطن كفيْهـا لماذا لم تـأكل لهـا باطن كفّيْها؟

قلت: ليست عندي أية فكرة حول هذا الموضوع.

- أنت لا تعتقد أن تلك الكلاب كانت غريبة الأطوار، كلابنـا ليست كذلك وهي تلتهم كل شيء.

ظلّت جوزفين تفكر في ذلك اللغز الإنجيلي.

قلت: إنه لمن المؤسف أن تفشل هذه المسرحية.

- أجـل. أمي تضايقت جـداً. كانت الآراء حـولها مخيفـة، وحـين كانت أمي تقـرأ مقالـة عنها كـانت دموعهـا تنهمر عـلى خديها وتظل تبكي طوال النهار، ومرة ألقت بصينيـة الفطور في وجـه غلاديس، وتـركت غلاديس البيت إثـر ذلـك. كـان الأمـر مسلياً؟

قلت: يبدو لي أنك تميلين إلى الدراما يا جوزفين.

قالت جوزفين: لقد شرحوا جثة جدي لمعرفـة أسباب الـوفاة. إنهم يطلقون على التشريـح حرفيْ .P.M(*)، وهـذا محيّر إلى حـدّ ما، أليس كذلك؟ لأن هذين الحرفين قـد يكون معنـاهما أيضـاً

(*) .P.M الحرفان الأولان من كلمتي Post-Mortem.

رئيس الوزراء(*)، أو بعد الظهر(**).

سألتها: هل أنت حزينة لوفاة جدك؟

ـ ليس بشكل خاصّ. لم أكن أحبه كثيراً. منعني من أخذ دروس في الرقص كي أصبح بعدها راقصة باليه.

ـ وهل كنت تريدين تعلّم رقص الباليه؟

ـ أجل. وأمي كانت تريدني أن أتعلم الرقص أيضاً، وأبي لم يكن ممانعاً، لكن جدي اعترض وقال أنني لا أصلح لذلك.

انزلقت عن ذراع المقعد، وخلعت حذاءها وحاولت أن تؤدي أمامي ما يطلقون عليه من الناحية الفنية: الخطوات الأولى.

قالت تشرح لي: من الأفضل طبعاً أن انتعل الحذاء الخاص. وحتى بعد انتعاله تمتلىء القدمان بـالخرّاجـات حتى أنها تبـرز على أطراف الأصابع.

ثم انتعلت حذاءها، وسألتني بشكل عاديّ:

ـ هل يعجبك هذا البيت؟

قلت: لست واثقاً من ذلك.

ـ أعتقد أنهم سيعرضـونه للبيـع. إلاّ إذا قررت بـريندا أن تعيش فيه. وأعتقد أن عمي روجر وزوجته لن يسافرا الآن.

سألتها وقد أثار ذلك اهتمامي: وهل كانا مسافرين؟

ـ أجـل، كانـا مسافـرين نهار الثـلاثـاء. إلى مكـان مـا في الخـارج. يسافـران بالطـائرة. زوجـة عمي اشترت حقيبـة من الحقائب الجديدة ذات الوزن الخفيف.

(*) اي Prime Minister.

(**) اي Pot Meridien.

قلت: لم أسمع من قبل أنهما ينويان السفر.

قالت جوزفين: لا أحد يعـرف ذلك. كـان الأمر سـرّاً بينهما، ولم ينويا أن يعرّفا أحداً بسفرهما إلّا بعد أن يكونا قد سافـرا. كانا سيتركان رسالة لجدي.

وأضافت: لن يشبكاهـا إلى وسادة الـدبابيس، كمـا نقرأ في الكتب القديمة وكمـا تفعل الـزوجات اللـواتي يتركن أزواجهن. ويبـدو الأمر سخيفـاً الآن لأن لا أحد عنـده وسـادة دبـابيس اليوم.

ـ لن يفعلا ذلك طبعاً. جوزفين، هل تعرفين لمـاذا كان عمـك روجر يرغب في السفر؟

رمقتني بمكر بطرف عينها.

ـ أعتقد أنني أعرف السبب. إنه شيء له علاقة بمكتب عمي روجـر في لنـدن. أظن... لكنني لست متـأكـدة... انـه اختلس شيئاً.

ـ وما الذي يجعلك تقولين ذلك؟

اقتربت مني جوزفين وهـي تتنفس في وجهي.

ـ يـوم وفاة جـدي أمضى عمي روجر معـه في غرفتـه فتـرة طويلة جداً. كانا يتحدثان ويتحدثان. وكان عمي روجر يقول أنه لم يكن ناجحاً في عمله، وأنه خيّب ظنّ جـدي فيه... وأن الأمـر لا يتعلّق بالمال فقط... بل بشعوره أنه ليس جديراً بالثقـة. كان في حالة يُرثى لها.

نظـرت إلى جوزفـين في حيرة. قلت لهـا: جوزفـين، ألم ينبهك أحد من قبل إلى أن استراق السمع من خلف الباب عيب؟

أحنت رأسها بحماس وقالت:

ـ بالطبع نبّهوني لذلك. لكن إذا كنت تريد أن تعرف ما يدور من حولك ستجد نفسك مضطراً لاستراق السمع من خلف الأبواب. أراهنك بأن المفتش تافيرنر يلجأ إلى هذه الوسيلة، ألا تعتقد ذلك؟

أخذت أفكر في تلك المسألة، وجوزفين تابعت بحدّة:

ـ وحتى لو أنه لا يفعل ذلك، فإن الرجل الآخر الذي ينتعل الحذاء السويدي، يسترق السمع. ورجال الشرطة يفتشون في الأدراج ويقرأون رسائل الآخرين ويعرفون جميع أسرارهم. لكنهم أغبياء! إنهم لا يعرفون أين يفتشون!

قالت جوزفين ذلك بتكبر وتعال. كنت غبياً لأنني لم أستوضحها حول استنتاجها. تابعت الصبية المثيرة كلامها:

ـ أنا وأوستاس نعرف الكثير... وأنا أعرف أكثر منه. ولن أقول له ما أعرف. إنه يدعي بأن النساء ليس بإمكانهن أن يصبحن مفتشات عظيمات. لكنني مصرّة على عكس ذلك. سوف أدوّن كل ما أعرف في دفتر الملاحظات، وحين يعجز رجال الشرطة عن التوصّل إلى حلّ اللّغز، سأقول لهم: أنا أعرف من هو القاتل.

ـ هل تقرئين الكثير من الروايات البوليسية يا جوزفين؟

ـ العديد منها.

ـ وأنت تعتقدين أنك تعرفين من هو قاتل جدك؟

ـ أعتقد ذلك... لكن يتوجب عليّ أن أعرف أدلّة إضافية. سكتت قليلاً ثم أضافت: المفتش تافيرنر يعتقد أن بريندا هي

الجانية، أليس كذلك؟ أو بريندا ولورانس لأنهما يحبان بعضهما البعض.

ـ لا يجدر بك أن تقولي أموراً كهذه يا جوزفين.

ـ ولم لا؟ إنهما يحبان بعضهما البعض.

ـ لا تستطيعين أن تتأكدي من ذلك.

ـ بلى. إنهما يتبادلان الرسائل. الرسائل الغرامية.

ـ جوزفين! وكيف تعرفين ذلك؟

ـ لقد قرأتها. رسائل عاطفية جداً. لورانس عاطفي، وبسبب خوفه الشديد لم يستطع المشاركة في القتال أثناء الحرب. فضل أن يعمل في الطوابق السفلى وأن يوقد النار تحت مراجل النار الضخمة. حين سقطت بعض القنابل في الجوار، كاد يموت من الخوف. ضحكت وأوستاس من ذلك كثيراً.

لا أعرف ماذا كنت سأقول لها، لأنني سمعت صوت سيارة تقترب. وجوزفين أسرعت إلى النافذة، وألصقت أنفها على اللوح الزجاجي.

ـ من هذا؟

ـ إنه السيد غايتسكيل، محامي جدي. أعتقد أنه جاء من أجل الوصية.

تسارعت أنفاسها من شدة انفعالها، وخرجت من الغرفة وهي تنوي بدون شك مواصلة تحرياتها.

دخلت ماجدة ليونيدس، وفوجئت بها وهي تتقدم نحوي وتأخذ يدي بين يديها.

قالت: يا عزيزي. أنا مرتاحة لأنك لا تزال هنا. لأننا نحتاج لوجود رجل بيننا.

وتركت يدي، وتوجهت إلى مقعد عالي الظهر، غيرت قليلاً من مكانه، والتفتت إلى المرآة تتأمل نفسها قليلاً، ثم تناولت علبة من الخزف الثمين عن الطاولة، ووقفت مستغرقة في أفكارها وهي تفتحها وتغلقها. كانت وقفتها ملفتة للنظر.

أطلّت صوفيا من الباب وقالت تهمس بشكل تحذيريّ: غايتسكيل!

ردّت ماجدة: أعرف.

بعد قليل دخلت صوفيا وبرفقتها رجل كبير في السن، قصير القامة، فوضعت ماجدة العلبة مكانها وتقدمت ترحب به.

ـ صباح الخير يا سيدة فيليب. سأصعد إلى الطابق العلوي. يبدو أن هناك سوء تفاهم حول الوصية. كتب لي زوجك رسالة وهو يظن أن الوصية في حوزتي. وأنا كنت قد فهمت من السيد ليونيدس نفسه أنه يحتفظ بها في خزنته. وأنت لا تعرفين شيئاً حول هذا الموضوع، على ما أظن؟

ـ حول وصية المسكين الطيب؟ وفتحت ماجدة عينيها بدهشة وقالت: لا، بالطبع لا. لا تقل لي أن تلك المرأة الخبيثة قد تخلصت منها؟

ـ أرجوك يا سيدة فيليب... قال لها وهو يهزّ إصبعه محذراً، لا نريد تخمينات غير حقيقية، نريد فقط أن نعرف أين وضع حماك الوصية.

ـ لكنه أرسلها إليك... وبالتأكيد فعل ذلك... بعد توقيعها. هو الذي أخبرنا.

قال السيد غايتسكيل: وصلني أن رجال الشرطة اطّلعوا على أوراق السيد ليونيدس الخاصة، سأتحدث قليلاً مع السيد تافيرنر.

وغادر الغرفة.

قالت ماجدة: يا حبيبتي، لقد تخلّصت منها. أنا واثقة أنني على حق.

ـ هذا هراء يا أمي، إنها لن تقدم على تصرّف غبيّ كهذا.

ـ ليس هذا التصرف غبياً. إذا لم تكن هناك وصية ستنال هي كلّ شيء.

ـ انتبهي... ها هو السيد غايتسكيل يعود ثانية.

دخل المحامي إلى الغرفة ومعه المفتش تافيرنر ودخل فيليب وراءهما.

كان السيد غايتسكيل يقول: لقد فهمت من السيد ليونيدس أنه أودع الوصية في خزنته في المصرف من أجل المزيد من الأمان.

هزّ تافيرنر رأسه.

ـ لقد أجريت اتصالاً بإدارة المصرف في هذا الخصوص. قالوا لي أنه لا توجد عندهم أية أوراق خاصة بالسيد ليونيدس عدا بعض الأسهم التي يحتفظون له بها.

قال فيليب: إنني أتساءل ما إذا كان روجر... أو الخالة إيديث... صوفيا، أرجوك اطلبي منها الحضور إلى هنا. لكن إفادات روجر والآخرين الذين تم استدعاؤهم لم تكن ذات أهمية.

قال روجر: هذا غير معقـول... غير معقـول أبداً... أبي وقّـع على وصيته وقال بوضوح أنه سيرسلها بالبريد إلى مكتب السيد غايتسكيل صباح اليوم التالي.

قال السيد غايتسكيل وهـو ينحني قليلاً إلى الخلف ويغمض عينيه: إذا أسعفتني ذاكرتي أعتقـد أنني قدمت لـه في الرابـع والعشرين من شهـر تشرين الثاني/ نـوفمبر من العـام المـاضي مسوّدة فيها جميع تعليماتـه. وافق على المسـودة وأعادهـا إليّ، وبعد فترة أرسلت له الوصيّة لكي يوقعهـا. بعد مضيّ أسبـوع، اتصلت به وذكّرته بأنني لم أستلم الوصية المـوقّعة والمصـدّقة من قبله، وسألته إذا كان يرغب في تغيير أيّ بند فيها. أجـابني أنه مرتاح تماماً لما تنصّ عليـه، وأنه بعـد توقيعهـا أرسلها إلى مصرفه.

قال روجر بحمـاس: هذا صحيـح. كان ذلـك في نهايـة شهر تشرين الثـاني/ نوفمبـر من السنة المـاضية... هـل تتذكـر، يا فيليب؟ جمعنا أبي ذات مساء وقرأ علينا وصيته.

التفت تاڤيرنر نحو فيليب ليونيدس.

ـ وهل هذا يتطـابق مع ذاكـرتك حـول ما حـدث، يا سيـد ليونيدس؟

قال فيليب: أجل.

قالت ماجـدة: كان الاجتمـاع يذكّـر بمسرحية: «إرث عـائلة فـويسي». وتنهّدت بمـرح وقالت: هنـاك دائماً جـو درامي عنـد قراءة وصية ما.

ـ والآنسة صوفيا؟

ـ أجل، أذكر ذلك جيداً.

سأله تاڤيرنر: وما هي بنود الوصية؟

همّ السيد غايتسكيل يودّ الإجابة بأسلوبه الدقيق، لكن روجر سبقه إلى الكلام.

ـ كانت وصية بسيطة جداً. بعد وفاة إلكترا وجويس عادت حصتاهما إلى والدي. ابن جويس، ويدعى ويليام، قتل في الحرب في بورما، وجميع ما يملك ورثه عنه والده. وهكذا لم يعد لوالدي من ورثة سوى فيليب وأنا والأولاد الثلاثة. هذا ما قاله لنا والدي. وتنص الوصية أن تنال خالتي إيديث مبلغ خمسين ألف باوند، معفاة من الرسوم، وتنال بريندا مبلغ مئة ألف باوند، معفاة من الرسوم أيضاً، ترك البيت لبريندا، أو لها الحرية لتختار بيتاً ملائماً في لندن. وما يتبقى يتم توزيعه على ثلاث حصص، حصة لي، وحصة لفيليب، وحصة لصوفيا وأوستاس وجوزفين، على أن توضع حصة الصغيرين تحت الوصاية حتى يبلغا سنّ الرشد. أعتقد أن هذا كلّ ما ورد في الوصية، أليس كذلك يا سيد غايتسكيل؟

ـ هذه هي... بشكل عام... بنود الوصية التي أعددت. وبدا السيد غايتسكيل مستاءً لأنه لم يتولّ بنفسه شرح الموضوع.

قال روجر: قرأ أبي الوصية لنا، وسألنا ما إذا كانت لدينا أية ملاحظات. وبالطبع لم تكن لدينا ملاحظات حولها.

قالت الآنسة دوهاڤيلاند: بريندا علّقت على الأمر.

وافقتها ماجدة بحماس: أجل. قالت أنها لا تتحمل أن تسمع حبيبها أريستيد وهو يتحدث عن الموت، وأن ذلك يجعل بدنها

يقشعرّ. وبعد وفاته ادعت بأنها لا تريد شيئاً من هذا المال المخيف!

قالت الآنسة دوهافيلاند: هذا الاحتجاج مألوف عند أبناء الطبقة التي تنتمي إليها.

كان كلامها قاسياً وجارحاً، وأدركتُ فجأة إلى أي حدّ كانت الآنسة دوهافيلاند تكره بريندا.

قال السيد غايتسكيل: لقد أحسن توزيع ممتلكاته بشكل عادل ومنطقي.

سأله المفتش تافيرنر: وبعد قراءتها ماذا حدث؟ أجابه روجر: بعد قراءتها وقّعها.

انحنى تافيرنر قليلاً إلى الأمام وسأله: متى وقّعها وكيف؟

التفت روجر حوله يبحث عن زوجته كأنه يريد أن يستنجد بها. وكليمنسي بادرت إلى الإجابة استجابة لنظرته تلك. وبدا سائر أفراد الأسرة مرتاحين لأنها هي التي ستتولى الردّ.

ـ هل تريد أن تعرف ماذا حدث بالتفصيل؟

ـ إذا سمحت يا سيدة روجر.

ـ وضع حماي الوصية على المكتب أمامه وطلب من واحد منّا... أعتقد أنه روجر... أن يقرع الجرس. وروجر نفذ طلبه. جاء الخادم جونسون بعد قليل، وطلب منه حماي أن يأتي بالخادمة جانيت ولمر. وبحضورهما معاً وقع حماي الوصية وطلب منهما أن يوقّعا عليها تحت توقيعه.

قال السيد غايتسكيل: وهذا هو الإجراء القانوني السليم، لأن الوصية يجب أن تحمل توقيع صاحبها في حضور اثنين من

الشهود يقومان بدورهما بالتوقيع عليها في الوقت نفسه وفي المكان نفسه.

سألها تاڤيرنر: وبعد ذلك؟

– شكرهما حماي، وغادرا الغرفة. رفع حماي الوصية ووضعها في مغلف مستطيل وقال بأنه سوف يرسلها إلى السيد غايتسكيل في اليوم التالي.

قال المفتش تاڤيرنر وهو ينظر حوله: وأنتم توافقون جميعاً بأن هذا وصف دقيق لما حدث؟

تمتم الجميع بكلمات تعبّر عن موافقتهم.

– تقولين أن الوصية كانت على المكتب. إلى أي مدى كنتم قريبين من ذلك المكتب؟

– لم نكن قريبين جداً. الأقرب منه كان يجلس على مسافة خمسة أو ستة ياردات.

– وحين قرأ السيد ليونيدس الوصية كان يجلس إلى مكتبه؟

– أجل.

– هل وقف، أو ابتعد عن مكتبه، بعد قراءة الوصية وقبل التوقيع عليها؟

– لا.

– هل كان الخادمان يستطيعان قراءة الوثيقة حين وقّعا عليها؟

ردّت كليمنسي: لا. وضع حماي ورقة بيضاء على القسم الأعلى من الوثيقة.

قـال فيليب: وهذا ضروري، لأن الخـدم لا علاقـة لهم بهـذا الموضوع.

قال تافيرنر: فهمت. على الأقل... لم أعد أفهم.

وبحركة مفاجئة تناول من جيبه مغلفاً مستطيلاً ومدّ يده إلى المحامي يناوله إياه.

قال له: ألقِ نظرة على هذا المغلف، وأعطني رأيك.

فتح السيد غايتسكيل المغلف وتناول منه وثيقة مطويـة. نظر إليها بدهشة وهو يديرها بين يديه عدة مرات.

قال: هذا غـريب حقاً. لم أعـد أفهم شيئاً. هـل أستطيع أن أسألك أين عثرت عليها؟

ـ في الخزنة بين مجموعة من أوراق السيد ليوني

سأل روجر: لكن، ما هي هذه الوثيقة؟ وما هو وجه الغرابـة فيها؟

ـ هذه هي الوصية التي أعددت لكي يقوم والدك بتـوقيعها، يا روجر... لكن... لم أعـد أفهم شيئاً بعـد الإفادة التي وافقتم جميعاً عليها... لأن هذه الوصية لا تحمل توقيعاً.

ـ ماذا؟ قد تكون مجرد مسودّة.

ردّ المحامي: لا. لقد أعاد إليّ السيد ليونيدس المسودة. وبعد ذلك أعددت الوصية... هذه الوصيـة، قال وهـو يدق بـإصبعه عليها... وأرسلتها إليه ليوقعها. وحسب ما سمعتـه منكم فإنـه وقّعها أثناء حضوركم جميعاً... واثنان من الشهود وقّعـا عليها أيضاً... ومع ذلك فإن هذه الوصية غير موقّعة.

قال فيليب ليونيدس: لكن هذا مستحيل، وقال ذلك بحماس لم أسمعه منه من قبل.

سأله تافيرنر. كيف كان نظر والدك؟

ـ كان يعاني من الإصابة بمرض في بؤبؤ العين، وكان يضع نظارتين سميكتين حين يريد أن يقرأ طبعاً.

ـ وهل كان يضع نظارتيه في تلك الأمسية؟

ـ بالتأكيد. ولم يرفعهما عن عينيه إلّا بعد التوقيع، على ما أعتقد.

قال كليمنسي: هذا صحيح.

ـ وأنتم جميعاً واثقون أن لا أحد من الموجودين اقترب من المكتب قبل توقيع الوصية؟

قالت ماجدة وهي تعبس قليلاً: إنني أتساءل ما إذا كان باستطاعتنا أن نعيد تصوّر ما حدث مرة ثانية.

قالت صوفيا: لا أحد اقترب من المكتب، وجدي كان يجلس إليه طوال الوقت.

ـ والمكتب كان في المكان نفسه كما هو الآن؟ ألم يكن قرب باب أو شباك أو أيّة ستارة؟

ـ كان كما هو الآن.

قال تافيرنر: إنني أحاول أن أتخيل كيف تمت عملية الاستبدال. لأن الاستبدال تم بالتأكيد. كان السيد ليونيدس يعتقد أنه يوقع الوثيقة نفسها التي قرأها عليكم.

سأله روجر: هل من المحتمل أن تكون التواقيع قد أزيلت عنها؟

ـ لا يا سيد ليـونيدس. لأن المحـو يترك آثـاراً. لا أجد أي احتمال آخر مقبـولاً، ليست هذه الـوثيقة التي أرسلهـا السيد غايتسكيل إلى السيد ليونيدس والتي وقعها في حضوركم.

قال السيد غـايتسكيل: هـذا الافتراض غـير صحيح، لأنني أقسم بأن هذه الوثيقة هي النصّ الأصلي الوحيد للوصيـة؛ ولا توجد منها نسخة ثانية. وهناك شق صغير في أعـلى الورقـة إلى اليسار وهو يشبه شكل طائرة. وقد لفت نظري في حينه.

أخذا أفراد الأسرة يتبادلون النظرات بدهشة.

قال السيد غايتسكيل: هذه مجموعة غريبـة من الملابسـات، لم يسبق أن تعرّضت لمثلها من قبل.

قال روجر: هذا مستحيل، لأننـا جميعاً كنـا موجـودين، بكل بساطة لم يحدث ذلك.

سعلت الآنسة دوهاڤيلاند قليلاً.

قـالت: لا داعي في أن نضيّع الـوقت لنقـول عن شيء حـدث فعـلاً، أنه لم يحـدث. ما هـو الوضـع الحاليّ؟ هـذا مـا أريـد معرفته.

استعـاد السيد غـايتسكيل في الحـال دور المحامي الحـذر. وقال: يجب دراسة المـوقف بدقـة متناهيـة. هذه الـوثيقة تلغي بالطبع جميع الوصـايا السـابقة. هنـاك عدد كبـير من الشهود الذين رأوا السيد ليونيدس يوقّع على وثيقة كان بالتأكيد يعتقـد أنها هي الوصية. هذا مثير للاهتمام فعلاً، إنها مشكلة قانونيـة معقّدة.

ألقى تاڤيرنر نظرة على ساعته وقال:

ـ أعتذر لأنني أخرتكم عن تناول الغداء.

سأله فيليب: هل تتفضل وتتناول معنا طعام الغداء أيها المفتش؟

ـ أشكرك يا سيد ليونيدس، لكن عندي موعد مع الدكتور غراي في سوينلي دين.

التفت فيليب نحو المحامي وسأله:

ـ هل تتناول معنا الغداء يا سيد غايتسكيل؟

ـ أشكرك يا فيليب.

وقف الجميع. اقتربت من صوفيا. وسألتها هامساً: «هل أذهب أم أبقى؟» وبدا سؤالي سخيفاً كأنه عنوان أغنية من العهد الفيكتوري.

قالت صوفيا: من الأفضل أن تذهب.

خرجت بهدوء من الغرفة لألحق بتافيرنر. كانت جوزفين تتأرجح على باب أخضر اللون يفضي إلى الجناح الخلفي. بدت مسرورة من شيء ما.

قالت: رجال الشرطة أغبياء.

خرجت صوفيا من غرفة الجلوس.

ـ ماذا كنت تفعلين يا جوزفين؟

ـ كنت أساعد المربية؟

ـ أعتقد أنك كنت تسترقين السمع خلف الباب.

كشّرت جوزفين وابتعدت.

قالت صوفيا: هذه الطفلة مشكلة.

■ ١١ ■

دخلت إلى مكتب والدي في مقر سكوتلاند يارد حيث وجدت تافيرنر في صدد قراءة الملاحظات المدوّنة وبدا كأنه يقرأ حكاية مثيرة للكآبة.

قال لي: تفضل، لقد قرأت كلّ ما ورد بتمعنّ وما هي النتيجة... لا شيء! لا توجد أية دوافع. لا توجد دوافع واضحة. وكل ما استطعنا التوصّل إليه حول المرأة وصديقها انه كان ينظر إليها بحنان وهي تملأ له فنجان القهوة!

ـ ما هذا يا تافيرنر؟ استطيع أن اساعدك أكثر من ذلك.

ـ تستطيع مساعدتي، هذا صحيح؟ حسناً، يا سيد تشارلز، ماذا لديك؟

جلست واشعلت سيجارة وأسندت ظهري وقلت له:

ـ كان روجر ليونيدس وزوجته ينويان السفر إلى الخارج يوم الثلاثاء المقبل. وكان قد دار بين روجر ووالده حديث ساخن يوم وفاة الرجل العجوز. ليونيدس العجوز كان قد اكتشف خللاً ما، وروجر اعترف له بأنه مذنب.

توردت وجنتا تافيرنر.

ـ منَ أين لك هذه المعلومات؟ إذا كنت قد حصلت عليها من الخدم...

ـ لم أحصل عليها من الخدم. لقد حصلت عليهـا من عميل استخبارات خصوصي.

ـ ماذا تعني بذلك؟

ـ وأستطيـع أن أقول، أنـه استناداً إلى أفضـل الروايـات البوليسية، لقد تمكن، أو بالأحرى تمكنت من التفوق على رجال الشرطة!

وتـابعت أقول: وأعتقـد أن هذه المفتشـة الخاصـة عنـدهـا معلومات أخرى في جعبتها.

المفتش تاڤيرنر فتح فمه ثم أغلقه. كان يريد أن يسأل الكثير دفعة واحدة ووجد صعوبة في البدء بسؤال معين.

قال: روجر! تصرفات روجر غير سليمة إذاً.

شعرت بشيء من الاشمئزاز وأنا أعرض أمام والدي وتاڤيرنر مـا لديّ من معلـومات. لقـد أعجبني روجر ليـونيدس. تـذكرت غرفته المريحة والحميمة، وسحره ووديته، أنا بالتأكيـد أكره أن أجعلـه مُلاحقـاً من العدالـة. هناك احتمـال بالطبـع أن تكـون معلومات جوزفين غير موثوقة، لكنني لم أكن أعتقد ذلك.

قال تاڤيرنر: الفتاة الصغيرة هي التي قـالت ذلك إذاً؟ يبـدو أنها تنتبه لجميع ما يدور في البيت من حولها.

قال والدي بجفاف: هكذا هم الأطفال عادة.

تلـك المعلومـات، في حال تـأكدنـا من صحّتها، تغـيَّر الموقف بـأسره. إذا كان روجـر، كمـا أسرّت إليّ جـوزفـين، يختلس من

أموال شركة التعهّدات المتحدة، وإذا كـان الرجـل العجوز قـد اكتشف الأمر، ربما يشكل هذا دافعاً قويـاً لإسكات ليـونيدس العجوز ولمغادرة انكلترا قبل الفضيحة. ومن المحتمل أيضـاً أن ترفع دعوى جنائية ضد روجر ويُستدعى للمحاكمة.

وتمت الموافقة على البدء مباشرة بإجراء التحريـات اللّازمـة للتوصل إلى حقيقة ما حدث في شركة التعهدات المتحدة.

قال والدي: الشركة معرّضـة لإعلان إفـلاسها إذا تبـيّن أن هـذا صحيح. المسـألـة في غـايـة الاهميـة، لأن الأزمـة تتعلّق بالملايين.

قال تاڤيرنر: إذا كان هذا حدث فعلاً في شـارع كويـر، نكون قد وصلنا إلى الدليل القاطع الذي نبحث عنه. الوالد يستـدعي روجـر، وروجر ينهـار ويعتـرف. بـريـنـدا ليـونيـدس كـانت في السينما، ولم يكن على روجر سوى أن يغادر غرفة والده ويدخل الحمام ويفرّغ قارورة «الإنسولين» ليملأهـا بسائـل «الإيسرين» المركّز، وهذه نهاية القضية. أو أن زوجـة روجر هي التي تـولّت التنفيذ. دخلت الجناح الآخـر بعد وصـولها إلى البيت في ذلـك اليوم... مدعية أنها كانت تبحث عن غليون روجـر الذي نسيـه هناك. وكان باستطاعتها أن تستبدل الدواء قبل وصول بريندا، وهـي قادرة أن تفعل ذلك ببرود وبهدوء.

احنيت رأسي موافقاً... اجل، وأنا أيضاً اعتقد انها هـي التي فعلت ذلـك. إنها تتصرف ببـرود يمنحها القـدرة على تنفيـذ ما تريد! وانا لا أظن أن روجر ليـونيدس يفكّـر بالسمّ كـوسيلة... هذا التلاعب «بالأنسولين» يخفي وراءه يد امراة.

قـال والـدي بجفـاف: هنـاك العـديـد من الـرجـال الـذين يستخدمون السمّ للقتل.

قال تافيرنر: أعرف ذلك يا سيدي وأضاف بدون انفعال: أعرف ذلك جيداً! لكنني مع ذلك لا أعتقد أن روجر هو الجاني.

ذكّره والدي قائلاً: ريتشارد كان يجيد مزج السموم.

ـ دعنا نقل انهما كانا متفقين على التنفيذ.

ـ والتركيز على اللّيدي ماكبيث. قال والدي وتافيرنر يهمّ بمغادرة الغرفة: هل هذا هو رأيك فيها يا تشارلز؟

تخيلتها واقفة بقامتها النحيلة والرشيقة قرب النافذة في تلك الغرفة المتقشفة.

قلت: إنها لا تشبه اللّيدي ماكبيث كثيراً. لأن اللّيدي ماكبيث كانت امرأة طمّاعة جداً، ولا أظن أن كليمنسي ليونيدس طمّاعة. لا أظن أنها تريد ممتلكات أو تهتم لهذا الأمر.

ـ لكنها قد تهتم إلى أقصى حدّ بمصير زوجها وسمعته؟

ـ أجل. وفي هذه الحالة ستكون قاسية.

هناك أنواع مختلفة من القسوة... هذا ما قالته لي صوفيا.

رفعت نظري فرأيت والدي يتأملني.

ـ بماذا تفكر يا تشارلز؟

لم أخبره عندئذ.

ثم استدعائي إلى مقر سكوتلاند يارد في اليوم التالي ووجدت تافيرنر في مكتب والدي.

بدا تافيرنر مسروراً ومنفعلاً.

قال والدي: شركة التعهدات المتحدة على شفير الهاوية.

قال تافيرنر: آيلة للسقوط في أية لحظة.

ـ قـرأت أن هبوطـاً كبيـراً في قيمـة الأسـهم حصـل الليلـة الماضية، لكن الوضـع بدأ يتحسن هذا الصباح.

قال تافيرنر: كان علينا أن نباشر تحرياتنا بحذر شديد. بدون طـرح أسئلة مبـاشرة. لم نكن نريـد إثارة حـالة رعب... أو أن نواجه الجنتلمان المسؤول علانية. لكن عندنـا مصادر مـوثوقـة وخـاصة وصلتنـا منها معلـومات أكيـدة. الشركة عـلى حـافـة الإفلاس التام، وهي عـاجزة عن تنفيـذ التزامـاتها. ويبـدو أن سوء الإدارة موجود منذ سنوات.

ـ وروجر ليونيدس هو المسؤول عن ذلك؟

ـ أجل. له مطلق الحرية في التصرّف كما تعرف.

ـ وبدأ يغدق على نفسه من أموال الشركة...

قال تافيرنر: لا. لا نعتقـد أنه فعـل ذلك. قـد يكون مجـرماً، لكننا لا نعتقد انه نصّاب. لقد كان بكل بساطة غبياً. لم يعـرف كيف يتخـذ القرارات المنـاسبـة. كـان ينطلق حـين يجـدر بـه التـريث... ويتردّد ويتـراجع حـين يجـدر بـه الإنطـلاق. منـح السلطة لأشخاص أساؤوا استخدامها. إنه يميل إلى منح الثقة للناس، ولقد منح ثقته لأشخاص غير جديرين بهـا. في كل وقت وفي كلّ مناسبة كان يتخذ قراراً مخطئاً.

قـال والدي: هـذا النوع من النـاس مـوجـود، وهم ليسـوا بالضرورة اغبياء. إنهم يسيئون الحكم على الآخرين، هذا كلّ ما في الأمر. ويتحمسون في الأوقات غير المناسبة.

قال تافيرنر: رجل مثله يجب الا يتولّى مسؤولية في أي عمل.

قال والدي: ولم يكن على الأرجح سيتولى تلك المسؤولية لولا أنه ابن أريستيد ليونيدس.

ـ تلك الشركة كانت في قمة نجاحها حين سلمها إليه الرجل العجوز. كانت أرباحها كبيرة وكأنها منجم من الذهب! لو لم يتدخّل روجر، كان العمل في الشركة سيستمر على أحسن حال.

قال والدي وهو يهزّ رأسه: لا، لا يستمر العمل في أية شركة تلقائياً. هناك قرارات يجب أن تتخذ... يصار إلى إقالة رجل هنا... وتعيين آخر هناك... إجراءات بسيطة تحدّد سياسة الشركة. ومع روجر ليونيدس يبدو أن الجواب كان مخطئاً دائماً.

قال تافيرنر: هذا صحيح. إنه مخلص إلى حدّ ما. لقد تمسّك بوجود بعض الموظفين الفاشلين... إما لأنه كان معجباً بهم... أو لأنهم يعملون في الشركة منذ فترة طويلة. وكانت تخطر له أحياناً أفكار غير معقولة ويصرّ على تنفيذها بالرغم من النفقات الهائلة التي تفترضها.

سأله والدي بإصرار: لكنه لم يرتكب أعمالاً مخالفة للقانون؟

ـ لا. لا أعمال مخالفة للقانون.

سألته: ولماذا يرتكب جريمة قتل إذاً؟

أجاب تافيرنر: ربما يكون غبياً وليس خبيثاً، لكن النتيجة واحدة تقريباً، وصار من المستحيل الآن إنقاذ وضع الشركة من الانهيار إلّا بواسطة مبلغ هائل يجب دفعه... وألقى نظرة على دفتر ملاحظاته: في موعد أقصاه يوم الأربعاء المقبل.

ـ وهذا المبلغ يعادل الإرث الذي سيناله، أو الذي كان يعتقد أنه سيناله، بموجب وصية والده؟

ـ تماماً.

ـ لكنه لن يستطيع الحصول على المبلغ نقداً.

ـ لا. لكنه سيفتح به اعتماداً في المصرف، والنتيجة واحدة. أحنى والدي رأسه.

ـ ألم يكن أفضل له أن يلجأ إلى والده ويطلب منه المساعدة؟

قال تاڤيرنر: أعتقد أنه فعل ذلك. وهذا أغلب الظن ما سمعته الفتاة. رفض الرجل العجوز بإصرار أن يضحي بمبلغ كبير بدون فائدة. وهو قادر على اتخاذ هذا القرار كما هو معروف عنه.

كان تاڤيرنر على حقّ فيما يقوله. لقد رفض أريستيد ليونيدس تمويل مسرحية ماجدة لأنه يعتقد أنها لن تحقق نجاحاً على صعيد شباك التذاكر. وأثبتت الأيام أنه كان مصيباً في قراره. كان كريماً مع أفراد عائلته، لكنه يرفض تبذير الأموال في مشاريع غير منتجة. وخسارة شركة التعهدات المتحدة وصلت إلى آلاف عديدة، أو ربما إلى مئات الآلاف. رفض المساعدة بشكل جازم، ولم يعد هناك من وسيلة أمام روجر لكي ينقذ نفسه من الانهيار التام سوى أن يتخلص من والده.

أجل، كان عنده بالفعل دافع قوي.

ألقى والدي نظرة على ساعته.

قال: لقد استدعيته للحضور إلى هنا. سوف يصل بعد قليل.

ـ روجر؟

ـ أجل.

تمتمت قائلاً: هل تتفضلين بالدخول إلى بيتي قالت العنكبوت للذبابة؟

نظر إليّ تاثيرنر في دهشة.

قال لي بحدّة: سوف نترك له المجال أن يأخذ جميع حقوقه للدفاع عن نفسه.

أجريت الاستعدادات اللازمة، وجلس كاتب الاختزال ينتظر. بعد قليل سمعنا رنين الجرس، ودخل روجر ليونيدس.

دخل بحماس... بخطوات متعثرة إلى حدّ ما... وقد تعثر بأحد المقاعد. عندئذٍ تأكد لي بشكل جازم أنه ليس الشخص الذي نفذ عملية وضع «الإيسرين» في قارورة «الأنسولين». لو أراد أن يفعل ذلك كان سيحطم القارورة، أو يرمي ما فيها على الأرض، أو أنه سيفشل في تنفيذ العملية بطريقة أو بأخرى. لا، كليمنسي هي الأداة المنفذة، وروجر كان موافقاً على هذا الإجراء.

أخذت الكلمات تتدافع من فمه.

- تريد مقابلتي؟ هل وصلتم إلى معلومات جديدة؟ مرحبا يا تشارلز. لم أرك حين دخلت. حضورك الآن مبادرة لطيفة منك. لكن أرجوك قلْ لي يا سير آرثر...

إنه بالفعل شخص لطيف... شخص لطيف للغاية. لكن العديد من المجرمين كانوا أشخاصاً لطيفين... هكذا كان يصفهم أصدقاؤهم بذهول بعد وقوع الجرائم.

شعرت كأنني يهوذا، وابتسمت له محيّياً.

كان والدي حازماً ويتصرف ببرود وعلى نحو رسمي. تلا

عليه العبارات المألوفة، جميع الأقوال سوف تُدوّن... الإجابة الصريحة... المحامي...

واستمع إليه روجر ليونيدس بتوتره وحماسه المعروفيْن عنه.

رأيت ابتسامة المفتش تافيرنر الساخرة ومن خلالها بدأت أتكهّن أفكاره.

ـ هؤلاء الأشخاص واثقون دائماً من أنفسهم. إنهم لا يخطئون أبداً. وهم أذكياء جداً.

جلست في ركن بعيد وبدأت أستمع.

قال والدي: طلبت منك يا سيد ليونيدس الحضور إلى هنا، لا لكي أعطيك معلومات جديدة حول القضية، بل لكي أعرف منك بعض المعلومات... معلومات تحتفظ بها.

بدا روجر ليونيدس مرتبكاً.

ـ أحتفظ بها؟ لكنني قلت لك كلّ ما عندي... كلّ ما عندي على الإطلاق!.

ـ لا أعتقد ذلك. أنت تحدثت مع المجني عليه بعد ظهر اليوم الذي قتل فيه؟

ـ أجل، أجل. تناولت الشاي معه. قلت لكم ذلك من قبل.

ـ قلت ذلك، هذا صحيح، لكنك لم تقل لنا شيئاً عن طبيعة الحديث الذي دار بينكما.

ـ كنا... نتحدث.

ـ حول ماذا؟

ـ أحداث يومية، البيت، صوفيا...

ـ وشركة التعهدات المتحدة؟ هل تناولتماها في حديثكما؟

كنت حتى هذه اللحظة أتمنى أن تكون جوزفين قد اختلقت الحكاية من أولها؛ لكن أملي سرعان ما تلاشى.

تغيرت ملامح روجر. في غضون لحظات قصيرة تغيرت من الحماسة إلى شعور يمكن وصفه بأنه يأس مطلق.

قال: آه، يا إلهي. وارتمى على مقعد وخبأ وجهه بين يديه.

ابتسم تافيرنر مثل هرّ فاز بصيد ثمين.

ـ أنت تعترف يا سيد ليونيدس أنك لم تكن صريحاً معنا؟

ـ كيف عرفتم بما حدث؟ كنت أعتقد أن أحداً لا يعرف ذلك... لا أفهم كيف عرفتم.

ـ لدينا وسائلنا للوصول إلى مثل هذه المعلومات يا سيد ليونيدس. وساد صمت مهيب للحظات. ثم أضاف تافيرنر: أعتقد أنك اقتنعت الآن بأن تقول لنا الحقيقة.

ـ أجل، أجل، بالطبع. سأقول لكم الحقيقة. ماذا تريدون أن تعرفوا؟

ـ هل صحيح أن شركة التعهدات المتحدة على حافة الانهيار؟

ـ أجل، ومن الصعب إنقاذها الآن. الإنهيار واقع لا محالة. يا ليت والدي توفي قبل معرفة هذه الكارثة. إنني أشعر بالخجل... والمهانة...

ـ هل هناك احتمال لملاحقتك قضائياً؟

نظر إليه روجر بحدّة وقال:

ـ لا طبعاً. هذه حالة إفلاس، وهي حالة إفلاس شريف. سوف ندفع للدائنين عشرين سنتاً عن كلّ باوند إذا استخدمت

مـالي الخاص، وهـذا ما سـأفعل. إن المهـانة التي أشعـر بهـا سببها أنني خيبت ظنّ أبي فيّ.

كان يثق بي، وقد سلمني أفضـل شركة عنـده... والتي كان يوليها رعاية خاصة. لم يتـدخل ولم يسـألني مرة واحـدة حول طبيعة عملي. كان... يثق بي... وأنا خيّبت أمله.

قال والدي بجفاف: تقول أنه لا يوجد أي احتمال لملاحقتك قضائياً؟ لماذا إذاً كنت تنوي وزوجتك السفر إلى الخـارج بدون أن تعلما أحداً بنيتكما هذه؟

ـ أنتم تعرفون ذلك أيضاً؟

ـ أجل، يا سيد ليونيدس.

ـ ألا تستطيعون أن تفهموا موقفي؟ وانحنى قليلاً بحمـاس وقال: كنت عاجـزاً عن مواجهتـه بالحقيقـة. لأن الأمر سيبـدو كأنني أطلب منه مساعدة مـالية، أو كـأنني أريده أن يـوقفني عـلى رجليّ ثـانية. كـان... كان يحبني كثيـراً، ومن المؤكد أنـه سيـوافق على مسـاعدتي، لكنني رفضت مصـارحته... لم أعـد قادراً على الاستمرار... خفت أن أسيء التصرف مرة أخـرى... أنـا لا أصلح لشيء. ليست عنـدي المقدرة لأن أسـير على خطى والـدي. أدركت ذلك منـذ البدايـة. حاولت، لكنني فشلت. كنت تعيساً جداً... يـا إلهي! أنتم لا تعرفـون إلى أيّ حدّ وصلت بي التعـاسة! حـاولت إيجاد حـلّ للمشكلة، وتمنيت التـوصّـل إلى تسوية، وتمنيت أيضاً ألا يعرف الرجل العجوز شيئاً حـول هذا الأمـر. ثم أيقنت أنـه لا مجـال للحؤول دون وقـوع الكـارثـة. زوجتي كليمنسي فهمت موقفي ووافقت معي. فكرنا معاً بتنفيـذ خطتنا، واتفقنا ألا نقول شيئاً لأحد. قررنا الرحيـل، وبعد ذلـك فلتهبّ العاصفة. كنت أنوي أن أترك رسالة لأبي أشرح له فيها

ما حدث... وأقول له أنني أشعر بالخجل وأتوسل إليه أن يغفر لي. كان دائماً طيباً معي... أنتم لا تعرفون مقدار طيبته معي! حين يعرف بالكارثة يكون قد فات الأوان ولا يعود تدخله يجدي نفعاً. وأنا كنت أريد ذلك. كنت أرفض أن أطلب منه مباشرة... أو بصورة غير مباشرة أية مساعدة. سأحاول أن أبدأ حياة جديدة في مكان آخر. حياة بسيطة ومتواضعة. سأعمل في الزراعة: زراعة البن والأشجار المثمرة. وسأكتفي بالضروريات... ستكون الحياة صعبة بالنسبة لكليمنسي، لكنها أقسمت بأنها لا تمانع. إنها رائعة... رائعة جداً.

قال والدي ببرود: فهمت. وما الذي جعلك تغيّر رأيك؟

- أغيّر رأيي؟

- أجل. ما الذي جعلك تقرر أن تذهب إلى والدك وتطلب المساعدة المالية منه؟

حدق فيه روجر.

- لكنني لم أفعل ذلك!

- أرجوك يا سيد ليونيدس.

- أنتم مخطئون. أنا لم أذهب إليه. هو الذي أرسل في طلبي. عرف حقيقة الأمر أثناء وجوده في المدينة. أعتقد أنه سمع كلاماً بالصدفة، ثم حاول التأكد من صحته. واجهني بالحقيقة، وأنا بالطبع استسلمت... وقلت له كل شيء. قلت له أنني لم أخف الحقيقة عنه بسبب الخسارة المالية الفادحة... بل لأنني شعرت بأنني خيبت أمله بعدما وضع ثقته فيّ.

بلع روجر ريقه وهو يرتعش.

- العجوز الطيب، لا تستطيعون أن تتخيلوا إلى أيّ حدّ كان

طيباً معي، ولم يوجه لي أيّ لوم، بـل كان لطيفـاً جداً. قلت لـه أنني لا أريـد مسـاعـدة منـه، وأنني أفضـل عـدم الحصـول عليهـا... وأفضل أيضـاً أن أسافـر كما كنت مقـرراً أن أفعل. لكنـه رفض الاستماع إليّ وأصرّ عـلى مدّ يـد العون لي... وعـلى وضع شركة التعهدات المتحدة في مسارها الصحيح مرة ثانية.

قال تافيرنر بحدّة.

ـ أنت تريدنا أن نصدق بأن والدك كـان ينوي مسـاعدتـك مالياً؟

ـ بالتأكيد. لقد كتب إلى وكلائه يعطيهم التعليمات اللاّزمة.

أعتقـد أنه رأى دلائـل عدم التصـديق على وجهي الـرجلين فتورد خداه. وقال لهما: تمهّلا قليلاً. لا أزال أحتفظ بالرسـالة، كان من المفروض أن أرسلها بالبريد. لكنني بالطبع نسيت ذلك بعـد الحادثـة والصدمـة والاضطراب. أعتقـد أنني أحملها في جيبي الآن.

تناول محفظته وبدأ يبحث فيها إلى أن وجد أخيراً ما يبحث عنه. انتشل من محفظته مغلفاً مثنياً، ويحمل طابعاً بريدياً، وهو مرسل إلى عنوان السيدين غرايتوريكس وهـانبوري، واستطعت أن أقرأ ذلك بعد أن انحنيت قليلاً إلى الأمام.

قال روجر: إقرأ الرسالة بنفسك، إذا كنت لا تصدقني.

فتح والدي المغلف، وتناول الرسالة. استـدار تافـيرنر ووقف بجانبه. لم أطّلع على الرسالـة في حينه، لكنني اطلعت عليهـا في وقت لاحق. كانت تنص على الطلب من السيـدين غرايتـوريكس وهانبوري القيام بتوظيفات ماليـة معينة، وأن يـرسلا في اليـوم التالي موظفاً من قبل مؤسستهما لتنفيذ بعض الإجراءات وتولي

شؤون الشركة. بعض التعليمات كان غير واضح بالنسبة لي، لكن الهدف كان واضحاً بما فيه الكفاية. كان أريستيد ليونيدس ينوي وضع الشركة في مسارها الصحيح مرة ثانية.

قال تاڤيرنر: سوف نعطيك إيصالاً بهذه الرسالة، يا سيد ليونيدس.

أخذ روجر الإيصال ووقف وقال: هل هذا كل شيء؟ أنتم تعرفون الآن حقيقة ما جرى، أليس كذلك؟

قال له تاڤيرنر: أعطاك السيد ليونيدس هذه الرسالة وأنت غادرت غرفته؟ ماذا فعلت بعد ذلك؟

ـ عدت إلى جناحي الخاص. كانت زوجتي قد وصلت منذ قليل. أخبرتها بما ينوي أبي أن يفعل. كم كان رائعاً! كنت... كنت منفعلاً جداً ولم أعرف ماذا أفعل.

ـ ووالدك أصيب بنوبة... متى حدث ذلك؟

ـ بعد حوالي نصف ساعة، أو ساعة. جاءت بريندا مسرعة. كانت خائفة. قالت أنه في حالة غريبة. عدت مسرعاً إليه برفقتها. لقد أخبرتكم بكل هذا من قبل.

ـ وخلال زيارتك السابقة له هل دخلت إلى الحمام الملاصق لغرفة والدك؟

ـ لا أعتقد ذلك. لا... لا. أنا واثق أنني لم أفعل. من المستحيل أن تتصوروا أنني...

قطع له والدي احتجاجه الغاضب، حين وقف ومد له يده يسلّم عليه مودّعاً.

قال له: شكراً لك يا سيد ليونيدس. لقد أسديت لنا عوناً

كبيراً. لكن كان من الأفضل أن تخبرنا بما لديك من قبل.

أغلق روجر الباب خلفه. نهضت وتوجهت إلى مكتب والدي لألقي نظرة على الرسالة.

قال تاڤيرنر كأنه يتمنى ذلك: قد تكون مزوّرة!

قال والدي: لا أعتقد ذلك. يجب علينا أن نفهم الموقف كما هو، كان ليونيدس العجوز مستعداً لانتشال ابنه من هذه الورطة. وهو يستطيع بالتأكيد أن ينجز ذلك وهو على قيد الحياة، في حين سيعجز روجر عن إصلاح الأمور بعد وفاته... خاصة وأن الوصية الموقعة لم يتم العثور عليها بعد وحصة روجر من الميراث بعيدة عن متناول يده. وهذا يعني المزيد من التأخير ومن الصعوبات. وفي الظروف السائدة حالياً، بات انهيار الشركة أمراً مؤكداً. لا يا تاڤيرنر، لم يكن لدى روجر ليونيدس وزوجته أي دافع للتخلص من الرجل العجوز. على العكس من ذلك...

سكت وأخذ يكرّر الجملة الأخيرة وكأن فكرة جديدة خطرت في باله: على العكس من ذلك...

سأله تاڤيرنر: بماذا تفكر؟

قال والدي ببطء:

ـ لو أن أريستيد ليونيدس عاش أربعاً وعشرين ساعة أخرى كان سيتمكن من إنقاذ وضع روجر المالي. لكنه لم يعش أربعاً وعشرين ساعة، بل مات فجأة وبشكل مفجع بعد أقل من ساعة من حديثه مع روجر.

قال تاڤيرنر: وهل تعتقد أن شخصاً في البيت يريد أن

يتعرض روجر للإفلاس؟ شخص لديه مشروع مـالي مختلف؟ لا يبدو هذا الاحتمال قريباً.

سأله والدي: ما هو وضع الجميع فيما يخصّ الـوصية؟ من يرث أموال ليونيدس العجوز؟

تنهد تافيرنر بصوت مسموع وقال:

ـ أنت تعرف المحامين. من المستحيل أن تحصـل منهم على إجابة واضحة. هناك وصية سابقـة، وضعها السيـد ليونيـدس بعـد زواجه للمـرة الثانيـة، وهي تنص عـلى أن تـرث السيـدة ليـونيدس المبلـغ نفسه الـذي نصّت عليه الـوصيـة الثـانيـة، والآنسة دوهافيلاند ترث مبلغاً أقل من المبلغ المدوّن في الوصية الثانية، وما يتبقى يتقاسمه فيليب وروجر. فكـرت أنه طـالما أن الوصية الثانية غير موقعة، فإن القانون يعترف بالوصية الأولى. لكن الأمـر ليس بهذه البسـاطة كمـا يبدو. لأن وضـع وصيـة جديدة يلغي الوصية القـديمة، وهنـاك شهود عـلى توقيـع هذه الوصية الجديدة بالإضافة إلى أخذ «نية صاحب الوصية» بعين الاعتبار ويبدو أن الأمر سيختلف تمامـاً في حال ثبت أنـه مات دون أن يترك وصية. في مثـل هذه الحـالة تحصـل أرملته عـلى الجـزء الأكبر من التـركـة، أو أنهـا تصبـح شريكـة دائمـة في الأرباح.

ـ إذا اختفت الوصية تكون بريندا ليونيـدس هي المستفيدة من ذلك إذاً؟

ـ أجـل. وفي حال تبـين أن في الأمـر خـدعـة، ستكـون هي المسؤولة عنها. ومن المؤكد أن هناك خـدعة، لكنني أجـد نفسي عاجزاً عن التوصل إلى كيفية حدوثها.

وأنا بدوري لم أكن أفهم كيف حصلت الخدعة. أعتقـد أننا كنا أغبياء فعـلاً. لكننا كنـا ننظر إلى الحـلّ من الزاويـة الخطأ طبعاً.

■ ١٢ ■

ساد الصمت فترة قصيرة بعد خروج تافيرنر. فقلت: أبي، كيف يكون المجرمون؟

نظر إلي وهو يفكّر. كان كل واحد منا يفهم الآخر جيداً، لذلك فإن والدي فهم تماماً ماذا كنت أعني حين طرحت عليه سؤالي. وقد أجابني بجدية تامة:

ـ نعم، هذا سؤال مهم الآن... مهم جداً بالنسبة لك... صارت الجريمة قريبة منك، ولم تعد قادراً على إلقاء نظرة عليها من الخارج.

كانت بعض القضايا المثيرة التي تناولها مكتب والدي تلفت انتباهي، وكانت ملاحقتها بالنسبة لي هواية ممتعة، لكن، وكما قال والدي، كنت أهتم بها من الخارج... أنظر إليها وكأنها خلف نافذة. لكن الآن، وكانت صوفيا أسرع منّي إلى إدراك ذلك، صارت الجريمة عنصراً مسيطراً على حياتي.

تابع والدي كلامه قائلاً: لا أعرف ما إذا كنت الشخص المناسب لتطرح عليه سؤالاً مثل هذا. أستطيع أن أتركك تسمع الإجابة من أطباء نفسانيين نتعاون معهم. سوف يعطونك إجابة واضحة وجاهزة. وتافيرنر يستطيع أن يقدم لك وجهة نظر

عملية أيضاً. لكن أنت تريد، على ما أعتقد، أن تعرف رأيي من خلال تجربتي مع المجرمين؟

قلت ممتناً: هذا ما أريد معرفته.

رسم والدي بإصبعه شكل دائرة على المكتب.

– كيف هم المجرمون؟ بعضهم... وارتسمت ابتسامة كئيبة إلى حد ما على وجهه... كانوا لطيفين جداً.

بدت علامات الدهشة على وجهي.

– أجل، كانوا أشخاصاً عاديين ولطيفين مثلي ومثلك... أو كالرجل الذي خرج من هنا منذ قليل... روجر ليونيدس. القتل عمداً جناية يرتكبها هاو. وأنا أقصد بالطبع نوع الجريمة الذي تفكر فيه... لا الجرائم التي ترتكبها العصابات. في أغلب الأحيان يبدو هؤلاء الأشخاص العاديون وكأن فكرة الإجرام استحوذت عليهم بشكل مفاجىء. قد يكون الواحد منهم في موقف حرج، أو أنه يرغب بصورة ملحة في الحصول على مبلغ من المال أو على امرأة معينة... ويقتل لكي يحصل على مبتغاه. الكابح الذي يلجم معظم الناس يكون معطلاً عند أولئك الأشخاص. أنت تعرف أن الطفل يترجم رغبته إلى عمل بدون أن يشعر بالندم. يغضب الطفل من قطته مثلاً، ويقول لها: سأقتلك، وفي الحال يضربها على رأسها بالمطرقة... ويشعر بحزن شديد لأن القطة لا تعود إلى الحياة ثانية! هناك أولاد كثيرون حاولوا إغراق أطفال صغار لأن الأهل يركزون انتباههم عليهم... أو لأنهم يضايقونهم. ويصل الولد إلى مرحلة يدرك فيها أن هذا العمل: «خاطىء» أي أنه سينال عقوبة إذا ارتكبه. وفيما بعد يتكرس الإحساس بأنه عمل خاطىء في

أعمـاقـه. لكن بعض الأشخـاص لا ينضجـون من النـاحيـة الأخلاقية. إنهم يدركون بأن الجريمـة عمل خـاطىء، لكنهم لا يشعرون بذلـك من أعماقهم. لا أعتقـد، كما تبـيّن لي من خلال تجربتي، بأن القاتل يشعر فعلاً بالندم... وهذه النقطة بـالذات هي العـلامة الفـارقة. المجـرمون يـوضعون عـلى حـدة، لأنـهم مختلفون... الجريمة خطأ... لكنها ليست خطأ بـالنسبة لهم... بالنسبة لهم كانت إجراءً ضرورياً... الضحية هي التي أوصلت الأمر إلى هذه النتيجة، كان لا بدّ من ذلك.

سألته: هل تعتقد أن شـخصـاً كان يكـره ليونيـدس العجوز منذ فترة طويلة، يشكل ذلك بالنسبة له دافعاً للقتل؟

ـ الكـراهية فقط؟ احتمـال بعيد بـرأيي. ونظـر إليّ والـدي بارتياب وأضـاف: حين تشـير إلى الكراهيـة أعتقد بـأنك تعني النفور الذي يتجاوز الحدود المـألوفـة. الكراهيـة بسبب الغيرة، كراهية من نوع خاص... إنـهـا تنشأ من العـاطفة والإحسـاس بـالحرمـان. يقول الجميـع أن كونستـانس كينث كانت مـولعة بأخيها الطفل الذي قتلت. كانت على الأرجح تريد الحصول على الاهتمام والحب الذي كـان محاطـاً بهما. أعتقـد أن الناس في الغـالب يقتلـون الأشخـاص الـذين يحبـون أكثـر من الـذين يكـرهـون. وربمـا يكـون مـردّ ذلـك أن الـذين نحبهم هم فقط القادرون على جعل الحياة غير محتملة بالنسبة لنا.

تابع يقول: لكن كلامي هذا لا يساعدك كثيراً، أليس كـذلك؟ مـا تريـده، إذا كنت قد فهمت جيـداً، هو الـوصول إلى عـلامة معينة، أو قاسم مشترك يساعـدك على التعـرف إلى مجرم بـين أفراد أسرة يبدون جميعاً عاديين ولطفاء.

ـ أجل، هذا ما أريده.

ـ لكن هل هناك قاسم مشترك؟ وسكت قليلاً يفكر ثم قال: لو أنه بالفعل موجود أعتقد أنه سيكون الغرور.

ـ الغرور؟

ـ أجل. لم أعرف حتى الآن مجرماً لم يكن مغروراً... وهذا الغرور هو الذي يساعد على افتضاح أمر الأغلبية الساحقة من المجرمين. إنهم يخافون بالطبع أن ينكشف أمرهم، لكنهم لا يستطيعون منع أنفسهم من التباهي والاعتزاز، وهم في الغالب يكونون واثقين أنهم أذكى من أن يفتضح أمرهم. وبعد قليل أضاف: وهناك شيء آخر أيضاً، المجرم يرغب في أن يتكلم.

ـ يتكلم؟

ـ أجل. لأن من يرتكب جريمة يجد نفسه في وحدة عظيمة. يرغب في أن يتحدث عن جريمته... لكنه لا يستطيع ذلك. وتزداد تلك الرغبة لديه، وإذا كان لا يستطيع أن يقول بأنه هو الجاني، فإنه على الأقل يرغب في التحدث عن الجريمة نفسها... يناقش ما حدث، ويقدم النظريات... ويحاول استعادة التفاصيل.

ـ لو كنت مكانك يا تشارلز لبحثت عن هذه الدلائل. إذهب إلى بيت عائلة ليونيدس مرة ثانية، واختلط مع أفراد العائلة، وحاول أن تستدرجهم في الكلام. لن يكون الأمر بهذه البساطة طبعاً. إذا كان الواحد منهم مذنباً أم بريئاً ستكون عنده رغبة في التحدث إلى رجل غريب يستطيع أن يقول له أموراً لا يقولها لأفراد الأسرة الآخرين. لكن من المحتمل برأيي أن تتوصّل إلى تبيّن اختلاف معين. فالشخص الذي عنده ما يخفيه ليس من مصلحته أن يتحدث على الإطلاق. وهذا ما كانت القيادة

العسكرية تعرفه جيداً أثناء الحـرب. إذا تم القبض على عنصر يعطي اسمـه ورتبته ورقمـه العسكري ولا يضيف شيئـاً آخر. الـذي يحاول إعطـاء معلومـات خاطئـة يـزلّ لسـانـه في معظم الأحيـان. استدرج سكـان البيت يا تشـارلز ليتحـدثوا معـك، وانتبه جيداً لأية زلة لسان أو إشارة للتباهي.

أخبرته بما قالته صوفيا حول القسوة في عائلتهـا... الأنواع المختلفة من القسوة. وبدا مهتماً بذلك.

ـ هذا صحيح، وفتاتك تشـير هنا إلى مسـألة هـامة. معظم العائلات تعاني من عيب معين، أو ضعف. وقـد يستطيع بعض الأشخـاص أن يتغلبوا عـلى نقطة ضعف واحـدة... لكنهم قـد يعجـزون عن التخلّص من نقطتي ضعف مختلفتـين نـوعيـاً. الوراثة علم مهم. خذ على سبيل المثال قسوة عائلة دوهاڤيـلاند، وما نستطيع أن نطلق عليه صفة التورط عند عائلة ليونيدس... آل هاڤيلاند لا يتورطـون بسرعة فـلا بأس بهم، وأفـراد عائلـة ليونيدس مقبولون أيضـاً لأنهم بالـرغم من سرعة تـورطهم فهم لطفـاء... لكن في حال ورث أحـد الأفـراد هـاتـين الصفتـين في الوقت نفسه... هل تفهم ما أعنيه؟

لم أكن قد فكرت في الأمر من هذه الزاوية من قبل.

ـ لا أريد أن أشغل بـالك بـالوراثـة. هذا مـوضوع شـائك وصعب جـداً. إذهب يـا بني إلى هنـاك ودعهم بكـل بسـاطـة يتحدثوا إليك. كانت صوفيا على حق حين قالت أن التوصـل إلى الحقيقة سيكون مفيداً لك ولها. يجب أن تعرف الحقيقة.

وأضاف فيما كنت أهمّ بمغادرة الغرفة:

ـ وانتبه للصبية!

ـ جوزفين؟ تعني ألا أطلعها على ما أنوي فعله.

ـ لا، لم أكن أعني ذلك. إنني أطلب منك أن تنتبه لها كي لا يصيبها سوء.

حدقت فيه.

ـ ما بك يا تشارلز؟ في البيت قاتل نفذ جريمة ببرود. ويبدو أن جوزفين تعرف معظم ما يدور في البيت.

ـ كانت بالفعل تعرف الكثير حول روجر... حتى لو أنها استعجلت بالاستنتاج أنه كان مختلساً. كانت روايتها دقيقة للحديث الذي سمعته.

أجل، أجل. إن الدليل الذي يقدمه الطفل يكون أفضل الأدلة، وأنا أعتمد عليه في تحرياتي. لكنه لا قيمة له في قاعة المحكمة طبعاً. لا يمكن أن تطلب من طفل أن يشارك في جلسة محاكمة وأن تطرح عليه أسئلة مباشرة، في هذه الحالة سوف يرتبك أو أنه سيبدو غبياً وسيقول أنه لا يعرف شيئاً. تستطيع أن تعرف منهم الكثير وهم في حالة التباهي. هذا ما كانت جوزفين تفعله أمامك. كانت تتباهى. وسوف تعرف منها المزيد إذا استخدمت معها الطريقة نفسها. لا تطرح عليها أسئلة، بل حاول إثارتها بأنك تعتقد أنها لا تعرف شيئاً، بهذه الخدعة تعرف منها ما تريد. وأضاف: لكن انتبه لها. قد تكون تعرف أكثر مما يجب معرفته لكي يعيش الإنسان في أمان.

■ ١٣٠ ■

قصدت البيت المنحني (كما سميته بيني وبين نفسي) وعندي شعور طفيف بالذنب. لقد أخبرت تاڤيرنر بما أسرّته لي جـوزفين عن روجر، لكنني لم أقل له شيئاً عن رسـائل الغـرام التي كان لورانس براون وبريندا يتبادلانها.

وجدت العذر لنفسي بالإدعاء بأن تلك الرسائل كانت تعبيـراً عن رغبـة في حكايـة حبّ خياليـة، وأنه لا يـوجد دليـل على أن الحب كـان موجـوداً بالفعـل بينهمـا. وأنـا في الـواقـع لم أكن متحمساً لكي أزيد من الأدلـة التي تساعـد على إدانـة بريـنـدا ليونيدس. كنت متأثراً بالواقـع الذي تعيشـه في البيت... كانت محاطة بعائلة اتحدت ضدّها بعدائيـة واضحة. إذا كـانت هذه الرسائل موجودة فعلاً، سـوف يعثر عليهـا تاڤـيرنر ورجـاله. لا أريد أن أكون السبب في زيـادة الشكوك حـول امرأة تعيش في ظروف صعبة. وهي بالإضافة إلى ذلك أكّدت لي أنه لا توجد أية عـلاقة غـرامية بينهـا وبين لـورانس، وشعـرت أنني أميـل إلى تصـديقها أكثـر مما أميـل إلى تصديق تلـك الصبية المخيفـة، جـوزفين. وبـريندا نفسهـا قالت أن جـوزفين لم تكن في كـامل وعيها دائماً.

حاولت أن أتخلص من شعور مقلق بأن جوزفين كانت دائماً

في كامل وعيها. تذكرت التماعة الذكاء في عينيها السوداوين الصغيرتين.

كنت قد اتصلت بصوفيا وسألتها رأيها في زيارة العائلة ثانية.

ـ أرجوك أن تفعل ذلك يا تشارلز.

ـ كيف تسير الأمور؟

ـ لا أعرف. على ما يرام. رجال الشرطة ما زالوا يفتشون البيت. ما الذي يبحثون عنه؟

ـ ليست لدي أية فكرة.

ـ بدأت أعصابنا تتوتر. تعال في أقرب وقت، أشعر أنني سأصاب بحالة جنون إذا لم أتحدث مع أحد.

قلت أنني سأحضر في الحال.

لم أر أحداً حين وصلت بي سيارة التاكسي إلى الباب الرئيسي. دفعت للسائق أجرته فانطلق بالسيارة. تردّدت في أن أقرع الجرس أو أدخل مباشرة لأن الباب كان مفتوحاً.

فيما كنت أقف هناك حائراً، سمعت صوتاً خافتاً ورائي. أدرت رأسي بحدة. رأيت جوزفين، وقد حجبت تفاحة كبيرة جزءاً كبيراً من وجهها، واقفة في فسحة بين أشجار السور تنظر إليّ.

حين أدرت رأسي، التفتت بعيداً.

ـ مرحبا يا جوزفين.

لم تردّ عليّ واختفت خلف السور. اجتزت طريق السيارة وتبعتها. وجدتها تجلس على المقعد الخشبي غير المريح قرب بركة السمك وهي تهز رجليها وتقضم تفاحتها. فوق محيط

التفـاحة الأحمـر كانت عينـاها تتـأملانني بكـآبة وشعـرت أن نظرتها لا تخلو من العدوانية.

قلت: جئت لزيارتكم للمرة الثانية يا جوزفين.

بداية حديث غير مشجعـة، لكنني لم أعرف مـاذا أقول وهـي تتأملني بصمت وبنظرة ثابتة.

وبإحساس استراتيجيّ مميّز اختارت عدم الردّ.

سألتها: هل هذه التفاحة جيدة؟

في هذه المرة شاءت جوزفين أن تردّ عـليّ. لكن ردّها كـان في كلمة واحدة:

ـ طريّة.

ـ أنا لا أحب التفاح الطريّ.

ردّت جوزفين بازدراء: لا أحد يحبه.

ـ لماذا لم تردي علي حين قلت لك مرحبا؟

ـ لم أرغب في ذلك؟

ـ لماذا؟

أبعدت جوزفين التفاحة عن وجهها كي تتـرك المجال لمـلامح وجهها للمشاركة في التهجّم عليّ.

ـ أنت ذهبت إلى رجال الشرطة وبحت بما تعرف.

تفاجأت قليلاً وقلت:

تقصدين... عن...

ـ عن عمي روجر.

قلت أحاول تهدئتها:

ـ لكن لا بـأس في ذلك يـا جوزفـين. لا بأس. إنهم يعـرفون

جيداً أن عمك لم يرتكب عملاً مخالفاً للقانون... أعني أنه لم يختلس أموال الشركة أو أي شيء من هذا القبيل.

رمقتني جوزفين بنظرة غاضبة.

ـ كم أنت غبي.

ـ أنا آسف.

ـ أنا لست قلقة بشأن عمي روجر. لكن هذا بكل بساطة ليس الأسلوب الصحيح الذي يختاره المفتش الناجح. ألا تعرف أنه لا يجدر بك أن تنقل للشرطة أية معلومات قبل التوصّل إلى نهاية تحرياتك؟

قلت: آه، فهمت. أنا آسف يا جوزفين. إنني آسف فعلاً.

أضافت تريد توبيخي: يجب أن تكون آسفاً. كنت أثق بك.

اعتذرت منها مرة أخرى. بدت وكأنها رضيت قليلاً، وأخذت تقضم تفاحتها.

قلت لها: على أية حال كان رجال الشرطة سيتوصلون إلى هذه المعلومات. وأنت... وأنا... كنا سنضطر لكشف السرّ!

ـ تعني لأن الشركة ستعلن إفلاسها؟ وكالمعتاد كانت على علم بذلك.

ـ أعتقد أن وضع الشركة سوف يؤدي إلى هذه النتيجة.

قالت جوزفين: هذه الليلة سيجتمع أبي وأمي وعمي روجر وخالتي إيديث لمناقشة الوضع. خالتي إيديث أبدت استعدادها لإعطائه المبلغ الذي سترثه... لكنها لم تحصل عليه بعد... لا أعتقد أن أبي سيوافق على إعطائه أي مبلغ. إنه يقول أن روجر وضع نفسه في ورطة هو وحده مسؤول عنها وأنه لا فائدة من

بذل المال بعد الخسارة، وأمي لن تسمح بإعطائه شيئاً لأنها تريد من أبي أن يموّل مسرحية إيديث تومبسون. هل تعرف من هي إيديث تومبسون؟ كانت متزوجة ولم تكن تحب زوجها. كانت تعيش علاقة حب مع شاب يدعى بايواترز، وهذا وصل على متن سفينة وتوجه إلى المسرح وتربص بالزوج في شارع فرعيّ وطعنه في ظهره.

أدهشتني جوزفين مرة أخرى بسعة اطلاعها؛ وبحسّها الدراميّ الذي تحجبه قليلاً الأسماء الغريبة والذي عرضت بواسطته كلّ الوقائع الكامنة في العقدة.

قالت جوزفين: لكنني لا أعتقد أن المسرحية ستكون على هذا النحو. سوف تكون مثل مسرحية إيزابل مرة ثانية. وتنهدت: ليتني أعرف لماذا لم تأكل الكلاب باطن يديها.

ـ لقد قلت لي يا جوزفين أنك شبه متأكدة من شخصية المجرم؟

ـ وأنت ماذا تريد؟

ـ من هو؟

رمقتني بازدراء.

ـ فهمت. لن تقولي شيئاً قبل الفصل الأخير. حتى ولو وعدتك بأنني لن أخبر المفتش تافيرنر؟

ـ أنا بحاجة لعدة أدلّة أخرى.

وأضافت وهي ترمي قلب التفاحة في البركة: على أية حال لا أريد أن أخبرك. لأنك لست سوى واتسون بالنسبة لي.

بلعت تلك الإهانة.

ـ حسناً. أنا واتسون. لكن حتى واتسون كان من حقه الحصول على البيانات.

ـ ماذا؟

ـ المعلومات. ومن ثم كان يستنتج منها استنتاجات خاطئة. ألا تريدين أن تفرحي وأنتِ تسمعين استنتاجاتي الخاطئة؟

مرت لحظات أحست فيها جوزفين بإغراء الموقف. لكنها عادت وهزت رأسها رافضة.

قالت: لا، وأضافت: على أي حال أنا لا أحب شرلوك هولمز كثيراً. رواية قديمة جداً. كانوا يركبون العربات التي تجرها الأحصنة في تلك الأيام.

ـ والرسائل؟

ـ أية رسائل؟

ـ الرسائل التي قلت لي أن بريندا ولورانس براون كانا يتبادلانها.

قالت جوزفين: لقد اختلقت تلك المسألة.

ـ لا أصدقك.

ـ بلى. لقد فعلت ذلك. إنني غالباً ما أختلق الأمور. هذا يسلّيني.

حدقت فيها. حدقت في بدورها.

ـ إسمعيني يا جوزفين: لي صديق يعمل في المتحف البريطاني وهو يعرف الكثير عن الإنجيل. إذا عرفت منه السبب الذي منع الكلاب من التهام باطن يدي إيزابل، هل تصارحينني بموضوع الرسائل؟

في هذه المرة تردّدت جوزفين.

على مسافة غير بعيدة انكسر غصن وأصدر صوتاً قوياً وحاداً.

قالت جوزفين بفتور: لا، لن أخبرك شيئاً.

اقتنعت بالخسارة. سيحل المساء بعد قليل، تذكرت نصيحة والدي.

ـ لا بأس، هذه مجرد لعبة. أنت بالطبع لا تعرفين شيئاً.

ارتعش جفناها لكنها ظلّت تقاوم الطعم.

نهضت وقلت: سأذهب إلى البيت الآن لأتحدث مع صوفيا. هيا بنا.

قالت جوزفين: أريد أن أبقى هنا.

ـ لا، سوف تأتين معي.

وبحركة مفاجئة جذبتها لكي تقف على رجليها. بدت مدهوشة وراغبة في الاحتجاج لكنها استسلمت راضية، لأنها بدون شك كانت ترغب في مراقبة ردود فعل الآخرين حين وصولي.

لماذا كنت مصراً على اصطحابها معي لم أعرف ذلك في تلك اللحظة. ولم أنتبه إلى السبب إلاّ حين كنا ندخل من الباب الرئيسي.

كان ذلك الغصن الذي انكسر فجأة.

١٤

تسلّلت من غرفة الجلوس أصوات هامسة. تردّدت وقررت عدم الدخول. تمشيت قليلاً في الممرّ، وفتحت أحد الأبواب دون سبب واضح. كان الممر معتماً وفجأة انفتح باب آخر وبدا المطبخ الكبير المضاء من خلاله. وقفت في الباب امرأة عجوز... امرأة ضخمة إلى حدّ ما. كانت تضع مريولاً أبيض نظيفاً تربطه حول خصرها العريض، وحين وقع نظري عليها شعرت بالاطمئنان. إنه الشعور الذي ينتابك حين ترى مربية جيدة. كنت في الخامسة والثلاثين ومع ذلك شعرت كأنني صبي في الرابعة حين رأيتها.

لم تكن المربية تعرفني لكنها قالت لي مباشرة: أنت السيد تشارلز، أليس كذلك؟ تفضل لأقدم لك كوباً من الشاي.

كان المطبخ واسعاً ورحباً ومريحاً. جلست إلى الطاولة وسط الغرفة وأحضرت لي المربية كوباً من الشاي وقطعتين من البسكويت على طبق. ازداد إحساسي بأنني في الغرفة المخصّصة للأطفال. كلّ شيء على ما يرام... والخوف من الظلام ومن المجهول زال عنيّ.

قالت المربية: سوف تفرح الآنسة صوفيا حين تراك. إنها

تشعر باضطراب متزايد. وأضافت باستياء: الجميع هنا يعانون من الاضطراب المتزايد.

نظرت حولي وقلت: أين جوزفين؟ كانت معي.

أبدت المربية امتعاضها وأصدرت صوتاً مسموعاً بطرف لسانها.

ـ إنها تسترق السمع خلف الأبواب، وتدون ملاحظاتها في دفترها السخيف الذي تحمله معها باستمرار. كان من الأفضل أن تذهب إلى المدرسة ويكون لها رفاق من سنّها. قلت ذلك للآنسة إيديث وقد وافقت... لكن السيد قال أنه من الأفضل لها أن تبقى هنا في بيتها.

ـ أعتقد أنه كان يحبها.

ـ بالتأكيد يا سيدي. كان يحبهم جميعاً.

فوجئت بكلامها وتساءلت عن السبب الذي يجعلها تتحدث عن محبة فيليب لأطفاله في صيغة الفعل الماضي. أدركت المربية سبب حيرتي وتورد خداها قليلاً، وقالت:

ـ حين قلت «السيد» كنت أعني السيد ليونيدس العجوز.

قبل أن أتمكن من الإجابة على ذلك، انفتح الباب ودخلت صوفيا مسرعة.

ـ آه، تشارلز وأضافت بسرعة وهي تلتفت إلى المربية: كم أنا سعيدة بحضورك...

قالت لها مربيتها: أعرف ذلك يا حبيبتي.

جمعت المربية عدداً من الأطباق والأواني لتغسلها في المكان المخصّص لذلك وأغلقت باب المطبخ وراءها.

وقفت واقتربت من صوفيا. أحطتها بذراعيّ وقرّبتها مني.

ـ حبيبتي. أنت ترتعشين. ما بك؟

قالت صوفيا: أنا خائفة يا تشارلز. خائفة.

قلت لها: أنا أحبك، وأتمنى لو أستطيع أن أحملك بعيداً عن هذا المكان...

ابتعدت عني وهزت رأسها.

ـ لا. هذا مستحيل. يجب أن ننتهي من هذه القضية أولاً. أنت تعرف يا تشارلز أنني غير مرتاحة. لا أستطيع أن أرتاح وأنا أعرف أن شخصاً معيناً يسكن هذا البيت... أراه وأتحدث إليه كل يوم، وهو في الوقت نفسه مجرم خطط ببرود لارتكاب جريمته...

لم أعرف ماذا أقول لها. ليس من السهل توجيه تطمينات لا معنى لها لفتاة مثل صوفيا.

قالت: لو أنني أعرف...

قلت موافقاً: هذا بالفعل أسوأ ما في الأمر.

قالت هامسة: هل تعرف السبب الحقيقي لخوفي؟ أننا قد لا نعرف أبداً... سوف تتحول الحياة في البيت إلى كابوس مخيف... وهناك احتمال كبير ألا تتوصل التحريات الجارية للكشف عن القاتل.

وتذكرت سؤالاً كنت أنوي توجيهه إلى صوفيا حول مسألة لفتت انتباهي.

ـ قولي لي يا صوفيا، من كان يعرف بوجود قطرة «الإيسرين»، أي من كان يعرف أن جدك يستخدمها وأنها

تتكوّن من سائل سام إذا تناول الإنسان منها جرعة معينة يموت؟

ـ فهمت قصدك يا تشارلز. لكن محاولتك لا جدوى منها لأننا جميعاً كنا نعرف ذلك.

ـ كنتم تعرفون ذلك بوجه عام، لكن المعلومات المحدّدة...

ـ كنا نعرف المعلومات المحدّدة. تحلّقنا ذات يوم حول جدي لنتناول معه القهوة بعد الغداء. كان يحب كثيراً هذه الاجتماعات العائلية. وشعر بآلام في عينيه. أحضرت بريندا «الإيسرين» ووضعت له نقطة في كل عين. وجوزفين التي تطرح الأسئلة باستمرار وحول كلّ شيء سألت: لماذا كتب على القارورة قطرة للعين... للاستعمال الخارجي فقط؟ ابتسم لها جدي وأجابها: إذا أخطأت بريندا ذات يوم وأعطتني حقنة من قطرة العين بدلاً من «الأنسولين»... سوف ألهث كثيراً ويزرقّ وجهي وأموت لأن قلبي ليس قوياً كما تعرفين. وقالت جوزفين: «آه»، وأضاف جدي يقول: يجب أن ننتبه إذاً كي لا تعطيني بريندا حقنة «الإيسرين» بدلاً من «الأنسولين»، أليس كذلك؟. وسكتت صوفيا قليلاً ثم قالت:

كنا جميعاً حوله نستمع إليه، هل فهمت؟ سمعناه بوضوح.

الآن فهمت. كانت لدي فكرة غير واضحة تماماً تحتاج إلى مزيد من المعلومات. والآن صرت واثقاً أن ليونيدس العجوز هو الذي أوحى بأسلوب القتل للقاتل.

لم يعد القاتل يحتاج أن يضع مخططاً من عنده، أو يبتكر أسلوباً أو أي شيء من هذا القبيل. لقد أعطاه المجني عليه نفسه طريقة سهلة وبسيطة لكي يقتله بواسطتها.

تنفست بعمق. أدركت صوفيا بماذا كنت أفكر وقالت: أجل، هذا فظيع، أليس كذلك؟

قلت ببطء: صوفيا، هناك نقطة هامة تخطر في بالي.

ـ أجل؟

ـ انك كنت على حقّ، وأن بريندا ليست هي الجانية. من المستبعد أن تنفذ العملية بتلك الطريقة... والتفاصيل صارت معروفة لدى الجميع... وسيتذكرونها طبعاً.

ـ لا أعرف ما إذا كنت أوافق معك في ذلك. يجب أن تعرف أن بريندا تبدو غبية في معظم الأحيان.

ـ لكنها ليست غبية إلى هذا الحدّ. لا، من المستحيل أن تكون هي القاتلة.

ابتعدت صوفيا عني. وسألتني: أنت لا تريد أن تكون هي القاتلة، أليس كذلك؟

وماذا أجيبها؟ لا أستطيع... لا، لا أستطيع أن أقول ببساطة: بلى، أتمنى لو تكون هي القاتلة.

ولماذا لا أستطيع ذلك؟ شعرت أن بريندا تقف وحيدة في جهة، وحقد عائلة ليونيدس القوية يتصدّى لها في الجهة الأخرى. هل هو موقف فروسي نبيل؟ مؤازرة الضعيف؟ والذي لا حول له؟ تذكرتها وهي جالسة على الكنبة وهي ترتدي ثياب الحداد الثمينة ونبرة اليأس في صوتها... والخوف في عينيها.

رجعت المربية من غرفة غسل الأطباق في الوقت المناسب. لا أعرف ما إذا كانت قد شعرت بوجود توتّر بيني وبين صوفيا.

قالت مبدية استنكارها: أنتما تتحدثان عن المجرمين وأمور

كهذه. يجب أن تنسيا هذا الموضوع. أتركا رجال الشرطة يقولوه. هذا شأنهم وليس شأنكما!

- أه... لكن ألا تدركين أن شخصاً يقيم في هذا البيت هو قاتل...

- هذا هراء يا آنسة صوفيا، لم أعد أحتمل هذا الكلام. أليس باب البيت مفتوحاً طوال الوقت... وجميع الأبواب تظل مفتوحة... لا أحد يقفل باباً... أليست هذه دعوة موجهة للّصوص وللسارقين لدخول البيت؟

- لكن الذي ارتكب الجريمة لم يكن لصاً، لأنه لم يسرق شيئاً. ولماذا يدخل لص إلى بيت ويعطي السمّ لشخص ما؟

- لم أقل أنه لص يا آنسة صوفيا. قلت أن الأبواب تظل مفتوحة. أي شخص يستطيع الدخول. وإذا طلبت رأيي أقول لك انهم الشيوعيون.

وهزّت المربية رأسها تعبر عن اقتناعها بذلك.

- ولماذا يريد الشيوعيون أن يقتلوا جدي المسكين؟

- الجميع يقولون أنهم هم المسؤولون عن كلّ ما يجري، وإذا لم يكن الشيوعيون هم الذين نفذوا الجريمة، أؤكد لك أن الكاثوليكيين هم الذين فعلوا ذلك.

وغادرت المطبخ ثانية بعد أن قالت كلمتها الأخيرة.

ضحكت مع صوفيا. وقلت: إنها بروتستانتية متعصبة!

- أجل. تعال يا تشارلز لندخل إلى غرفة الجلوس. هناك اجتماع عائلي، كان من المفروض أن يعقد هذا المساء، لكنه بدأ مبكّراً.

ـ أفضّل الا أتدخل في هذا الاجتماع يا صوفيا.

ـ إذا كنت تنوي الزواج من هذه العائلة من الأفضل أن تعرف ماذا يدور بعد أن يخلع الجميع قفّازاتهم.

ـ ما هو موضوع الاجتماع؟

ـ مشكلة روجر. يبدو أن لك دوراً فيها. لكن أنت مجنون لأنك فكرت أن روجر قد يكون قاتل جدي. كان روجر مولعاً به.

ـ لم أفكر أن روجر هو الجاني. فكرت أن كليمنسي قد تكون هي الجانية.

ـ وهذا سببه أنني أوحيت لك بتلك الفكرة. لكن أنت مخطىء بالنسبة لها أيضاً. لا أعتقد أن كليمنسي تتأثر إذا خسر روجر جميع ما يملك. بل ستكون سعيدة بذلك على الأرجح. عندها شغف غريب أن لا تمتلك شيئاً. هيا بنا.

حين دخلت مع صوفيا إلى غرفة الجلوس، ساد الصمت، ونظر جميع الحاضرين إلينا.

كان جميع أفراد العائلة هناك. فيليب يجلس على مقعد وثير ومطرز قرمزي اللون، وبدا على وجهه الجميل قناع عابس وبارد، كأنه قاض يستعدّ لإصدار حكم معين. وروجر كان يجلس قرب المدفأة، وخصلات شعره وقفت أطرافها من كثرة ما عبث بها. رجل بنطلونه اليسرى كانت مثنية ورباط عنقه كان منحرفاً. كان متورّد الخدين وبدا كأنه كان يخوض جدالاً مع الآخرين. جلست كليمنسي خلفه وبدت أكثر نحولاً في المقعد الكبير. كانت تنظر بعيداً كأنها تتأمل اللوحات على الجدران بدون اهتمام. ايديث جلست على أحد مقاعد جدي، ذات الظهر العالي. كانت تحوك الصوف باندفاع ملفت وقد شدت على

شفتيهـا. وأجمل مـا في الغرفـة كان شكـل ماجـدة وأوستاس. نظرت إليهما وشعـرت أنني أتأمـل لوحـة رسمها غـاينزبـورو. جلسـا معـاً عـلى الكنبـة... الصبي الأسمـر الـوسيم عـابس، وبجانبه جلست ماجدة ومـدت ذراعها عـلى ظهر الكنبـة، كانت دوقـة هذا البيت وهـي تـرتدي ثـوباً من قمـاش التافتـا، ومدت رجلها قليلاً أمامها وكانت تنتعل خفّاً مطرّزاً.

قطب فيليب جبينـه. وقال: صـوفيا، أرجـوك، نحن في صدد مناقشة أمور عائليّة خاصة جداً.

صدر صوت من إبرتي الحياكة في يدي الآنسة دوهاڤيـلاند. هممت بـالاعتذار والانسحـاب. منعتني صوفيـا وقالت بصـوت واضح واثق:

ـ أنـا وتشارلـز ننوي الـزواج. وأنا أريـده أن يحضر هـذا الاجتماع.

صرخ روجر: ولماذا تقـول ذلك يـا فيليب؟ ونهض عن مقعده بسرعة مفاجئة:

ـ لقد قلت لك مراراً أن هذا الموضوع ليس موضوعاً عائليـاً خاصاً! العالم كله سوف يعرفه غداً أو بعد غد. على أية حال يا عزيزي. وتقدم نحوي ووضع يده برفق على كتفي:

ـ أنت تعرفه جيداً. كنت موجوداً هناك هذا الصباح.

قـالت ماجـدة بصوت عـال: أخبرني، مـاذا يوجـد في مقـرّ سكوتلاند يارد؟ إنني أتساءل دائماً حـول ذلك. طـاولة؟ مكتب؟ مقاعد؟ أي نوع من الستائر؟ لا توجد أزهار، على ما أظن؟ آلـة تسجيل؟

قـالت صوفيـا: لا داعي لذلـك يا أمي، وأنت عـلى أي حـال

طلبتِ من ڤاڤور جونز أن يلغي الفصل الذي يتعلّق بسكوتلاند يارد. قلتِ له أنه مبتذل.

قالت ماجدة: وهو يجعل المسرحية تبدو وكأنها مسرحية بوليسية، لكن إيديث تومبسون دراما سيكولوجية... أو أنها مسرحية سيكولوجية تثير الرعب... أي صفة أفضل؟

سألني فيليب بحدّة: كنت موجوداً هناك هذا الصباح؟ لماذا؟ آه، أجل، والدك...

وقطب جبينه، فأيقنت أن وجودي غير مرغوب فيه على الإطلاق، لكن يد صوفيا شدّت بقوة على ذراعي.

قدمت لي كليمنسي مقعداً قائلة: أرجوك تفضل بالجلوس.

نظرت إليها بامتنان وجلست.

قالت الآنسة دوهاڤيلاند: تستطيعون أن تقولوا ما يحلو لكم... وكانت على ما يبدو تتابع الحديث الذي توقف فجأة:

ـ لكنني أعتقد أننا يجب أن نحترم رغبة أريستيد. حين تنتهي مشكلة الوصية، سوف أضع ما أرثه تحت تصرفك يا روجر.

شدّ روجر شعره بغضب صرخ قائلاً: لا يا خالتي إيديث. لا!

قال فيليب: أتمنى لو أستطيع أن أقول ذلك أيضاً، لكنني مضطر لأخذ عدة عوامل بعين الاعتبار...

ـ يا عزيزي فيليب، أرجوك أن تفهم، لن آخذ قرشاً من أحد.

تدخلت كليمنسي وقالت بحدّة: لن يقبل ذلك طبعاً.

قالت ماجدة: على أي حال يا خالتي إيديث، عندما تتم

تسوية مشكلة الوصية فإنه سيحصل على إرثه الخاص.

سأل أوستاس: لكن من الصعب معالجة الوضع في الوقت المناسب، أليس كذلك؟

قال له فيليب: أنت لا تعرف شيئاً حول هذا الموضوع يا أوستاس.

قال روجر: الصبي معه حق. لقد وضع إصبعه على النقطة الحساسة. لا شيء يمنع الانهيار الآن. لا شيء.

قال ذلك وكأنه يجد فيه لذة.

قالت كليمنسي: ليس هناك بالفعل موضوع لنناقشه.

قال روجر: على أي حال، وما أهمية ذلك؟

ـ كنت أعتقد أن له أهمية كبيرة... قال فيليب ذلك وهو يشد على شفتيه.

ردّ روجر: لا. لا! وهل يكون أي موضوع مهماً بالمقارنة مع وفاة والدنا؟ والدنا مات! ونحن نجلس الآن لنناقش أموراً مالية!

توردت وجنتا فيليب الشاحبتين وقال بحدة: نحن نحاول مساعدتك فقط.

ـ أعرف ذلك يا عزيزي فيليب، أعرف ذلك. لكن لم يعد باستطاعة أحد أن يفعل شيئاً. لذلك دعنا ننته من هذه المناقشة.

قال فيليب: أعتقد أنني أستطيع تجميع مبلغ معين. سندات التأمين خسرت الكثير من قيمتها وهناك قسم من رأس المال لا أستطيع أن أحصل عليه: هناك حصة ماجدة وغيرها... لكن...

قالت ماجدة بسرعة:

ـ أنت بالتأكيد لا تستطيع تجميع أيّ مبلغ يا حبيبي. من السخافة حتى أن تحاول... وهذا ليس في صالح الأولاد.

صرخ روجر قائلاً: لا أريد شيئاً من أحد! بُحّ صوتي وأنا أقول لكم ذلك. أشعر بالراحة لأن الأمور تأخذ مجراها الطبيعي.

قال فيليب: الأمر يتعلق بالمكانة الاجتماعية. مكانة والدنا. ومكانتنا.

ـ هذا الموضوع ليس عائلياً. إنه يخصني لوحدي.

ـ أجل... قال فيليب وهو ينظر إليه: إنه يخصك وحدك.

وقفت إيديث دوهافيلاند وقالت: أعتقد أننا تناقشنا ما فيه الكفاية.

في صوتها نبرة سلطة أصيلة لا تزال تحتفظ بفعاليتها.

وقف فيليب وماجدة. ترك أوستاس الغرفة بخطوات بطيئة ولاحظت التصلّب في مشيته. إنه لا يعرج؛ لكنه يتريث قليلاً قبل كل خطوة.

شبك روجر ذراعه بذراع فيليب وقال له: لقد أخطأت يا فيليب حتى بالتفكير في أمر كهذا!

وخرجا معاً.

تمتمت ماجدة: يا لها من مشكلة مزعجة! وتبعتهما، وقالت صوفيا أنها ستباشر بإعداد غرفة لي.

وقفت إيديث دوهافيلاند توضّب ما تحوكه. نظرت إليّ

فاعتقدت أنها تريد التحدث معي. كانت نظرتها توحي بما يشبه الرجاء. لكنها غيرت رأيها، تنهدت وتبعت الآخرين.

توجهت كليمنسي إلى إحدى النوافذ ووقفت تتأمل الحديقة. تقدمت منها ووقفت بجانبها. أدارت رأسها قليلاً نحوي. وقالت: أخيراً انتهى هذا الاجتماع، وأضافت بامتعاض: يا لها من غرفة غير معقولة!

- ألا تعجبك؟

- أجد نفسي عاجزة عن التنفّس فيها. تفوح في أرجائها دائماً رائحة زهور نصف ذابلة ورائحة الغبار.

إنها بدون شك لا تحكم على الغرفة بشكل عادل. لكنني أدركت ما ترمي إليه. كانت الغرفة بالتأكيد غرفة ذات طابع خاص.

إنها غرفة امرأة، غريبة وناعمة وبعيدة عن تقلبات الطقس في الخارج. ليست غرفة يشعر فيها الرجل بالراحة لفترة طويلة. ليست مكاناً يستطيع فيه الرجل أن يتراخى ويقرأ صحيفة ويدخن غليوناً ويرفع رجليه قليلاً. لكني مع ذلك كنت أفضلها على غرفة كليمنسي في الطابق العلوي التي جعلتها صورة مجردة عن مشاعرها. إنني أفضل على العموم المخدع على المسرح.

قالت وهي تنظر حولها: هذا مجرد ديكور مسرحيّ. مكان تلعب فيه ماجدة أدوارها.

نظرت إليّ وقالت: أنت لاحظت بدون شك ماذا كنا نفعل. هذا هو الفصل الثاني: خلوة عائلية. ماجدة هي التي أعدّت

للاجتماع الذي لم يكن له أيّ معنى. لم يكن عندنا ما نناقشه، أو نتحدث عنه. كل شيء انتهى.

لم تكن في صوتها نبرة حزينة، بل تدل على الرضى. انتبهت لنظرتي.

ـ آه، الا تفهم الوضع؟ قالت بفارغ صبر: صرنا أحراراً... أخيراً! ألا تستطيع أن تفهم أن روجر كان بائساً... بائساً للغاية... منذ سنوات! لم تكن لديه المقدرة لممارسة العمل التجاريّ. إنه يحب الأحصنة والأبقار ويحب الحياة في الريف. لكنه كان مولعاً بوالده... كما كان سائر أفراد الأسرة. هذه نقطة الضعف في هذا البيت... هناك الكثير من الشعور العائلي. لا أقصد بذلك أن الرجل العجوز كان طاغية، أو أنه حاول السيطرة عليهم، أو إجبارهم على قرارات معينة. إنه لم يفعل ذلك. كان يمنحهم المال والحرية. كان يكرس حياته لأجلهم. وهم كانوا يكرسون حياتهم لأجله.

ـ وهل هناك عيب في ذلك؟

ـ أعتقد ذلك. حين يكبر أولادك يجب أن تبتعد عن طريقهم، تمحو نفسك، تتسلّل بعيداً وتجبرهم على نسيانك.

ـ أجبرهم؟ هذا إجراء قاس ، أليس كذلك؟ أليس الإلزام عملاً سيئاً إذا كان في هذا الاتجاه أو ذاك؟

ـ لو أنه لم يجعل من نفسه تلك الشخصية...

ـ لا يستطيع الإنسان أن يجعل نفسه شخصية. السيد ليونيدس كان شخصية.

ـ كان روجر يعتبره شخصية فذة. وكان مولعاً به. كان يرغب في القيام بأي عمل يريده والده أن يقوم به، وكان يرغب

أن يكون إبناً كما يريده والده أن يكون. لكنه لم يستطع ذلك. ترك له والده شركة التعهدات المتحدة... وكانت الشركة التي يتباهى بها الرجل العجوز، وحاول روجر جاهداً أن يتتبع خطوات والده. لكنه لم يكن يتمتع بتلك المقدرة. فيما يخص الأمور التجارية أقول بصراحة أن روجر... غبي. وإحساسه بالفشل كاد يحطمه. منذ سنوات وهو يعيش في حالة بائسة، يجاهد بدون جدوى وهو يرى الأوضاع تتدهور، تخطر له فجأة أفكار وأساليب رائعة، لكنها كانت دائماً تفشل وتجعل الأوضاع تزداد سوءاً. من المخيف أن يشعر الإنسان بالإخفاق سنة تلو الأخرى. لا تستطيع أن تتخيل إلى أيّ حد وصلت به التعاسة. أنا أعرف كيف كان يعاني.

والتفتت إلي ثانية وقالت: أنت قلت لرجال الشرطة أن روجر قد يكون قتل والده لأجل الحصول على المال! أنت لا تستطيع أن تتصور مدى سخافة هذه الفكرة.

قلت بتواضع: الآن تأكدت من ذلك.

– حيث عرف روجر أنه لم يعد بوسعه إنقاذ الأمور، وأن الانهيار التام آتٍ لا محالة، شعر بالارتياح. أجل، بالارتياح. كان قلقاً لأنه لم يكن يريد أن يعرف والده بما جرى... وليس لأي سبب آخر. كان يحلم بالحياة الجديدة التي يريد أن نعيشها.

ارتعش خداها قليلاً وصار صوتها ناعماً.

سألها: إلى أين كنتما تنويان السفر؟

– إلى باربادوس. توفي منذ مدة أحد أقربائي وترك لي ملكية صغيرة هناك... إنها بالفعل ليست شيئاً مهماً، لكنها مكان

نستطيع أن نلجأ إليه. سوف نعيش في فقر، لكننا سنتمكن من كسب عيشنا... كلفة المعيشة ليست كبيرة. المهم أننا سنكون معاً وبعيدين عن الهموم وعن كل شيء.

تنهدت: روجر سخيف لأنه يشعر بالقلق لأجلي... لأنني سأصبح فقيرة. أعتقد أن التعلّق بالمال راسخ في أعماقه مثل سائر أفراد عائلة ليونيدس. حين كنت مع زوجي الأول كنا نعيش في حالة فقر شديد... وروجر يتصور أن هذه شجاعة وأنني كنت رائعة! إنه لا يدرك أنني كنت سعيدة... سعيدة حقاً! لم أعرف سعادة مماثلة منذ ذلك الحين. ومع ذلك... أنا لم أكن أحب ريتشارد مثلما أحب روجر.

أغمضت عينيها نصف إغماضة. كانت في حالة انفعال شديد. ثم فتحت عينيها ونظرت إلي وقالت: وهكذا صرت تعرف الآن أنني لا أقتل من أجل المال. أنا لا أحب المال.

من المؤكد أنها كانت تعني تماماً ما قالت. كليمنسي ليونيدس كانت من مجموعة نادرة من الناس الذين لا يهمهم المال. إنهم يبغضون الثراء ويفضلون التقشف على الرفاهية، ويتضايقون من التملّك. لكن هناك العديد ممّن لا يعنيهم المال، لكنهم يقعون تحت إغراء القوة التي يمنحها.

قلت لها: ربما لا تريدين المال لنفسك... لكن المال الذي يستخدم بوعي يستطيع تنفيذ مشاريع كثيرة. يستطيع أن يموّل الأبحاث العلمية مثلاً.

كنت أتصور أن كليمنسي متحمسة جداً لعملها، لكنها اكتفت بالقول: إنني أشك أن تكون للتبرعات أو للهبات قيمة كبيرة، وغالباً ما يُصار إلى إنفاقها بأسلوب خاطىء. الإنجازات التي لها أهميتها يحرزها عادة من يعمل باندفاع وحماس... ويتمتع

برؤيا سليمة. إن المعدات الباهظة الثمن والتدريب والتجريب لا يعطي نتيجة دائماً كما تتخيل؛ والمال غالباً ما يكـون بين أيـدي أشخاص يسيئون استخدامه.

ـ ألا تمانعين في ترك عملك حين تسافرين إلى الباربـادوس؟ أعتقد أنك تواصلين عملك الآن، أليس كذلك؟

ـ آه، طبعاً. حين يسمح لي رجال الشرطـة بذلـك. لكنني لن أمانع في ترك عملي. ولماذا أمانع؟ أنا أتضايق من البطالـة فقط، ولا أعتقد أنني سأكون عاطلة عن العمل في الباربادوس.

وأضافت كأنها تكاد تفقد صبرها:

ـ آه، لـو أن هـذه القضيــة تنتهي بسرعـة حتى نتمكن من السفر.

ـ كليمنسي، هل عندك أيّ تصوّر عن الشخص الذي ارتكب هذه الجريمة؟ إذا افترضنا أنك أنت وروجر لا علاقة لكما بهـا (وأنا بالفعـل لا أجد أي سبب يجعلني أفكـر بعكس ذلك)، من المؤكّد أن تفكيرك الذكّي جعلك تتوصلين إلى تكوين فكرة معينـة عن شخصية الفاعل؟

نظرت إليّ نظرة غريبة، نظـرة جانبيـة وثاقبـة. وحين تكلمت تغيّر صوتها ولم يعد عفوياً، بدا غريباً ومرتبكاً.

ـ التخمـين أسلـوب غـير علمي. لكنني أعتقـد أن بـرينـدا ولورانس هما الوحيدان اللذان تدور الشبهة حولهما.

ـ أنت تعتقدين إذاً أنهما شريكان في ارتكاب الجريمة؟ هزّت كليمنسي كتفيها.

ظلّت واقفـة وكأنهـا تسمع صـوتاً، ثم خـرجت من الغرفـة، والتقت بإيديث دوهافيلاند وهي تدخل.

تقدمت إيديث نحوي مباشرة. وقالت: أريد أن أتحدث إليك.

أخذت أستعيد ما قاله لي والدي. هل هذا... لم تترك لي مجالاً لمواصلة التفكير، فقالت: أتمنى أن لا تكون قد أخذت انطباعاً خاطئاً عن فيليب. تصرّفات فيليب يصعب فهمها. قد يبدو لك بارداً ومتحفظاً، لكنه ليس كذلك على الإطلاق. هذا مجرد سلوك خارجي، لا يستطيع التخلّص منه.

ـ إنني بالفعل لم أفكر...

وقاطعتني لتقول: وما حدث الآن... عن روجر. إنه ليس حاقداً. ليس روجر من الذين يركضون وراء الثروة. وهو بالفعل طيب القلب... كان دائماً طيباً... لكنه بحاجة لمن يفهمه.

نظرت إليها كأنني أتفهم ما تقول.

تابعت كلامها قائلة: قد يكون لشخصية فيليب هذه علاقة بكونه الطفل الثاني في العائلة. الطفل الثاني يبدأ حياته من موقع ضعف. كان مولعاً بوالده، كما تعرف. وبالطبع كلّ الأولاد كانوا مولعين بأريستيد وهو كان مولعاً بهم أيضاً. لكن روجر كانت له مكانة مميزة عند والده، لأنه الابن الأكبر. وأعتقد أن فيليب كان يدرك ذلك؛ أخذ يتراجع تدريجياً ليعيش في عزلة. بدأ يحب الكتب خاصة التاريخية منها وكأنه يريد كلّ ما يبعده أكثر عن الحياة اليومية. أعتقد أنه كان يعاني... الأطفال يعانون...

سكتت قليلاً، ثم قالت: أريد أن أقول أنه كان يغار من روجر. ربما لا يغار منه بشكل واع. لكنني أعتقد أن الخسارة التي مني بها روجر... مع أن ما سأقوله سيبدو فظيعاً وأنا متأكدة أن فيليب لم يفكر فيه مباشرة... أعتقد أن فيليب ليس

متأثراً لوضع أخيه كما يجدر به أن يكون.

ـ تعنين أنه مسرور إلى حدّ ما لأن روجر بدا غبياً أمام الجميع.

ـ أجل. هذا ما أعنيه تماماً. ثم عبست قليلاً وأضافت: إنني متضايقة جداً لأنه لم يعرض المساعدة على أخيه مباشرة.

ـ ولماذا يفعل ذلك؟ روجر بالفعل أساء التصرّف. إنه رجل ناضج، ولم يعد طفلاً. لو أنه كان مريضاً أو في حاجة فعلية للمساعدة، كان أفراد العائلة سيمدون له يد العون... لكنني واثق أن روجر يفضّل أن يبدأ حياة جديدة يتّكل فيها على نفسه فقط.

ـ آه! بالطبع سيفعل ذلك. إنه لا يهتم إلّا لكليمنسي، وكليمنسي شخصية غريبة حقاً. إنها تحب فعلاً أن تكون غير مرتاحة وأن تكتفي بالقليل من المتاع. هذه وجهة نظر حديثة على ما أعتقد. إنها لا تهتم أبداً بالماضي ولا بالجمال. شعرت أن عينيها اللتين يتألق فيهما الذكاء تتأملانني بحدّة.

هذه محنة مخيفة لصوفيا، ومن المؤسف أن تتعرض لها وهي في بداية شبابها. إنني أحبهم جميعاً، كما تعرف. روجر وفيليب، والآن صوفيا وأوستاس وجوزفين. جميعهم أطفال عزيزون عليّ. إنهم أطفال مارسيا. أجل، أحبهم كثيراً. وسكتت قليلاً ثم أضافت.. لكن انتبه: هذا أعبده...

واستدارت بحركة مفاجئة ومشت نحو الباب. شعرت أنها تعني شيئاً محدّداً بملاحظتها الأخيرة لكنني لم أفهم قصدها.

١٥

قالت صوفيا: غرفتك جاهزة.

وقفت بجانبي تنظر إلى الحديقة، التي بدت كئيبة ومكشـوفة بأشجارها نصف العارية التي تتلاعب بها الرياح.

ردّدت صوفيا صدى أفكاري وهي تقول: كم تبدو موحشة...

وفيمـا كنا واقفـين رأينا شخصـاً، ثم رأينـا شخصـاً آخـر يعبـران الفسحـة في السـور في طـريق عـودتهمـا من حـديقـة الصخـور. كانـا رمـاديـين ومن الصعب تمييـزهمـا في الضـوء الشاحب.

بعد قليل تبين لنا أن بريندا ليونيدس هي التي رأيناها أولاً. كانت تلفّ حول جسمها معطفاً رمـادياً من الشنشيلّـلا، وتمشي خلسة، جسدها يتلوى في العتمة برشاقة ملفتة.

تأملت وجهها وهي تمرّ قرب النـافذة. عـلى شفتيها ارتسمت ابتسامة نحيلة، تلك الابتسامة التي رأيتها في الطابق العلـوي. بعدها بقليل اقترب لـورانس براون، بـدا نحيلاً ومنكمشـاً وهو يتسلّل في العتمة. لا يبدو عليهما أنهما كانـا راجعين من نـزهة؛ كـانا يثـيران الشك والـريبة وهمـا يتسلّلان إلى البيت كـأنهما شبحان.

تساءلت ما إذا كان الغصن انكسر تحت قدم بريندا أو لورانس.

وبسياق طبيعي لأفكاري، سألت صوفيا: أين جوزفين؟

قالت عابسة: أعتقد أنها مع أوستاس في غرفة الدرس. إنني قلقة بشأن أوستاس يا تشارلز.

ـ لماذا؟

ـ لأنه متقلّب المزاج وتصرفاته غريبة. تغيّر كثيراً بعد إصابته بالشلل. لا أستطيع أن أفهم بماذا يفكر. يبدو أحياناً وكأنه يكرهنا جميعاً.

ـ هذه مجرد مرحلة عابرة، وسيتمكن من اجتيازها.

ـ أعرف ذلك، لكنني أشعر بالقلق لأجله.

ـ ولماذا يا حبيبتي؟

ـ قد يكون ذلك لأنني أشعر بأن أبي وأمي لا يهتمان ولا يتصرفان كأنهما أب وأم.

ـ قد تكون لهذا الوضع حسناته، لأن معظم الأولاد يعانون من تدخّل الأهل، أكثر مما يعانون من عدم تدخلهم.

ـ هذا صحيح. هل تعرف أنني لم أفكر في علاقتهما إلّا بعد رجوعي من الخارج، إنهما بالفعل مختلفان. أبي يعيش في عالم من المتاهات التاريخية الغامضة، وأمي تستمتع بابتكار المشاهد المسرحية. الاجتماع الأحمق الذي عقد هذا المساء كان فكرة أمي. لم يكن له مبرر. كانت تريد أن تلعب دوراً في مشهد يدور حول خلوة عائلية. إنها تشعر بالملل أحياناً وتحاول أن تبتكر لنفسها مشاهد درامية.

ومرت لحظة تخيلت فيها والدة صوفيا وهي تضع السمّ لحميها العجوز باستهتار من أجل أن تتمتع بمشاهدة دراما فيها جريمة قتل على الطبيعة يكون لها الدور الرئيسي فيها.

يا لها من فكرة مثيرة! لم أعد أفكر فيها... لكنني شعرت بشيء من القلق.

قالت صوفيا: يجب مراقبة أمي طوال الوقت. لا أحد يعرف بماذا تفكر!

قلت لها بحدّة: إنسي عائلتك يا صوفيا.

ـ أودّ ذلك فعلاً، لكنه صعب في الوقت الحالي. كنت سعيدة في القاهرة لأنني نسيتهم هناك.

تذكرت أن صوفيا لم تكن تشير إلى عائلتها أو إلى بيتها في لقاءاتنا. وسألتها: لهذا السبب كنت تتحاشين الكلام عنهم؟ لأنك تريدين نسيانهم؟

ـ أعتقد ذلك. كنا نعيش في حالة تقارب والفة. كلّ واحد منا شديد التعلّق بالآخرين. عائلتنا لا تشبه تلك العائلات التي يتبادل أفرادها الكراهية والحقد. قد يكون وضع تلك العائلات سيئاً، لكن الحياة ليست سهلة أيضاً في ظلّ علاقات وجدانية متشابكة ومتناقضة.

ثم أضافت: أعتقد أنني كنت أقصد هذه الحالة حين قلت أننا نعيش في بيت صغير أعوج. لم أكن أقصد بالإعوجاج المعنى السيء. كنت أفكر أننا لم نكبر فيه وعندنا إحساس بالاستقلالية، ونحن قادرون على تحمل المسؤولية لنقف منتصبين. كلّ واحد منا يعاني من اعوجاج أو التواء...

تخيلت إيديث دوهافيلاند وهي تسحق النبتة الصغيرة

بقدمها حين قالت صوفيا: كالنباتات المتسلّقة...

وفجأة دخلت ماجدة الغرفة، فتحت الباب بقوة، وقالت بصوت مرتفع: يا عزيزيّ، لماذا لا تضيئان المصابيح؟ الغرفة معتمة.

وأضاءت المصابيح التي انتشرت على الجدران وعلى الطاولات، وقمت وإياها وصوفيا بإسدال الستائر الوردية السميكة، وانتقلنا بذلك إلى الجو العابق بالزهور وماجدة ارتمت على الكنبة وقالت:

ـ يا له من مشهد فظيع، أليس كذلك؟ كان أوستاس متضايقاً. قال لي أن ما جرى كان معيباً. الصبيان غريبو الأطوار!

تنهّدت.

ـ روجر أليف. إنني أحبه وهو يعبث بشعره ويصطدم بالأشياء من حوله. ألم تكن إيديث لطيفة حين عرضت عليه إرثها؟ كانت تعني ذلك فعلاً، لم تكن تسجّل موقفاً فقط. لكن المبادرة غبية فعلاً... لأنها كانت ستجر فيليب لكي يعتقد أن واجبه أن يفعل الشيء نفسه أيضاً! إيديث بالطبع مستعدة لأن تقدم أيّ شيء من أجل العائلة! يتميز حبّ المرأة غير المتزوجة لأولاد أختها بحنان عميق. سوف ألعب دور الخالة المخلصة ذات يوم، الخالة الفضولية والعنيدة والمتفانية في سبيل أولاد أختها.

ـ لا شك أنها عانت كثيراً بعد وفاة أختها، قلت ذلك رافضاً الخوض في نقاش حول أحد أدوار ماجدة. وتابعت أقول: أعني بسبب كراهيتها لليونيدس العجوز.

قاطعتني ماجدة قائلة: كانت تكرهه؟ من قال لك ذلك؟ هذا هراء. كانت مغرمة به.

قالت صوفيا: أمي!

ـ لا تحاولي المعارضة يا صوفيا. من الطبيعي لفتاة في سنّك أن تعتبر الحب شاباً وسيماً يقف مع فتاة جميلة في ضوء القمر.

قلت لها: هي التي أخبرتني ذلك. قالت لي أنها كانت تكرهه منذ البداية.

ـ ربما كانت تكرهه حين جاءت لتقيم هنا. كانت ساخطة على أختها لأنها تزوجته. ويبدو أن العداء ظل موجوداً بنسبة معينة... لكنها كانت في الوقت نفسه تحبه! يا حبيبتي، أنا واثقة مما أقول! إنه بالطبع لم يفكر في الزواج منها وهي أخت زوجته المتوفاة، وأعتقد أنه لم يفكر في ذلك أبداً... وهي أيضاً لم تفكر في ذلك على الأرجح. كانت سعيدة برعاية الأولاد، وبالتخاصم معه. لكنها لم تكن مرتاحة حين تزوج بريندا، لم تكن مرتاحة أبداً.

قالت صوفيا: وأنت وأبي كان لكما الموقف نفسه أيضاً.

ـ لا، نحن بالطبع كرهنا ذلك الزواج! وهذا طبيعي! لكن إيديث كانت تكرهه أكثر منا. يا حبيبتي، رأيتها ترمق بريندا بنظرات...!

قالت صوفيا: أمي، أرجوك.

رمقتها ماجدة بمحبة وبإحساس طفيف بالذنب، نظرتها تشبه نظرة طفل مدلل وخبيث. تابعت كلامها وغيرت الموضوع دون أن يكون هناك رابط بينه وبين الموضوع السابق.

ـ لقد قررت أن أرسل جوزفين إلى المدرسة.

ـ جوزفين؟ إلى المدرسة؟

ـ أجل. إلى سويسرا. سوف أجري اتصالاتي غداً. إنني أفضل أن تسافر في أسرع وقت. وجودها هنا في هذه الظروف له أثر سيء عليها. صارت أكثر اكتئاباً. إنها بحاجة لأولاد آخرين في سنّها. بحاجة لأن تعيش حياة المدرسة. كنت دائماً أقول أن هذا أفضل لها.

قالت صوفيا ببطء: لم يكن جدي يريدها أن تذهب إلى المدرسة. كان يعارض ذلك بشدة.

ـ العجوز الحبيب كان يريدنا جميعاً حوله. حين يكبر الإنسان في السنّ يصبح أنانياً. الطفل يجب أن ينشأ بين أطفال مثله. وسويسرا مناخها صحي... جميع أنواع الرياضة الشتوية، والهواء النقي، والطعام هناك أفضل بما لا يقاس ممّا نتناول هنا!

سألتها: أليس من الصعب ترتيب مسألة السفر إلى سويسرا الآن بالنسبة للإجراءات المالية المفروضة؟

ـ غير صحيح، يا تشارلز. هناك طريقة خاصة لدفع التكاليف... أو يصار إلى التبادل مع ولد سويسري... هناك وسائل مختلفة. رودولف ألستير يقيم في لوزان. سوف أرسل له غداً برقية لكي يقوم بالترتيبات اللازمة. ستكون جاهزة لكي تسافر في نهاية الأسبوع!

ضربت ماجدة بيدها على وسادة، وابتسمت لنا، ثم توجهت نحو الباب وتريثت قليلاً هناك وهي تنظر إلينا بطريقة هادئة وساحرة.

قالت: الشبان فقط يستحقون الاهتمام. بدت الكلمات جميلة وهي تلقيها. وتابعت: يجب أن يكون لهم المقام الأول. ويا عزيزيّ انتبها للأزهار... الأزهار الزرقاء، والنرجس...

ـ في تشرين الأول/ أكتوبر؟ سألتها صوفيا، لكن ماجدة كانت قد خرجت.

تنهدت صوفيا بعمق وبصوت مسموع. وقالت: حقاً، أمي متعبة! تخطر لها أفكار مفاجئة وتبدأ بإرسال آلاف البرقيات ويجب أن تترتب جميع الأمور في وقت قصير. لماذا تريد الإسراع في إرسال جوزفين إلى سويسرا بهذه الطريقة؟

ـ أعتقد أن الحق معها فيما يخص قضية المدرسة. جوزفين ستكون سعيدة بين أطفال في مثل سنّها.

قالت صوفيا بعناد: جدي كان رأيه مخالفاً لذلك.

شعرت بشيء من التوتر.

ـ يا عزيزتي صوفيا، هل تعتقدين حقاً أن رجلاً عجوزاً تجاوز الثمانين يستطيع أن يكون أفضل حكم يقرّر مصلحة طفل؟

ـ كان أفضل حكم لجميع المقيمين في هذا البيت.

ـ أفضل من خالتك إيديث؟

ـ لا، لا أعتقد ذلك. كانت خالتي تؤيد فكرة المدرسة. إنني أعترف بأن تصرفات جوزفين صارت أكثر تعقيداً... صار التجسّس على الآخرين عادة بالنسبة لها. لكنني أعتقد أنها تلجأ إلى ذلك لأنها تريد أن تلعب دور المفتشة.

هل كان التفكير في مصلحة جوزفين هو الدافع لدى ماجدة

لاتخاذ قرارها المفاجىء؟ كانت لدى جوزفين معلومات حـول كل الأمور التي جرت قبل الجريمة والتي لم تكن بالطبـع تخصّـها. لا شك أن الحياة المدرسية السليمة والألعاب الكثيرة ستفيدها. لكنني كنت أستغـرب التسرع والإصرار في قـرار مـاجـدة... سويسرا بعيدة جداً.

■ ١٦٠ ■

قال لي والدي: دعهم يتحدثوا إليك.

كنت أحلق ذقني، صباح اليوم التالي، وأخذت أفكر إلى أي حدّ وصلت في تنفيذ نصيحة والدي.

إيديث دوهاڤيلاند تحدثت إليّ... هي التي بحثت عني لأجل ذلك. كليمنسي تحدثت إليّ (أو انني أنا الذي تحدثت إليها!). ماجدة قالت ما تريد بطريقتها... أي انني كنت أحد المتفرجين بالنسبة لها. صوفيا بالطبع تحدثت إليّ وكذلك المربية.

هل استفدت مما سمعته؟

هل كانت هناك كلمة مميزة أو جملة ملفتة؟

وهل كان في تلك الأحاديث دليل على وجود ذلك الغرور غير العادي الذي لفت والدي نظري إليه؟

لم أستطع أن أتبيّن ذلك.

الشخص الوحيد الذي لم يبد أي رغبة في التحدث إليّ في أي أسلوب وحول أيّ موضوع كان فيليب. أليس هذا غير اعتيادي؟ من المؤكد أنه يعرف أنني أرغب في الزواج من ابنته، ومع ذلك ظلّ يتصرّف وكأنني غير موجود في البيت. يبدو أنه

كان متضايقاً من وجودي. إيديث دوهافيلاند اعتذرت بالنيابة عنه. قالت أن هذا أسلوبه. كانت قلقة بشأن فيليب. لماذا؟

أخذت أركّز تفكيري حول والد صوفيا. إنه شخص مقموع بكلّ ما لهذه الكلمة من معنى. كان طفلاً تعيساً وغيوراً، شعر أنه مجبر على الإنطواء. لجأ إلى عالم الكتب... إلى الماضي بأحداثه التاريخية. برودته وتحفظه المتعمدان قد يخفيان وراءهما عاطفة جيّاشة. دافع الربح المادي من وفاة والده دافع غير مقنع... لم أفكر لحظة واحدة أن فيليب ليونيدس يقتل والده لأنه كان يريد مزيداً من المال. لكن قد يكون هناك سبب سيكولوجي عميق، يجعله يتمنى الموت لوالده. جاء فيليب إلى هذا البيت ليعيش مع والده، وبعد ذلك ونتيجة للغارة الجوية، جاء روجر... وكان فيليب مجبراً أن يرى يوماً بعد يوم أن روجر كان الإبن المفضّل عند أبيه... هل وصلت الأمور إلى هذا المأزق في عقله المعذّب. فلم يجد سبيلاً للراحة إلّا في موت والده؟ ولنفترض أن التهمة سوف توجه إلى أخيه الأكبر؟

روجر كان يعاني من ضائقة مالية... والشركة التي يديرها على حافة الإفلاس. وإذا كان فيليب لا يعرف شيئاً عن اللقاء الأخير الذي تمّ بين روجر ووالده، وعن عرض الوالد لتقديم المساعدة اللّازمة، هل كان في تلك الحالة مقتنعاً بأن دافع القتل قوي عند روجر وأن التهمة سوف توجه إليه مباشرة؟

هل الاتزان العقلي عند فيليب مضطرب لدرجة أن يرتكب جريمة قتل؟

جرحت ذقني بالموس وأخذت أشتم.

ما الذي أحاول أن أفعله؟

ألصق تهمة القتل بوالد صوفيا؟

يا له من إنجاز رائع! لم تطلب مني صـوفيا الحضـور لأجل ذلك.

أم كان لأجل ذلك؟ كانت استغـاثة صـوفيا تخفي أمـراً ما، أمراً لا أعرفه. إذا كانت تشك بأن والدها هـو القاتـل، لن تقبل في هذه الحالـة الزواج مني... لأن الشـك قد يتحـول إلى يقين. وبما أن صوفيا كانت ذكية وشجاعة، فإنها كانت تريد الوصول إلى الحقيقة، لأن الالتباس سوف يظل حاجزاً دائماً بيننا. إنهـا تحاول أن تقول لي: حاول أن تثبت أن هذا الأمـر المخيف الذي أفكر فيه ليس صحيحاً... وإذا افترضنا أنه صحيـح، اثبت لي صحته... كي أعرف الأسوأ وأواجهه!

هـل كانت إيـديث دوهاڤيـلانـد تعـرف، أو تشـكّ أن فيليب مذنب. ما الذي كانت تعنيه حين قالت: هذا الجانب أحبّه؟

وما الذي كانت تقصده كليمنسي حـين رمقتني بتلك النظـرة الغريبة عندما سألتها حـول من تدور شكـوكها، وأجـابتني أن لورانس وبريندا هما المشبوهان الواضحان.

جميع أفراد العـائلة يـريدون أن تـوجه التهمـة إلى بريـنـدا ولورانس، ويتمنون أن يكونا مذنبين، لكنهم لم يكونوا مقتنعـين فعلاً بأن بريندا ولورانس هما مرتكبا الجريمة...

وبالطبع قد يكون جميع أفراد العائلة مخطئين وقد يتبـين في النهاية أن لورانس وبريندا هما القاتلان. أو أن لـورانس وحده هو القاتل، بدون بريندا.

هذا أفضل الحلول.

انتهيت من معـالجـة الجـرح في ذقني، ونـزلت إلى الطـابق

السفلي لتناول الفطور وأنا عاقد العزم على لقاء لورانس براون في أسرع وقت ممكن.

كنت أرتشف فنجان القهوة الثاني حيث انتبهت أن هذا البيت الأعوج بدأ يترك أثره عليّ. فأنا أيضاً كنت أريد التوصل إلى الحلّ الذي يناسبني، وليس إلى الحلّ الصحيح.

بعد الفطور اجتزت القاعة وصعدت إلى الطابق العلوي. كانت صوفيا قد قالت لي أن لورانس يعطي درساً لأوستاس وجوزفين في الغرفة المخصصة لذلك.

وقفت قليلاً أمام باب جناح بريندا. هل أقرع الجرس، أو أدق الباب، أو أدخل مباشرة؟ قررت أن أعتبر هذا البيت بيتاً متكاملاً لعائلة ليونيدس وجناح بريندا ليس جناحاً خاصاً.

فتحت الباب ودخلت. كلّ شيء هادىء، ولا يبدو أن هناك أحداً في الداخل. على يساري كان الباب الذي يفضي إلى غرفة الجلوس مقفلاً. وعلى يميني بابان مفتوحان الأول يؤدي إلى غرفة النوم والثاني إلى الحمام الملاصق لها. عرفت أن هذا الحمام المجاور لغرفة أريستيد ليونيدس حيث كان يتم الاحتفاظ «بالأنسولين» و «الإيسرين».

انتهى رجال الشرطة من تحرياتهم هنا. دفعت الباب قليلاً وتسلّلت إلى الداخل كان من السهل جداً لأي شخص في البيت (أو من خارج البيت!) أن يصعد إلى الطابق العلوي ويتسلّل إلى داخل الحمام دون أن يراه أحد.

نظرت من حولي. كان الحمام مترفاً ببلاطه اللماع وحوضه الغائر. في أحد جوانبه مجموعة من الأدوات الكهربائية المختلفة: وعاء لتسخين المياه ومشواة وإبريق كهربائي...

و «طنجرة» كهربائية صغيرة، وأداة لتحميص الخبز... جميع ما يحتاجه خادم يسهر على راحة رجل عجوز. علقت على الحائط خزانة بيضاء صغيرة مطلية بالميناء. فتحتها. في داخلها أدوات طبية، نظارتان، ووعاء لغسل العين وقطّارة وقوارير صغيرة كتب عليها: «أسبرين»، مسحوق «البوريك»، صبغة «يود». ضمادات معقمة، الخ... وعلى رف آخر عدد من قوارير «الأنسولين»، وحقنتان، وقارورة كحول طبي. وعلى رف ثالث قارورة كتب عليها: «حبة أو حبتان أثناء الليل». على هذا الرفّ بالتأكيد كانت قطرة العين. كلّ محتويات الخزانة واضحة ومرتبة ويسهل على أي شخص أن يأخذ منها ما يريد للعلاج أو لارتكاب جريمة.

بإمكاني أن أفعل ما يحلو لي بالقوارير، ثم أخرج وأنزل إلى الطابق الأرضي ولن يعرف أحد أنني كنت في هذا الحمام. جميع هذه الاستنتاجات لم تكن جديدة بالطبع لكنها جعلتني أفكر بمدى صعوبة المهمة الملقاة على عاتق رجال الشرطة.

لا يمكن التوصل إلى معلومات مفيدة إلّا من المذنبين أنفسهم.

كان تاڤيرنر قد طلب مني أن أثير مخاوفهم، وقلقهم: دعهم يعتقدوا أننا سنتوصل إلى الحل قريباً. نريد أن نبقى دائماً في الصورة وبعد فترة سيحاول المجرم أن يتخلّى عن عزلته لكي يبدو أكثر ذكاء... وعندها نتمكن من القبض عليه.

لكن المجرم لم تصدر عنه أية ردة فعل على هذه الطريقة بعد.

خرجت من الحمام. لا أحد في الممر. اجتزت الممر وغرفة الطعام على يساري وغرفة النوم والحمام على يميني. في غرفة

النوم كانت إحدى الخادمات. باب غرفة الطعام مقفل. من داخل غرفة مجاورة سمعت صوت إيديث دوهافيلاند وهي تتحدث مع بائع السمك الذي لا يمكن الاستغناء عنه. هناك سلم لولبي يفضي إلى الطابق الأعلى. صعدت السلم. في هذا الطابق غرفة نوم إيديث وغرفة جلوس لها، وحمامان وغرفة نوم لورانس براون. وهناك سلم قصير يفضي إلى الغرفة الكبيرة المشيدة فوق القسم المخصّص للخدم، وهذه الغرفة هي غرفة الدرس.

تريثت قليلاً عند بابها. سمعت صوت لورانس براون، كان واضحاً وعالياً.

يبدو أن عادة جوزفين بالتجسس صارت معدية، لأنني بدون خجل التصقت بالباب وبدأت أسترق السمع لما يدور في الداخل.

كان لورانس يعطي الولدين درساً في التاريخ يتناول فيه إحدى مراحل الثورة الفرنسيّة.

استمعت إليه مدهوشاً. تفاجأت لأنني اكتشفت أن لورانس براون كان معلماً رائعاً.

لا أعرف لماذا أدهشني ذلك إلى هذا الحدّ. أريستيد ليونيدس كان يعرف كيف يختار الرجال لخدمته. بغض النظر عن ملامح الجبن المسيطرة عليه، كان لورانس موهوباً في إثارة الحماس والقدرة على التخيل عند تلميذه. مأساة «ترميدور»، واعتبار أتباع «روبسبيير» بأنهم خارجون على القانون، وروعة «باراس»، ومكر «فوشيه»... نابليون الجندي الشاب الفقير... جميع هذه الشخصيات كانت حقيقية وتنبض بالحياة.

سكت لورانس فجأة وطرح سؤالاً على أوستاس وجوزفين، طلب منهما أن يأخذا دورين لشخصيتين في المسرحية. لم يحصل على نتيجة جيدة مع جوزفين التي قرأت وكأنها مصابة بزكام حادّ، لكن أوستاس بدا مختلفاً وقد تخلّى عن مزاجيته الحادّة المألوفة. شارك في الدرس بذكاء وبحسّ تاريخيّ متميّز يبدو أنه ورثه عن أبيه.

تحركت المقاعد في الداخل، فنزلت بضع درجات على السلّم وتظاهرت أنني كنت أصعد حين انفتح الباب.

خرج أوستاس وجوزفين.

قلت: مرحبا.

أوستاس تفاجأ بحضوري.

سألني بتهذيب: هل تريد شيئاً؟

جوزفين لم تبد أيّ اهتمام بوجودي، انسلّت من خلفي.

قلت بحجة ضعيفة: أريد أن ألقي نظرة على غرفة الدرس.

ـ لكنك رأيتها من قبل، أليس كذلك؟ إنها غرفة للأطفال في الواقع، ولا تزال فيها مجموعة من الألعاب.

فتح لي الباب مفسحاً لي المجال في الدخول. لورانس براون كان واقفاً قرب الطاولة. رفع نظره إليّ، توردت وجنتاه، تمتم بكلمات غير مفهومة يردّ على تحية الصباح التي وجهتها له ثم خرج مسرعاً.

قال أوستاس: لقد أرعبته. إنه يخاف بسهولة.

ـ هل تحبه يا أوستاس؟

ـ آه! لا بأس به. وهو جبان بشكل فظيع.

ـ لكنه ليس أستاذاً سيئاً؟

ـ لا، بل هو أستاذ جيد. إنه مثير للاهتمام وعنده معلومات كثيرة. يجعلك ترى إلى الأمور من زاوية مختلفة. لم أكن أعرف أن هنري الثامن كان يكتب الشعر... إلى... أن بولين طبعاً... قصائد محتشمة وخفيفة الروح.

تحدثنا قليلاً حول قصيدة البحّار القديم والشاعر تشاوسر، والأهداف السياسية للحملات الصليبية، والظروف الاجتماعية التي كانت سائدة في القرون الوسطى، وقد فوجىء أوستاس حين أخبرته بأن أوليفر كرومويل كان قد حظر الاحتفال بعيد الميلاد. كان أوستاس يخفي وراء سوء طباعه واحتقاره للآخرين عقلاً واعياً ورغبة في الاستقصاء.

شعرت أنني بدأت أفهم سبب سوء طباعه. مرضه لم يكن مجرد محنة مخيفة بالنسبة له فقط، بل أدى إلى انطوائه وإحساسه بالحرمان، وهو في بداية الشباب يريد الاستمتاع بالحياة.

ـ لو أنني أذهب إلى المدرسة لكنت في الصف الحادي عشر هذه السنة... وكنت سأتخرج آخر السنة. من الصعب أن أتوقّف عن الدراسة وأن أكون مضطراً لأخذ دروس مع طفلة بلهاء مثل جوزفين. إنها في الثانية عشرة فقط!

ـ أجل، لكنكما لا تأخذان الدروس نفسها، أليس كذلك؟

ـ لا، هي لا تدرس الرياضيات المتقدمة... أو اللغة اللاّتينية. لكن ليس من السهل أن يكون لك مدرّساً مشتركاً مع فتاة.

حاولت أن أخفّف من الجرح الذي أصيبت به كبرياؤه

كرجل بالإشارة إلى أن جوزفين فتاة ذكية جداً بالنسبة لصغر سنّها.

ـ هل تعتقد ذلك؟ أنا أظن أنها غبية، وهي تهتم بشكل جنوني بالتحريات التي تقوم بها... تقحم أنفها في كلّ شيء وتسجل ملاحظاتها في دفتر أسود صغير مدعية أنها توصلت إلى معلومات هامة. ليست سوى طفلة بلهاء، هذه هي جوزفين، قال ذلك أوستاس بكبرياء، ثم أضاف:

على أي حال، لا تصلح الفتيات لمهنة التفتيش. قلت لها ذلك. أعتقد أن أمي معها حق وأنه من الأفضل لجوزفين أن تسافر إلى سويسرا في أسرع وقت.

ـ هل ستشتاق لها؟

قال بتعال: أشتاق لطفلة في هذا السن؟ بالطبع لا. يا إلهي، هذا البيت أسوأ مكان يعيش فيه الإنسان! أمي تمضي أوقاتها في لندن تحاول إقناع بعض كتاب المسرح بإعادة صياغة مسرحيات لها، وتضطرب كثيراً من أمور تافهة. وأبي غارق بين كتبه وفي بعض الأحيان لا يسمعني حين أتحدث إليه. لا أفهم ما الذي يجعلني أحتمل أبوين مثلهما. ثم هناك عمي روجر... إنه ينفعل دائماً حتى يقشعرّ بدنك. زوجة عمي كليمنسي لا بأس بها، إنها لا تزعج أحداً، لكن يتراءى لي أحياناً أنها مصابة بطرف جنون. خالتي إيديث طيبة جداً، لكنها كبيرة في السن. لقد تغيرت الأحوال وصارت أفضل مع مجيء صوفيا... مع أنها تكون قاسية في بعض الأحيان. لكن هذه العائلة غريبة الأطوار، ألا تعتقد ذلك؟

تصور أن زوجة جدي صغيرة في السن وقد تكون خالة لي أو أختاً كبرى. أعني أن هذا الوضع يجعلني أشعر أنني أحمق!

كنت إلى حدٍّ ما أفهم مشاعره. تذكرت (بغير وضوح) حساسيتي وأنا في سنّ أوستاس. خوفي أن أتصرف في أسلوب غير مألوف وكنت أتخيل أن جميع أقاربي لهم عيوبهم.

سألته: وجدك؟ هل كنت تحبه؟

بدا على ملامح وجه أوستاس تعبير غريب.

ـ جدي كان بالتأكيد رجلاً غير اجتماعي.

ـ من أية ناحية؟

ـ لم يكن يفكر إلاّ بالربح. يقول لورانس أن هذا خطأ. وكان جدي يحب العزلة. جميع هذه الأمور يجب أن يوضع لها حد الآن، ألا تعتقد ذلك؟

قلت بشيء من القسوة: صار ذلك ممكناً بعد موته.

ـ موته مريح فعلاً، لا أريد أن أكون عديم التأثر لكنني أظن أنه من الصعب على الإنسان أن يتمتع بحياته في مثل هذه السنّ!

ـ ألم يكن يتمتع بحياته؟

ـ لم يكن قادراً على ذلك. على أي حال آن الأوان لرحيله... كان...

سكت أوستاس حين دخل لورانس براون إلى الغرفة.

أخذ لورانس يعبث ببعض الكتب وشعرت أنه يراقبني بطرف عينه.

ألقى نظرة على ساعته وقال:

ـ أرجو أن تعودا عند الحادية عشرة يا أوستاس. لقد أضعنا وقتاً كثيراً في الأيام الماضية.

ـ حسناً يا سيدي.

مشى أوستاس ببطء نحو الباب وخرج وهو يصفر.

رمقني لورانس براون بنظرة حادة. رطب شفتيه مرة أو مرتين. كنت واثقاً أنه رجع إلى غرفة الدرس من أجل التحدث معي فقط.

بعد فترة من توضيب الكتب والإدعاء بأنه يبحث عن كتاب ضائع، قال لي:

ـ ما هي آخر أخبارهم؟

ـ ومن هم؟

ـ رجال الشرطة.

ارتعش أنفه مثل فأر وقع في المصيدة.

قلت: إنهم لا يصارحونني بنتائج تحرياتهم.

ـ آه. كنت أظن أن والدك مساعد مفوّض في سكوتلاند يارد؟

قلت: هذا صحيح، لكنه لا يبوح بأسرار تتعلق بعمله. قلت ذلك بمباهاة مقصودة.

ـ أنت لا تعرف إذاً كيف... ماذا... لو... وبعد تردّد سألني: هل سيلقون القبض على أحد؟

ـ ليس الآن على ما أعتقد. لكنني كما قلت لك لا أعرف.

كنت أثير قلقه كما نصحني المفتش تافيرنر. ويبدو أن لورانس براون كان مضطرباً بما فيه الكفاية.

ـ أنت لا تعرف من... الضغط... لا تعرف شيئاً... أعني

أنهم يأتون ثم يذهبون... يطرحون الأسئلة... أسئلة تبدو لا علاقة لها بالقضية...

سكت. انتظرت. إنه يريد أن يتكلم. حسناً، سوف أفسح له المجال.

ـ أنت كنت موجوداً حين أشار المفتش إلى تلك الفكرة البشعة؟ عن السيدة ليونيدس وعني أنا... كانت فكرة بشعة. جعلتني أشعر باليأس. يشعر الإنسان أنه عاجز عن منع الناس من التفكير بأمور معينة! وكلّها تخيلات خبيثة وغير صحيحة. فقط لأنها كانت أصغر من زوجها بسنوات عديدة. الناس لهم عقول مخيفة... عقول مخيفة. إنني أشعر... ولا أستطيع التغاضي عن شعوري هذا بأن هناك مؤامرة ضدنا.

ـ مؤامرة؟ هذه فكرة مثيرة.

كانت مثيرة فعلاً، لكن ليس من الزاوية التي ينظر منها.

ـ أنت تعرف أن أفراد عائلة ليونيدس لم يكونوا أبداً لطيفين معي. كانوا دائماً يتصرفون بكبرياء، مما جعلني أشعر بأنهم يكرهونني.

بدأت يداه ترتجفان.

ـ فقط لأنهم أغنياء... وأقوياء. كانوا ينظرون إلي بتعالٍ. من أكون بالنسبة لهم؟ مجرد معلّم. مجرّد معارض صاحي الضمير ومسكين. ومعارضتي كانت صادقة النية. كانت صادقة النية فعلاً!

لم أقل شيئاً.

قال بانفعال: حسناً، وإذا كنت أخاف؟ أخاف أن أزيد

الأمور سوءاً. أخاف أن أضغط على الزناد... قد لا أتمكن من فعل ذلك. كيف تتأكد أن الذي تقتله نازي؟ قد يكون شاباً طيباً... قروياً بسيطاً... ليست عنده ارتباطات سياسية لكنه مضطر لتلبية نداء وطنه للمشاركة في الحرب. أنا أؤمن بأن الحرب خطأ، هل تفهمني؟ أؤمن بأنها خطأ.

لم أتخل عن صمتي. كنت واثقاً أن صمتي يحقّق نتائج أكثر مما يستطيع أن يحققه النقاش والحوار. كان لورانس براون يحاور نفسه، وفي هذه العملية كان يكشف عن ذاته بدرجة كبيرة.

ارتعش صوته وهو يقول: الجميع يهزؤون بي. يبدو أنني بارع في إثارة سخرية الآخرين. أنا لا تنقصني الشجاعة... لكنني دائماً أخطىء التصرّف. دخلت مرة إلى بيت تشتعل فيه النيران لأنقذ امرأة قالوا أنها محتجزة في داخله. دخلت ولم أعد أعرف في أي اتجاه أتحرك وكاد الدخان يفقدني وعيي، وقد تعب رجال الإطفاء حتى عثروا عليّ. سمعت أحدهم يقول: لماذا لم يتركنا هذا الغبي نقوم بهذه المهمة؟ لم أعد أشعر حتى بالرغبة كي أغير نظرة الآخرين إليّ، لأن الجميع ضدّي. الذي قتل السيد ليونيدس أعدّ خطته بحيث توجه التهمة إليّ. الذي قتله يحاول أن يدمّر حياتي.

سألته: والسيدة ليونيدس؟

تورّدت وجنتاه. بدا أقلّ جبناً وأجاب كرجل واثق من نفسه:

ـ السيدة ليونيدس ملاك ـ ملاك. رقّتها وطيبتها في علاقتها مع زوجها العجوز كانت رائعة. إن مجرد التفكير بأن لها يداً بوضع السمّ يثير الضحك... يثير الضحك! وذلك المفتش القليل الفهم لا يستطيع رؤية ذلك!

قلت: إنه متحامل من كثرة القضايا في ملفّاته التي تقوم فيها الزوجات الشابات واللطيفات بوضع السم لأزواجهنّ.

ـ أحمق لا يُحتمل. قال لورانس براون غاضباً.

توجه إلى خزانة الكتب وأخذ يفتش بين الكتب. من الواضح أنني لن أستطيع الحصول على معلومات إضافية منه. تركته وغادرت الغرفة بهدوء.

كنت أجتاز الممر حين انفتح باب على يساري وخرجت منه جوزفين فجأة. كان ظهورها يشبه ظهور الشيطان المفاجىء في مسرحية قديمة. الوسخ يغطي وجهها ويديها وشبكة عنكبوت كبيرة تعلّقت بأذنها.

ـ أين كنت يا جوزفين؟

اختلست النظر من الباب المفتوح. درجات قليلة تفضي إلى فسحة تشبه العلية وفي العتمة رأيت مجموعة من التنكات الكبيرة.

ـ في غرفة خزان المياه.

ـ وماذا كنت تفعلين في غرفة خزان المياه؟

أجابت جوزفين بأسلوب رجال الأعمال المختصر:

ـ أقوم بتحرياتي.

ـ وما الذي يمكن التحري عنه بين خزانات المياه؟ وعلى سؤالي هذا اكتفت جوزفين بالردّ:

ـ يجب أن أغتسل.

ـ من الأفضل أن تفعلي ذلك.

دخلت جوزفين إلى أقرب حمّام. التفتت نحوي وقالت:

ـ أعتقدُ أنه آن الأوان لارتكاب الجريمة الثانيـة، الا تعتقد ذلك؟

ـ ماذا تقصدين بقولك: الجريمة الثانية؟

ـ في الكتب يتم ارتكاب جريمة ثانية بعد مـرور فترة ممـاثلة عـلى الجـريمـة الأولى. يُصـار إلى التخلص من شخص لـديـه معلومات هامة قبل أن يتمكن من البوح بها.

ـ أنت تقرئين الكثـير من الروايـات البوليسيـة يا جـوزفين. الحيـاة الواقعيـة ليست كذلـك. وإذا كان هنـاك في هذا البيت شخص يعرف شيئاً، فإن آخر ما يفكر فيه هو الكشف عمّا لديه من معلومات.

ردّت جوزفين بشكل غير واضح والمياه تندفع من الحنفية.

ـ في بعض الأحيـان يتعلّق الأمـر بشيء لا يعـرفـون أنهم يعـرفونـه. وقفت أفكـر في معنى كـلامهـا. ثم قـررت أن أتـرك جوزفين تتابع عملية الغسيل ونزلت إلى الطابق الثاني.

حـين وصلت إلى الباب وفتحتـه لأصـل إلى السلم، خـرجت بريندا على عجل من باب غرفة الجلوس.

اقتـربت مني ووضعت يـدهـا عـلى ذراعي، وهي تنظـر إلى وجهي مباشرة.

سألتني: هل هناك جديد؟

إنه السؤال نفسه الذي طرحه لورانس من أجـل معرفـة ما استجدّ، لكن الصيغة اختلفت قليلاً.

هززت رأسي. وقلت: لا شيء.

تنهدت بصوت مسموع.

ـ أنا خائفة جداً يا تشارلز. خائفة جداً.

كان خوفها حقيقياً. انتقل إليّ إحساسها في تلك المساحة الضيقة. أردت أن أطمئنها، أن أساعدها ومرة أخرى شعرت أنها تقف وحيدة بين أشخاص يكرهونها.

ربما تصرخ: من يقف إلى جانبي؟

وماذا سيكون الردّ؟ لورانس براون؟ ومن هو لورانس براون؟ ليس رمزاً للقوة في وقت الضيق، إنه يشبه الزورق الصغير. وتذكرت اثنين يشبهان زورقين صغيرين يتسلّلان من الحديقة في الليلة الماضية.

كنت أرغب في مساعدتها. أرغب فعلاً في مساعدتها. لكن ليس عندي الكثير لأقوله أو أفعله. وفي أعماقي إحساس بالذنب أربكني، كأن عيني صوفيا الهازئتين تراقبانني. تذكرت صوفيا وهي تقول لي: عرفت كيف تستميلك.

وصوفيا لم تكن ترى، ولا تريد أن ترى موقف بريندا. بريندا وحيدة ومتهمة بالقتل ولا أحد يقف إلى جانبها.

قالت بريندا: التحقيق الرسمي يبدأ غداً. ماذا... ماذا سيحدث؟

حاولت أن أخفّف عنها.

ـ لا شيء. لا داعي لأن تقلقي لهذا الشأن. سوف يتم التأجيل لكي يتسنى لرجال الشرطة القيام بالمزيد من التحريات. ومن المحتمل أن تنال الصحافة الإذن بالتحرك. حتى الآن لم تكن الصحف تشير إلى الحادثة إلاّ في إطار أن الوفاة كانت طبيعية. عائلة ليونيدس عندها نفوذ كبير، لكن مع تأجيل التحقيق الرسمي... حسناً، سيبدأ اللهو.

(يا لها من كلمات غريبة نستخدمها أحياناً! اللهو! لماذا اخترت هذه الكلمة بالذات؟).

ـ هل سيكونون فظيعين؟

ـ من الأفضل لك ألا توافقي على أية مقابلة. إسمعيني يا بريندا، يجب أن يكون عندك محام...

تراجعت قليلاً وهي تتنهد بخوف لا... لا... لم أكن أقصد ذلك. المحامي سوف يهتم لصلحتك وينصحك حين تبدأ الإجراءات الرسمية، ما يجب عليك أن تفعلي وتقولي وما يجب عليك ألّا تفعلي أو تقولي. وأضفت بعد قليل: أنت تواجهين الموقف وحيدة يا بريندا.

شدّت بيدها على ذراعي.

ـ أجل... أنت تتفهم وضعي. لقد ساعدتني كثيراً يا تشارلز... لقد ساعدتني فعلاً...

نزلت السلم يغمرني إحساس بالدفء والرضا... رأيت صوفيا واقفة عند الباب.

قالت بصوت بارد وعلى شيء من الجفاف: أمضيت وقتاً طويلاً في الطابق العلوي. لقد اتصلوا بك من لندن. والدك يريدك.

ـ في مركز سكوتلاند يارد؟

ـ أجل.

ـ ترى ماذا يريدون؟ ألم يقولوا لكِ؟

هزّت صوفيا رأسها والقلق بادٍ في عينيها. ضممتها إلى صدري.

ـ لا داعي للقلق يا حبيبتي. سأعود في أسرع وقت.

■ ١٧ ■

بدا التوتر يسود جو غرفة مكتب والدي. كـان والدي يجلس إلى مكتبه والمفتش تافيرنر ينحني عنـد عتبة النـافذة، والسيـد غايتسكيل يجلس على المقعد المخصّص للزوار وهو متكدّر.

كان يقول بمرارة: تصرف غريب لا ثقة فيه...

قـال والدي يحـاول تهدئتـه: بالطبـع، بالطبـع. آه، أهلاً يـا تشارلز، جئت في الوقت المناسب. لقد حدث تطور مفاجىء.

قال غايتسكيل: لم يسبق له مثيل.

لا شك أن حدثاً معيناً أثار انزعاج المحامي إلى هذه الدرجة. وقف المفتش تافيرنر خلفه وابتسم لي.

ـ هـل تسمـح لي بـأن أقـدم شرحـاً وجيـزاً؟ قـال والـدي، وأضاف: تلقى السيد غايتسكيل اتصالاً مفاجئاً هذا الصباح يا تشارلز. والاتصال كان من السيد أغرودوبولس، صاحب مطعم ديلفـوس. إنه رجـل عجوز، يـونـاني المـولـد، وكـان أريستيـد ليونيدس قد ساعده وهو شاب واتخذه صديقاً لـه. ظل السيـد أغرودوبولس وفياً لصديقه، معترفاً بجميله، ويبـدو أن أريستيد ليونيدس كان يعتمد عليه كثيراً وجعله موضع ثقته.

قال السيد غايتسكيل: من الصعب أن أصدق أن ليونيدس يتصرف على هذا النحو لأنه كثير الشكوك ويميل إلى التكتم على جميع أعماله. لكن يبدو أنه تقدم في السن... صار هرماً.

قال والدي بلطف: إنه تقارب نشأ بسبب الانتماء لوطن واحد. لأن الإنسان حين يكبر في السن يا سيد غايتسكيل يحاول أن يستعيد أيام شبابه وأصدقاء شبابه.

قال السيد غايتسكيل: لكنني كنت مسؤولاً عن أعمال ليونيدس ومشاريعه منذ أكثر من أربعين سنة. منذ ثلاث وأربعين سنة وستة أشهر على وجه التحديد.

ابتسم تافيرنر مرة ثانية.

سألته: وما الذي حدث؟

فتح السيد غايتسكيل فمه يريد أن يجيبني، لكن والدي سبقه وقال:

ـ قال السيد أغرودوبولس في مكالمته الهاتفية أنه ينفذ تعليمات صديقه أريستيد ليونيدس. باختصار كان السيد ليونيدس قد ائتمنه على مغلف مختوم، وكان المطلوب من السيد أغرودوبولس أن يقدمه للسيد غايتسكيل بعد وفاة السيد ليونيدس مباشرة. وفي حال توفي أغرودوبولس قبل السيد ليونيدس كان على الأول أن يضع المغلف في عهدة ابنه، الذي كان السيد ليونيدس عرّاباً له، وعلى ابنه أن ينفذ التعليمات نفسها. اعتذر السيد أغرودوبولس للتأخير لكنه قال أنه كان مريضاً ومصاباً بالتهاب رئوي وأنه لم يعرف بوفاة صديقه إلاّ بعد ظهر البارحة.

قال السيد غايتسكيل: هذه العملية بأسرها عملية غير مألوفة.

ـ وحين فتح السيد غايتسكيل المغلف واطّلع على محتوياته، قرر أن من واجبه...

قال السيد غايتسكيل مقاطعاً: في ظلّ الظروف الراهنة...

ـ أن يتركنا نطّلع على المغلّف بدورنا. والمغلف يضمّ وصية موقعة من صاحبها ومن شاهدين، ومعها رسالة.

قلت: وظهرت الوصية أخيراً.

توردت وجنتا السيد غايتسكيل وقال بانفعال:

ـ ليست الوصية نفسها. ليست الوثيقة التي أعددتها بناءً لتعليمات السيد ليونيدس. هذه الوصية كتبها السيد ليونيدس بخط يده، وهذا عمل خطير لا يقبل به أي رجل قانون. يبدو أن السيد ليونيدس كان ينوي أن يجعلني موضع استهزاء.

حاول المفتش تافيرنر أن يخفف قليلاً من المرارة السائدة.

قال: لقد كان رجلاً عجوزاً يا سيد غايتسكيل. والعجائز يصبحون متقلبي المزاج، كما تعرف... وهذا ليس جنوناً بالطبع، بل ميل إلى المغالاة في التصرّف.

تنهد السيد غايتسكيل.

قال والدي: اتصل بنا السيد غايتسكيل وأوجز لنا أهم ما ورد في الوصية، فطلبت منه الحضور ومعه الوثيقتان. واتصلت بك أيضاً يا تشارلز لكي تكون حاضراً معنا.

لم أفهم لماذا كان حضوري ضرورياً. بدا هذا التصرف غير مألوف من قبل والدي وتافيرنر معاً. كان بإمكانهما اطلاعي على الوصية في وقت لاحق، ولم أكن بالفعل مهتماً بالطريقة التي يوزع فيها العجوز ليونيدس تركته.

سألته: وهل هي وصية مختلفة؟ أعني هل تنصّ على توزيع التركة بأسلوب مختلف؟

كان والدي ينظر إليّ. والمفتش تافيرنر كان يتحاشى النظر إليّ. شعرت بأنني غير مرتاح...

كلّ منهما يفكر في أمر معين... أمر ليست لدي أية فكرة عنه.

نظرت إلى غايتسكيل متسائلاً وقلت: لا أريد أن أكون متطفلاً، لكن...

أجابني: إن نصّ وصية السيد ليونيدس ليس سرياً بالطبع. وأنا اعتبرت من واجبي أن أطلع المسؤولين في جهاز الشرطة عليها أولاً لكي أسترشد بنصائحهم بالنسبة للإجراءات اللاّحقة. لقد وصلني... (وسكت قليلاً) أن هناك تفاهماً بينك وبين الآنسة صوفيا ليونيدس؟

قلت: إنني أنوي الزواج منها، لكنها غير موافقة على الارتباط حالياً.

قال السيد غايتسكيل: موقف يتناسب مع الظروف السائدة.

لم أوافق معه. لكن الوقت غير مناسب للمناقشة.

قال السيد غايتسكيل: تنصّ الوصية الموضوعة بتاريخ التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، أن السيد ليونيدس بعد أن يخصّص لزوجته مبلغ مئة ألف باوند، يترك كل أملاكه المنقولة وغير المنقولة لحفيدته صوفيا كاترين ليونيدس.

تنفست بعمق. هذا ما لم أكن أتوقعه على الإطلاق.

- منح كل ثروته لصوفيا. هذا تصرف غريب. هل هناك أسباب توجبه؟

قال والدي: لقد أعطى الأسباب بوضوح في الرسالة. وتناول ورقة عن الطاولة أمامه: هل أنت موافق يا سيد غايتسكيل أن يقرأ تشارلز الرسالة؟

قال السيد غايتسكيل ببرود: أنا رهن إشارتك. الرسالة تقدم شرحاً لموقفه... وقد يكون الهدف منها (مع أنني أشك في فعاليتها) تقديم حجة تبرر هذا التصرف الغريب.

أعطاني والدي الرسالة. كانت مكتوبة بخط صغير تصعب قراءته وبحبر أسود قاتم. الخط يدل على قوة الشخصية وعلى التفرّد. أسلوبها لا يمت بصلة إلى الأسلوب المتعارف عليه، كأنها تعود إلى مرحلة سابقة حين كانت معرفة القراءة والكتابة يتم اكتسابها بجهد ولها قيمتها في كتابة الرسائل.

تقول الرسالة:

عزيزي السيد غايتسكيل:

سوف تتفاجأ حين تقرأ رسالتي هذه، وقد تتضايق منها. لكن ظروفاً خاصة أملت عليّ تصرفي هذا واللجوء إلى هذا الأسلوب المتكتم الذي قد تعتبره غير ضروري. كنت منذ البداية أؤمن بقدرة الفرد الذاتية. في العائلة (وهذا ما لاحظته في شبابي وما زلت متمسكاً به) هناك دائماً شخص قوي وغالباً ما تقع على عاتق هذا الشخص مسؤولية رعاية سائر أفراد الأسرة. في عائلتي كنت أنا ذلك الشخص. جئت إلى لندن وكوّنت نفسي هناك، وكنت المعيل الوحيد لأمي ولجدي وجدتي في سميرنا، وخلّصت أحد إخوتي من قبضة القانون، وساعدت أختي على الطلاق من زواج تعيس، إلى غير ذلك. وشاء الله أن يمنحني عمراً مديداً،

تمكنت خلاله من العناية بأطفالي وبأحفادي. عدد منهم خطفهم الموت؛ والباقون، أجد نفسي سعيداً حين أقول أنهم يعيشون تحت سقفي. حين أموت يجب أن يتحمل هذا العبء شخص آخر. فكرت في تقسيم ثروتي بنسبة عادلة بين أعزائي... لكن هذا الإجراء لن تنتج عنه المساواة المطلوبة. الناس ليسوا متساوين... والتلاعب بعدم المساواة الطبيعي والسائد ليس سهلاً. بكلام آخر، يجب أن أختار وريثاً لي، يتولى، أو تتولى، تحمل مسؤولية سائر أفراد الأسرة. بعد تفكير مطوّل وجدت أن أيّاً من ولديّ لا يصلح لتحمل هذه المسؤولية. إبني الحبيب روجر لا يفهم في الأعمال والمشاريع، ومع أنه ذو شخصية محبوبة لكن هذا يؤثر على سلامة قراراته. وابني فيليب ليست لديه ثقة في نفسه لكي يقوم بأي عمل ولذلك اختار العزلة. أوستاس حفيدي، لا يزال شاباً ولا أعتقد أنه يمتلك مميزات الحس والإدراك الضرورية. إنه بليد ويتأثر بسهولة بأي شخص يلتقي به. حفيدتي صوفيا هي الوحيدة التي تتمتع بالصفات المطلوبة. إنها ذكية، وتحسن اتخاذ قراراتها، وشجاعة، وتتمتع بعقل متوازن وعادل وأعتقد أيضاً أن لها روحاً سخية. بين يديها أضع رعاية شؤون العائلة... والعناية بأخت زوجتي إيديث دوهافيلاند، التي أكن لها تقديراً عميقاً لأجل تضحيتها التي قدمتها للعائلة.

هذا يفسّر الوثيقة التي تضمها الرسالة. والذي أجد صعوبة في تفسيره... أقصد في تفسيره بالنسبة لك يا صديقي العزيز... هو أسلوب الخداع الذي اتبعت. فكرت أن الحكمة تقتضي عدم الافصاح عن نيتي في التصرف بما أمتلك، ولم اكن أريد أن يعرف سائر أفراد العائلة أن صوفيا هي وريثتي. طالما أن ابنيّ نالا مبلغين كبيرين في السابق، لذلك فأنا لا أشعر بأن وصيتي سوف تضعهما في موقف مهين.

بهدف الحدّ من التطفل والتساؤل طلبت منك ان تعدّ لي

وصية. وقرأت الوصية على مسمع من جميع أفراد الأسرة. وضعتها على مكتبي ووضعت عليها ورقة بيضاء وطلبت حضور خادمين عندي. عند حضورهما رفعت الورقة البيضاء قليلاً وكشفت عن أسفل الوثيقة، وقعت اسمي وطلبت منهما أن يوقعا عليها أيضاً. لا داعي بالطبع أن أقول أن الوثيقة التي تم التوقيع عليها هي الوصية التي يضمها المغلف وليست الوصية التي كنت قد قرأتها.

أعرف أنك لن تتفهم الأسباب التي دفعتني لتنفيذ خطتي هذه. وسأكتفي بأن أطلب منك أن تسامحني لأنني لم أصارحك بالحقيقة. رجل عجوز مثلي يحب أن يحتفظ *بأسراره الصغيرة*.

أشكرك يا صديقي العزيز، من أجل مثابرتك على رعاية مشاريعي وأعمالي. قل لصوفيا أنني أحبها، وأطلب منها أن تسهر على راحة أفراد الأسرة وتحميهم من الأذى.

صديقك المخلص

اريستيد ليونيدس

قرأت هذه الوثيقة الجديرة بالاهتمام بتمعّن.

وقلت: هذا تصرّف غير مألوف.

قال السيد غايتسكيل وهو يقف: تصرف غير مألوف إطلاقاً. إنني أقول ثانية أنه كان يستطيع أن يجعلني موضع ثقته.

قال والدي: يا سيد غايتسكيل، كان السيد ليونيدس مخادعاً بطبيعته. كان يحب أن يتصرف بطريقة عوجاء.

قال المفتش تافيرنر: هذا صحيح يا سيدي. كان مخادعاً بكل ما في الكلمة من معنى.

قال ذلك بانفعال.

خـرج غـايتسكيـل دون أن يتمكن أحـد من التخفيف من استيائه. لقد تلقى طعنة في صميم عمله.

قال تافيرنر: هذه صدمة قاسيـة بالنسبـة له. مكتبـه محترم جداً. غايتسكيل، كالوم وغايتسكيل. لا مجال للتلاعب عندهمـا. حـين كان ليونيدس العجـوز يريـد القيام بصفقـة مشكوك في أمـرها، لم يكن يقـوم بها من خـلال هـذا المكتب. كـان لـديـه محامون آخرون ينفذون له جميع طلباته. يا له من مخادع!

قال والدي: ولم يتغير حتى بالنسبة لوصيته.

قال تافيرنر: كنا أغبياء لأننا لم نعرف أن الشخص الـوحيد الذي كان بإمكانه أن يتلاعب بالوصية كان العجوز نفسه. لكن لم يخطر ببالنا أنه يرغب في ذلك.

تذكرت ابتسامة جوزفين المتكبرة وهي تقول لي: أليس رجـال الشرطة أغبياء؟

لكن جـوزفين لم تكن مـوجودة في الاجتمـاع الذي عقـدتـه العائلة من أجل الوصيـة. وحتى لو أنهـا كانت تستـرق السمع من وراء الباب (وهذا مـا أعتقده!) كـان من الصعب عليها أن تحزر خدعة جدهـا. لماذا التعـالي والتكبر إذاً؟ مـا الذي كـانت تعـرفه حتى تقـول أن رجال الشرطـة أغبيـاء؟ أم أنهـا كـانت تتباهى فقط؟

انتبهت فجأة للصمت السائد في الغرفة فرفعت نظـري لأجد والـدي وتافـيرنر ينظـران إليّ. لا أعـرف مـا الـذي دفعني لأن أتحداهما مدافعاً عن صوفيا وأقول:

ـ لم تكن صـوفيا تعـرف شيئاً عن هـذه الوصيـة! لم تكن تعرف شيئاً على الإطلاق.

قال والدي: حقاً؟

لم أفهم تماماً ما إذا كان يقصد بذلك الموافقة على كلامي أم طرح سؤال.

ـ سوف تصاب بذهول تام.

ـ نعم؟

ـ ستصاب بذهول.

سكت الجميع. ثم رَن جرس الهاتف بشكل مفاجىء.

رفع السماعة: نعم؟ استمع قليلاً: وقال دعها تتكلم.

نظر إليّ.

ـ هذه فتاتك. تقول أنها تريد أن تتحدث إليك في أمر هام.

أخذت منه السماعة.

ـ صوفيا؟

ـ تشارلز؟ هذا أنت؟ إنها... جوزفين! وتلاشى صوتها.

ـ ما بها جوزفين؟

ـ تلقت ضربة على رأسها. أصيبت باهتزاز وهي في... في حالة سيئة... يقولون أنها لن تتعافى تماماً...

التفتّ نحو الرجلين. وقلت لهما: جوزفين أصيبت بضربة على رأسها.

أخذ والدي السماعة من يدي وقال لي بحدّة:

ـ لقد نبهتك لضرورة الانتباه لهذه الطفلة...

■ ١٨٠ ■

بعـد قليل كنت وتـاڤيرنـر نستقل سيـارة شرطـة تنطلق بنـا مسرعة إلى سوينلي دين.

تذكرت جـوزفين وهـي خـارجة من غـرفة الخـزان، وتعليقها الهادىء أنه: آن الأوان لـوقوع الجـريمة الثـانية. تلـك الطفلة المسكينة لم تكن تتخيل أنها قد تكون هي الضحية في الجـريمة الثانية.

تقبلت اللّوم الذي وجهـه إليّ والدي. كـان يجب عليّ بـالطبع أن أنتبـه لجوزفـين. أنا وتـاڤيرنـر لم تكن لدينـا أية فكـرة عن الشخص الذي وضـع السمّ في قارورة الدواء للعجوز ليونيـدس، لكن من المحتمـل أن تكون جـوزفين تعـرفه. والـذي اعتبـرتـه تصرفات طفولية لا معنى لها ربما يكون مختلفاً عن ذلك تمـاماً. قـد تكون جـوزفين أثنـاء القيام بهـوايتها المفضّلـة بالتجسّس وإقحام أنفها في كل ما يـدور حولهـا، توصلت إلى معلـومات لا تستطيع هي نفسها أن تعرف قيمتها الفعلية.

تذكرت الغصن الذي انكسر فجأة في الحديقة.

شعرت عندئذٍ بوجود الخطر. تصرفت بنـاءً لذلـك لكني فيما بعد اعتبرت أن شكوكي فيها الكثـير من الميلودرامـا وأنها غـير

واقعية. على العكس من ذلك، كان يجب عليّ أن أدرك أن جريمة وقعت، وأن حياة الذي ارتكبها في خطر، وأنه لن يتردّد في ارتكاب جريمة أخرى لكي يحمي نفسه.

ربما تكون ماجدة بغريزة الأم غير الواضحة قد أحسّت أن ابنتها جوزفين في خطر، ولذلك انتابتها تلك الرغبة المفاجئة لإرسال جوزفين على وجه السرعة إلى سويسرا.

خرجت صوفيا لملاقاتنا حين وصولنا. قالت أنه تمّ نقل جوزفين بسيارة الإسعاف إلى مستشفى ماركيت بايسينغ؛ وأن الدكتور غراي سيخبرهم في أسرع وقت ممكن نتيجة تصوير الأشعة.

سألها تافيرنر: ما الذي حدث؟

مشت صوفيا أمامنا إلى القسم الخلفي من البيت ومرت من خلال باب إلى باحة صغيرة مهملة. في إحدى الزوايا غرفة صغيرة بابها مفتوح.

قالت صوفيا: هذه غرفة للغسيل، وفي أسفل الباب فتحة لكي تمر القطط من تحتها، وكانت جوزفين تقف على حافة تلك الفتحة وتتأرجح مع الباب.

تذكرت أنني كنت أحب التأرجح على الأبواب في صباي. كانت غرفة الغسيل صغيرة ومعتمة إلى حدّ ما. في الداخل صناديق خشبية، وخرطوم مياه عتيق، بعض الأدوات المهملة للحديقة، وقطع أثاث محطمة. وإلى جانب الباب تمثال أسد من الرخام يستخدم كسند للباب.

قالت صوفيا: هذا سند الباب الرئيسي. يبدو أنه كان موضوعاً في أعلى الباب.

مدّ تاڤيرنر يده إلى أعلى الباب. كان الباب منخفضاً ولا يعلو أكثر من قدم واحدة فوق مستوى رأس تاڤيرنر.

قال: هذا فخ.

وأخذ يفتح الباب ويغلقه ليجربه. ثم انحنى فوق التمثال الرخامي ولم يلمسه.

سألها: هل لمسه أحد؟

ـ لا. لم أسمح لأحد بذلك.
ـ حسناً. من الذي وجد الفتاة؟

ـ أنا وجدتها. كانت قد تأخرت على موعد الغداء عند الساعة الواحدة. والمربية أخذت تنادي عليها. رأتها وهي تعبر المطبخ وتدخل إلى هذه الباحة قبل ذلك بحوالي ربع ساعة. قالت لي المربية: إنها تلعب بطابتها أو تتأرجح على ذلك الباب ثانية. قلت لها أنني سأذهب وآتي بها.

سكتت صوفيا.

ـ كانت معتادة على هذه اللعبة، كما قلت، من كان يعرف ذلك؟

هزّت كتفيها وقالت: كل الموجودين في البيت تقريباً.

ـ من كان يستخدم هذه الغرفة؟ المشرفون على الحديقة؟

هزّت صوفيا رأسها وقالت: لا أحد تقريباً يقترب منها.

ـ وهذه الباحة الصغيرة هل تمكن رؤيتها من البيت؟ وحاول تاڤيرنر أن يلخص فكرته: يستطيع أي شخص أن يتسلّل من البيت، أو من أمام المدخل الرئيسي ويعدّ هذا الفخ. لكن هناك مخاطرة...

سكت وهو يتأمل الباب ويؤرجحه بهدوء.

ـ النتيجة غير مضمونة. إما أن تنجح وإما أن تفشل. والفشل أكثر احتمالاً. لكن جوزفين كانت غير محظوظة، فوقع التمثال على رأسها.

ارتجفت صوفيا.

تفحص الباب بدقة. هناك خدوش عديدة عليه.

ـ يبدو أنه تم تجريب الفخ أولاً... للتأكد من طريقة وقوع التمثال... الصوت لا يصل إلى البيت.

ـ لا، لم نسمع شيئاً. لم أكن أتصور أنها تعرضت لأي سوء، إلّا بعد أن رأيتها ممددة ووجهها إلى الأسفل... وضعفت نبرة صوتها وهي تقول: كان هناك دماء على شعرها.

ـ هل هذا وشاحها؟ وأشار تاڤيرنر إلى وشاح صوفي عليه مربعات، ملقى على الأرض.

ـ أجل.

تناول الوشاح ورفع به التمثال الرخامي بحذر. وقال: قد تكون عليه بصمات. لم يكن يأمل كثيراً بذلك. لكنني أعتقد أن الذي أعدّ الفخ كان حذراً. والتفت نحوي ليسألني: إلى ماذا تنظر؟

كنت أنظر إلى كرسي خشبي مكسور الظهر بين سائر الأغراض. على مقعده كانت بقع من التراب.

قال تاڤيرنر: غريب. وقف شخص على هذا الكرسي بحذاء موحل. لماذا يا ترى؟ ثم هزّ رأسه، وسأل صوفيا:

ـ متى عثرت عليها يا آنسة ليونيدس؟

ـ أعتقد أنها كانت الواحدة وخمس دقائق.

ـ والمربية رأتها خارجة قبل الواحدة بحوالي عشرين دقيقة. من كان آخر شخص دخل إلى هذه الغرفة؟

ـ ليست لدي أية فكرة. ربما تكون جوزفين. كانت جوزفين تتأرجح على هذا الباب هذا الصباح بعد الفطور، لقد رأيتها تفعل ذلك.

أحنى تافيرنر رأسه.

ـ إذاً تمكن شخص ما من إعداد الفخ بين ذلك الوقت والواحدة إلاّ ربعاً. قلت أن هذا التمثال تستخدمونه ليسند الباب الرئيسي، هل لديك فكرة متى اكتشفتم أنه غير موجود؟

هزّت صوفيا رأسها.

ـ لم نترك الباب مفتوحاً طوال اليوم. لأن الطقس كان بارداً.

ـ هل تعرفين أين كان سائر سكان البيت هذا الصباح؟

ـ أنا كنت أتمشى. أوستاس وجوزفين كانا يدرسان حتى الثانية عشرة والنصف... وقد أعطاهما الأستاذ فرصة عند العاشرة والنصف. أعتقد أن أبي كان في غرفة المكتبة طوال الصباح.

ـ وأمك؟

ـ رأيتها خارجة من غرفة نومها حين عدت من مشواري. كانت الساعة حوالي الثانية عشر والربع. إنها لا تستيقظ في وقت مبكّر.

دخلنا إلى البيت. تبعت صوفيا إلى المكتبة. كان فيليب

شاحب الوجه ويبدو منهكاً، وكان يجلس في مقعده المعتاد. ماجدة جلست عند قدميه تبكي بهدوء.

سألتهما صوفيا:

– هل اتصل أحد من المستشفى؟

– هزّ فيليب رأسه.

بكت ماجدة بصوت مسموع.

– لماذا لم يتركوني أرافقها؟ طفلتي... طفلتي الحبيبة البشعة. وكنت أقول لها أنها قبيحة وكانت تغضب كثيراً. كيف كنت قاسية إلى هذه الدرجة؟ وهي الآن ستموت. أعرف أنها ستموت.

قال فيليب: أسكتي يا عزيزتي. أسكتي.

شعرت أن لا مكان لي في هذا المشهد العائلي الذي يسيطر عليه القلق والحزن. انسحبت بهدوء وذهبت إلى المطبخ لأتحدث مع المربية. وجدتها تجلس هناك تبكي بصمت.

– هذه تجربة لي، يا سيد تشارلز، تجربة من أجل الأمور السيئة التي كنت أفكر فيها. هذه تجربة لي.

لم أحاول أن أفهم معنى كلامها.

– في هذا البيت شر كثير. هذا ما يوجد في البيت. لم أكن أريد أن أراه أو أصدقه. لكن الرؤية هي التصديق. هناك شخص قتل السيد وهو نفسه بالتأكيد الذي حاول أن يقتل جوزفين.

أزاحت المربية طرف محرمتها عن عينها ورمقتني بنظرة ذكية.

– أنت تعرفها جيداً يا سيد تشارلز. إنها تحب معرفة كلّ

شيء. كـانت دائماً كـذلك، منـذ طفولتهـا الأولى. كانت تختبىء تحت طـاولة الطعـام وتستمع إلى الخـادمات وهن يتحـدثن ثم تواجههن بما سمعت. كانت تشعر بـأهميتها حـين تفعل ذلـك. كانت تشعر بأن والدتها لم تكن تعتني بها. لم تكن طفلة جميلة مثل أخيها وأختها. كانت منـذ ولادتها عـادية. كـانت والدتهـا تقول عنها أنها مدسوسة، وأنـا كنت ألومهـا لأجل ذلـك، لأنها برأيي هي التي جعلت الطفلة تصبـح سيئة الخلق. وقـد لجأت جوزفين إلى محـاولة اكتشـاف خفايـا الناس، وكـانت تفاجئهم بأنها تعرفها. لكن هـذا التصرف يصبح خطيـراً إذا كان هنـاك مجرم في البيت.

المربية معها حق وسلوك جـوزفين كـان خطيراً. وانتبهت إلى مسألة أخرى. فسألت المربية: هل تعرفين أين تحتفظ بدفتـرها الأسود الصغير... إنه دفتر ملاحظات تعودت أن تدوّن فيـه ما يلفت انتباهها؟

ـ أعرف هذا الدفتر يـا سيد تشـارلز. إنهـا حريصـة جداً عليه. لأنها تمصّ قلمها وتكتب ثم تمصّ القلم. كنت أقول لهـا: لا تفعلي ذلك، سوف تتسممين من الرصاص؛ وكـانت ترد عـلي: لا، لن أتسمم بالرصاص. لأن القلم لا يحتوي على الرصـاص، بل على الكربون. ومع أنني لم أكن أفهم سبب ذلك، طـالما أنهم يسمونه قلم رصاص فذلك لأنه يحتوي على الرصاص.

وافقت معها قائلاً: أنت فكرت في ذلـك بسبب الاسم. لكن في الواقع كانت جوزفين على حق (وجوزفين دائماً على حق!)، ودفتر الملاحظات؟ هل تعرفين أين تحتفظ به؟

ـ ليست عندي أية فكـرة حول ذلـك الأمر يـا سيدي. إنهـا تخفيه عن الجميع.

ـ هل كان معها حين وجدت بعد الحادثة؟

ـ آه، لا، يا سيد تشارلز، لم يكن معها دفترها.

هل أخذ أحد هذا الدفتر؟ أم أنها خبأته في غرفتها. فكرت أنه يجب علي أن أذهب إلى غرفتها وأفتشها بنفسي. لم أكن أعرف أين هي غرفتها، وفيما كنت أقف متردداً في الممر، سمعت تاڤيرنر يناديني:

ـ أنا في غرفة الطفلة. أدخل وسترى الفوضى في هذه الغرفة.

وقفت عند عتبة الباب وأخذت أتأمل المكان في صمت.

بدت الغرفة الصغيرة وكأن اعصاراً مرّ فيها. الأدراج كانت مفتوحة ومحتوياتها ملقاة على الأرض. الفراش والأغطية، كانت بعيدة عن السرير. السجاد مجموعاً في كومة. المقاعد مقلوبة واللوحات أنزلت عن الجدران، والصور منزوعة من إطاراتها.

قلت مدهوشاً: يا إلهي! ما هذا؟

ـ ما رأيك أنت؟

ـ يبدو أن شخصاً كان يبحث عن شيء معين.

ـ تماماً.

التفت حولي وصفّرت.

ـ لكن من يستطيع ذلك... بالتأكيد لا أحد يستطيع أن يدخل إلى هذه الغرفة ويخرّبها على هذا النحو دون أن يسمعه أحد... أو حتى يراه أحد؟

ـ ولم لا؟ السيدة ليونيدس تمضي فترة الصباح في غرفتها وهي تقلّم أظافرها وتتصل بأصدقائها هاتفياً وتتأمل ملابسها. وفيليب ينزوي في مكتبته ويستغرق في قراءة الكتب. والمربية في

المطبخ تقشر البطاطا وتعدّ اللوبياء. في عائلة يعرف كلّ فرد فيها عادات الآخرين يكون هذا العمل سهلاً. وأنا سأقول لك أن أي شخص مقيم في هذا البيت من المحتمل أن يكون هو الذي ارتكب حادث الاعتداء هذا... هو الذي أعد الفخ للصبية وفتش غرفتها. لكن يبدو أنه كان مستعجلاً، شخص ليس عنده الوقت الكافي ليفتش بهدوء.

ـ أي شخص مقيم في البيت؟

ـ أجل، ولقد قمت بتحرياتي بهذا الشأن. كل واحد هنا عنده فترة من الوقت لا يستطيع إثبات مكان وجوده فيها. فيليب وماجدة والمربية وفتاتك. والأمر نفسه ينطبق على الطابق العلوي. بريندا أمضت معظم فترة الصباح وحدها. لورانس وأوستاس كان عندهما فرصة لنصف ساعة... من العاشرة والنصف حتى الحادية عشرة... أنت كنت معهما في جزء منها لكنك لم تمض هذه الفترة كلها معهما. الآنسة دوهاڤيلاند كانت في الحديقة لوحدها. روجر كان في غرفته.

ـ ما عدا كليمنسي التي كانت في عملها في لندن.

ـ لا، حتى كليمنسي لا نستثنيها لأنها لزمت البيت اليوم بسبب صداع... كانت وحدها في غرفتها. أي واحد من هؤلاء... أي واحد منهم! وأنا لا أعرف من هو! ليست عندي أية فكرة عنه! لو أنني أعرف ما الذي كان يبحث عنه...

وأخذ ينظر إلى الغرفة المنكوبة من حوله...

ـ ولو أنني أعرف ما إذا كان قد عثر عليه...

فجأة انتبهت إلى مسألة معينة... إلى ذكرى...

وتاڤيرنر أشار إليها حين سألني:

ـ ماذا كانت الصبية تفعل حين رأيتها آخر مرة؟
ـ انتظر،

خرجت مسرعاً من الغرفة، وصعدت السلم. عبرت الباب إلى الجهة اليسرى وصعدت إلى الطابق الأعلى. فتحت باب غرفة الخزان وصعدت على السلم الصغير وأحنيت رأسي لأن السقف كان منخفضاً ومائلاً، وأخذت أنظر حولي.

قالت لي جوزفين حين سألتها ماذا كانت تفعل في هذه الغرفة أنها كانت تفتش.

لم أفهم ما الذي كانت تفتش عنه في «علّية» مليئة بشباك العنكبوت وخزانات المياه. لكن هذه العلية تصلح لأن تكون مخبأ جيداً. تصوّرت أن جوزفين تخبيء شيئاً في هذا المكان، وهذا الشيء قد تكون تعرف جيداً أنه لا يعنيها. إذا كان هذا صحيحاً لن يطول الوقت قبل أن أعثر عليه.

بعد حوالي ثلاث دقائق فقط، وخلف أكبر خزان كان يتصاعد من داخله صفير يزيد من هالة الخوف التي تحيط بالمكان، هناك وجدت مجموعة من الرسائل ملفوفة في ورقة بنية ممزقة.

قرأت الرسالة الأولى.

> آه لورانس... يا حبيبي، يا حبي الوحيد... كانت ليلة البارحة رائعة، حين ألقيت تلك الأبيات من الشعر. عرفت أنك تقصدني أنا بها، مع أنك لم تنظر إليّ. قال أريستيد: أنت تقرأ الشعر جيداً. لم يكتشف ما كنا نفكر فيه. يا حبيبي، بدأت أقتنع أن الأوضاع سوف تتحسن في وقت قريب. كان طيباً للغاية معي. لا أريده أن يعاني. لكنني لا أعتقد فعلاً أن الحياة تكون سعيدة بعد الثمانين. أنا لا أريد أن أعيش حتى ذلك السن! قريباً سنعيش معاً ولن

نفترق بعد ذلك. كم سيكون رائعاً حين أستطيع أن أقول لك: «يا زوجي الحبيب...» يا حبيبي، كلّ واحد منا يناسب الآخر. أنا أحبك، أحبك، أحبك... لا أرى نهاية لهذا الحب، أنا...

وتستمر الرسالة على هذا النحو، ولم أعد أرغب في قراءة المزيد.

نزلت السلم عابساً وأعطيت الرسائل إلى تاڤيرنر.

قلت له: من المحتمل أن صاحبنا المجهول كان يبحث عن هذه الرسائل.

قرأ تاڤيرنر عدة مقاطع من الرسالة الأولى صفّر وألقى نظرة على الرسائل الأخرى.

ثم نظر إليّ وفي عينه نظرة تشبه نظرة القطة التي تناولت منذ قليل أفضل أنواع الكريما. وقال بهدوء: حسناً، يبدو أن السيدة بريندا ليونيدس صارت جاهزة. وكذلك السيد لورانس براون. إذاً هما كانا وراء ما حدث، منذ البداية...

■ ١٩٠ ■

حين أستعيد ذكريات ما حدث أستغرب كيف اختفى تماماً احساسي بالتعاطف مع بريندا ليونيدس عندما وضعت يدي على رسائلها، الرسائل التي كتبتها إلى لورانس براون، هل استنكرت في أعماقي أنها كانت تحب لورانس براون وتصارحه بذلك بعذوبة وشغف وأنها تعمّدت أن تكذب عليّ؟ لا أعرف. لست عالماً نفسانياً. إنني أفضل أن أصدق أن التفكير بجوزفين التي تلقت على رأسها ضربة قاسية هو الذي قضى على مشاعر العطف التي كنت أكنّها لها.

قال تافيرنر: براون هو الذي أعدّ الفخ حسب رأيي. وهذا يفسّر الأمر الذي حيّرني فيه.

ـ وما الذي حيّرك؟

ـ إنه تصرّف طفولي بالدرجة الأولى. فلنقل أن الصبية كانت تخبىء الرسائل... الرسائل الخطيرة جداً! يجب أولاً محاولة استرداد هذه الرسائل (لأن مجرد الحديث عن هذه الرسائل من دون الكشف عنها يمكن ببساطة ردّه إلى أن الصبية تتخيّل أموراً كثيرة)، لكن من الصعب الحصول على الرسائل لأن المجرم لم يكتشف مخبأها. أفضل شيء إذاً هو التخلص من

هذه الصبية. وبما أنه ارتكب جـريمة من قبـل، فإنـه لن يبالي كثيراً بارتكاب جريمة ثانية. وهو يعرف أنها مـولعة بـالتأرجـح على باب غرفة الغسيـل التي تقع في بـاحة مهجـورة. الطريقـة المثالية تكون بانتظارها خلف الباب وضربها على رأسها بواسطة قضيب حـديدي أو خـرطوم الميـاه، وهذه وسـائل متـوفـرة في الـداخـل. لمـاذا لجـأ إذاً إلى حمـل تمثـال رخـامي من البـاب الـرئيسي، ثم وضعه عـلى باب الغـرفة وهنـاك احتمال كبـير أن تفشل هذه الطريقة وأن لا يصيبها التمثال بأي أذى، وحتى لو أنه وقع على رأسها فإنه قد لا يقوم بالعمل كما يجب (وهذا مـا حدث فعلاً). إنني أسألك... لماذا؟

قلت: وما هو الجواب على هذه التساؤلات؟

ـ الفكرة الوحيدة التي خطرت لي في البـداية كـانت أن أحد المقيمين في البيت يريد استغلال هذه الحادثـة لتكون دليـلاً على عدم تورّطه، وذلك بأن يقدم اثباتاً قاطعاً أنـه كان غـير موجـود حين تلقت جوزفين الضربة على رأسها. لكن هـذه الفكرة ليست مقبولة أولاً لأن لا أحد من المقيمين في البيت عنده دليل أنه كان غير موجود ساعة الحادثـة، وثانيـاً لأن الصبية يجب أن تكـون مـوجودة عنـد موعـد الغداء، والشخص الـذي سيفتش عنهـا سيجد الفخ والتمثال الرخامي وسيكون كل شيء واضحاً أمامه. لو أن المجرم خبأ التمثال قبل العثور على جوزفين كنا سنقـع في حيرة. لكن الوضع كما هو لا يمكن تبريره منطقياً.

ومدّ يده بحركة يائسة.

ـ وما هو تفسيرك الحالي؟

ـ العنصر الذاتي. الطبع المميّز. طبع لورانس براون. إنه لا

يحب العنف... وغير قادر على إجبار نفسه على القيام بأي عمل يتطلب عنفاً جسدياً. إنه لا يستطيع أن يقف خلف الباب ويضرب الصبية على رأسها، لكنه يستطيع أن يعدّ الفخ ويبتعد كي لا يرى الحادثة حين وقوعها.

قلت ببطء: فعلاً، فهمت قصدك. وهذا أسلوب استبدال «الأنسولين» «بالإيسرين» يتكرر ثانية؟

ـ تماماً.

ـ هل تعتقد أنه أقدم على ذلك بدون معرفة بريندا؟

ـ قد يكون هذا هو السبب لأنها لم تتخلص من قارورة «الأنسولين». وهناك احتمال طبعاً أن يكونا قد دبّرا الأمر بينهما... أو أنها فكرت بمسألة السمّ لوحدها... موت هادئ وبدون ألم لزوجها العجوز المتعب والجميع يستفيدون منه! لكنني أراهن أنها لم تكن وراء الفخ، لأن النساء عموماً لا يثقن بالوسائل الميكانيكية ولا يقتنعن بأنهن يقمن بعمل معين على أكمل وجه. والحق معهنّ. أنا أعتقد أنها هي التي فكرت باستخدام «الإيسرين» لكنها طلبت من عبدها المتيّم أن يقوم بعملية الاستبدال. إنها من الأشخاص الذين يتحاشون القيام بأنفسهم بأعمال غير واضحة النتائج، هكذا يحافظون على راحة ضمائرهم.

سكت قليلاً ثم أضاف:

ـ أعتقد أن المدّعي العام سيقرّر أن هناك قضية حين يطلع على هذه الرسائل. يحتاج الأمر إلى بعض الشروحات! وإذا نجت الصبية سيعود كل شيء إلى طبيعته وتستعيد الحديقة روعتها.

رمقني بطـرف عينه وسـألني: ما هـو شعور الإنسـان حين يعقد خطبته على حوالي مليون باوند استرليني تقريباً؟

أجفلت قليـلاً لأنني كنت قد نسيت مـوضـوع الـوصيـة في الأحداث المثيرة للساعات القليلـة الماضيـة. قلت له: صـوفيا لا تعـرف شيئاً عن هـذا الموضـوع حتى الآن، هـل تـريـدني أن أخبرها؟

ـ فهمت من السيد غايتسكيـل أنه سيعلن أمـام الجميع الأخبار المحزنة (أو المفرحة) بعد بدء التحقيق الرسمي غداً.

سكت تاڤيرنر ليتأملني بتمعّن وقال:

ـ إنني أتساءل كيف ستكون ردّة الفعـل عند سـائر أفـراد الأسرة؟

■ ٣٠ ■

بدأ التحقيق كما توقعت، وتمت الموافقة على تأجيله بناءً على رغبة الشرطة.

كان الجميع مرتاحين لأن ادارة المستشفى اتصلت في الليلة الماضية وأبلغتنا أن إصابة جوزفين أقلّ خطورة مما كانوا يتوقعون وأن شفاءها سيكون سريعاً، لكن الدكتور غراي يمنع زيارتها في الوقت الحالي... وحتى والدتها لا تستطيع زيارتها.

همست لي صوفيا تقول: بشكل خاص يجب أن يمنعوا والدي عن زيارتها. أنا طلبت ذلك من الدكتور غراي، وهو على أي حال يعرف والدتي جيداً.

يبدو أنني رمقتها باستنكار لأن صوفيا سألتني بحدّة:

– ولم هذه النظرة المستاءة؟

– الأم بالتأكيد...

– أنا سعيدة لأنك تحتفظ بأفكار قديمة تدل على الطيبة يا تشارلز. لكنك لا تتخيل ماذا تستطيع أمي أن تفعل. ستجد أنها عاجزة عن منع نفسها عن تقديم مشهد درامي مؤثّر. والمشاهد الدرامية ليست أفضل ما يمكن تقديمه لطفلة تعاني من إصابة في رأسها.

ـ أنت تفكرين في كل شيء يا عزيزتي.

ـ يجب أن يقوم واحد منا بالتفكير بعد رحيل جدي.

نظرت إليها بتمعّن. شعرت أن فطنة ليونيدس العجوز لم تتخل عنه هذه المرة. عبء المسؤولية كان بالفعل على كتفي صوفيا.

بعد نهاية جلسة التحقيق الأولى عاد معنا غايتسكيل إلى المنزل. بلع ريقه ليجلو صوته وقال بوضوح:

ـ عندي إعلان من واجبي أن أطلعكم عليه جميعاً.

اجتمع أفراد الأسرة في غرفة الجلوس في الطابق الأرضي. شعرت أنني أعمل وراء الكواليس وكنت سعيداً بذلك. كنت أعرف مسبقاً ما سيقوله غايتسكيل.

تهيأت لمراقبة ردّة الفعل عند كل واحد منهم. غايتسكيل اختار أسلوباً مختصراً وجافاً، دون أن يبدي أية مشاعر خاصة أو استياء. قرأ أولاً رسالة أريستيد ليونيدس، ثم قرأ نصّ الوصية.

كانت مراقبة الحضور مثيرة للغاية، وتمنيت لو أن عينيّ تستطيعان النظر إلى الجميع في وقت واحد.

لم أعر انتباهاً كبيراً لبريندا ولورانس، لأن حصة بريندا في الوصية الثانية لم يطرأ عليها أي تعديل. راقبت بشكل خاص روجر وفيليب، ومن ثمّ ماجدة وكليمنسي.

كان انطباعي الأول أن الجميع يتصرفون كما ينبغي.

شفتا فيليب كانتا مشدودتين بعصبية، وقد ألقى برأسه على ظهر الكرسي العالي حيث كان يجلس. لم يقل كلمة واحدة.

ماجدة بالمقابل بدأت تتحدث مباشرة بعد انتهاء السيد غايتسكيل من قراءته، وصوتها البديع تفوّق على نبرة صوته النحيل مثل تيار قوي يدفع ساقية أمامه.

ـ حبيبتي صوفيا... يا للروعة... كم هذا رومانسيّ... من كان يقول أن العجوز الحبيب ذكي ومخادع إلى هذه الدرجة... هذا تصرف طفولي. ألم يكن يثق بنا؟ هل فكر أننا سنغضب؟ لم يكن يبدو أنه يحب صوفيا أكثر منا. هذا بالفعل موقف درامي.

فجأة نهضت ماجدة وكأنها تقفز على قدميها، وأخذت تتراقص أمام صوفيا وتقدمت منها وهي تنحني إنحناءة رائعة.

ـ مدام صوفيا، والدتك الفقيرة والمعدمة تتوسّل إليك، وقلدت بنبرة صوتها الشحاذين وقالت: أعطينا بضعة قروش، يا حبيبتي. أمك تريد الذهاب إلى السينما.

كانت يدها ممدودة بإلحاح إلى صوفيا.

قال فيليب، دون أن يتحرك من مكانه، ومن خلال شفتيه المشدودتين:

ـ أرجوك يا ماجدة لا داعي لتصرفات بهلوانية غير ضرورية.

قالت ماجدة وهي تلتفت نحوه فجأة: لكن يا روجر. روجر يا حبيبي. كان العجوز سينقذ الوضع، لكنه مات قبل أن يفعل ذلك، والآن لن يحصل روجر على شيء. صوفيا... والتفتت نحوها بكبرياء. يجب أن تفعلي شيئاً لعمك روجر.

قالت كليمنسي: لا، وتحركت خطوة إلى الأمام بوجه عنيد وأضافت: لا شيء، لا شيء على الإطلاق.

مشى روجر بتثاقل نحو صوفيا كأنه دب كبير مروّض. أخذ يديها بين يديه بمحبة.

ـ أنا لا أريد قرشاً واحداً، يا ابنتي الغريزة. حالما تتضح ملابسات هذه القضية... أو تفقد أهميتها تلقائياً، وهذا ما يبدو أنه سيحدث... عندئذ نسافر أنا وكليمنسي إلى جزر الهند الغربية لنعيش ببساطة هناك. إذا وصلت بي الأمور إلى حالة يائسة أتقدم إلى المسؤول عن العائلة لطلب العون منه.

وابتسم لها بمودّة.. لكنني حتى ذلك الحين لا أريد قرشاً واحداً. أنا رجل بسيط في الواقع، يا عزيزتي... إسألي كليمنسي عني.

تدخلت إيديث دوهاڤيلاند بشكل غير متوقّع. وقالت: هذا موقف جيد، لكن يجب أن تنتبه إلى المظهر الخارجي للأمور. إذا أنت أعلنت إفلاسك يا روجر وسافرت إلى آخر الدنيا دون أن تمد لك صوفيا يد المساعدة ستحاول ألسنة السوء النيل من العائلة وهذا لن يعجب صوفيا.

سألتها كليمنسي بازدراء: وبماذا يهمنا الرأي العام؟

قالت لها إيديث دوهاڤيلاند بحدة: نعرف جيداً أنه لا يهمك يا كليمنسي، لكن صوفيا تعيش في حدود هذا العالم. إنها فتاة تتمتع بعقل رزين وقلب طيب. ولا أشك لحظة واحدة أن أريستيد كان مصيباً في اختياره لها لكي تتحمل مسؤولية إرث العائلة... مع أن التغاضي عن وجود ابنين له لا يزالان على قيد الحياة تصرف غير مألوف في عاداتنا الانكليزية... وأنا أعتقد أنه لا يجوز أن تنتشر الأقاويل بأنها تصرفت بجشع وتركت عمها روجر ينهار دون أن تحاول مساعدته.

تقدم روجر نحو خالته. أحاطها بذراعيه وضمّها إليه بحنان.

ـ خالتي إيديث، أنت عزيزة جداً على قلبي... وأنت مناضلة

عنيدة أيضاً يبدو أنك لم تفهمي ما أريد. أنا وكليمنسي نعرف جيداً ما نريد... وما لا نريد!

وقفت كليمنسي فجأة وقد تورد خداها وبدت كأنها تواجه الجميع بعناد.

قالت: لا أحد بينكم يعرف حقيقة مشاعر روجر. ولم يحاول أحد أن يعرفها من قبل! ولا أعتقد أنكم ستعرفونها؟ هيا بنا يا روجر.

غادرا الغرفة فيما كان السيد غايتسكيل يبلع ريقه ليجلو صوته ويقوم بترتيب أوراقه. كانت ملامحه تدل على استيائه الشديد؛ بوضوح تام.

أخيراً استقر نظري على صوفيا. كانت تقف بجوار المدفأة، جميلة، مرفوعة الرأس، واثقة من نفسها. عرفت منذ قليل أنها صارت صاحبة ثروة طائلة، لكنها بدت لي أنها صارت فجأة وحيدة. بينها وبين سائر أفراد أسرتها انتصب حاجز منيع. هي الآن منفصلة عنهم، وخُيِّل إليّ أنها تدرك تلك الحقيقة وتواجهها بإصرار. العجوز ليونيدس ألقى بعبء ثقيل على كتفيها... كان يعرف جيداً ماذا يفعل وهي أيضاً كانت تعرف أنها قادرة على تحمل المسؤولية. كان مقتنعاً أن كتفيها قويتان وقادرتان على تحمل هذا العبء؛ وقفت أنظر إليها وفي تلك اللحظة شعرت بأنني حزين لأجلها.

لم تقل شيئاً حتى الآن... لأن أحداً لم يفسح لها المجال لتقول رأيها، لكنها بالتأكيد ستجد نفسها مجبرة على الكلام بعد قليل. شعرْتُ أن الودّ الظاهري الذي أبداه بعض أفراد أسرتها بدأ يخفي شيئاً من العدائية. حتى تمثيل ماجدة الممتع

كان يخفي دهاءً وحقداً. وكانت هناك مشاعر أخرى لم تكشف عن نفسها بعد.

بعد محاولات السيد غايتسكيل المتعدّدة لكي يجلو صوته، قال بكلمات واضحة ومدروسة:

- اسمحي لي أن أهنئك يا صوفيا. أنت الآن سيدة ثرية جداً. لا أنصحك بالقيام بأي عمل... متسرع. أستطيع أن أوفّر لك أي مبلغ تطلبينه في الحساب الجاري. وحين ترغبين في مناقشة أية إجراءات في المستقبل سأكون سعيداً لأقدم لك أفضل نصيحة ممكنة. إتصلي بي لتحديد موعد في مطعم لينكولن من بعد أن تكوني قد فكرتِ جيداً بكل الأمور.

قالت إيديث دوهافيلاند بعناد: روجر.

تدخّل السيد غايتسكيل بسرعة وقال:

- روجر يجب أن يعيل نفسه. إنه رجل ناضج... صار في الرابعة والخمسين على ما أظن. وأريستيد ليونيدس كان على حق، كما تعرفين. روجر ليس رجل مشاريع وتجارة. ولن يكون كذلك أبداً. التفت نحو صوفيا وأضاف: إذا تمكنت من وضع شركة التعهدات المتحدة في مسارها السليم ثانية لا تتوهمي أن روجر يستطيع أن يديرها بنجاح.

قالت صوفيا: أنا لا أفكر مطلقاً في تصليح وضع شركة التعهدات المتحدة.

تلك كانت المرة الأولى التي تكلمت فيها صوفيا. صوتها كان هشاً وهي تتحدث كأنها سيدة أعمال. أضافت: هذا إجراء سخيف لا فائدة منه.

رمقها غايتسكيل بنظرة حادة وابتسم. ثم تمنى للجميع ليلة سعيدة وخرج.

ساد الصمت بضع دقائق وقد أدرك أفراد الأسرة أن الاجتماع لم يعد يضمّ سواهم.

وقف فيليب وكأنه مصاب بتصلب في ساقيه. قال: يجب أن أعود إلى المكتبة، لقد أضعت الكثير من الوقت.

قالت صوفيا متردّدة وكأنها تتوسّل إليه: أبي... تراجعت وهي ترتجف حين التفت إليها فيليب بعينين باردتين وعدائيتين.

قال لها: أرجو أن تعذريني لأنني لم أهنئك، لكن ما حدث صدمة بالنسبة لي. لم أكن أصدق أن والدي يريدني أن أشعر بالمهانة... وأنه يتغاضى عن تفانيّ في خدمته... أجل... تفانيّ.

للمرة الأولى برزت مشاعره الطبيعية محطمة قشرة الجليد التي كانت تلجمها. ثم صرخ قائلاً: يا إلهي، كيف يعاملني بهذه الطريقة؟ كان دائماً غير منصف معي... دائماً.

ردّت عليه إيديث دوهافيلاند بصوت عال: آه، لا يا فيليب، لا تترك هذه الأفكار تسيطر عليك. قرار والدك ليس استخفافاً بك. حين يكبر الإنسان في السنّ يلتفت بشكل طبيعي إلى الجيل الشاب... أؤكد لك أن الأمر اقتصر على ذلك... وبالإضافة إلى ذلك كان أريستيد يتمتع بمهارة على الصعيد العملي، وقد سمعته مرات عديدة يقول أن نفقات حصر الإرث...

قال فيليب: لم يكن يهتم بي. كان صوته منخفضاً وخشناً. كان يهتم بروجر فقط... روجر. لكن، لا بأس... وغطت ملامحه الجذابة مسحة من الحقد المفاجىء... أدرك والدي أن روجر كان غبياً وفاشلاً، وحرمه من الميراث أيضاً.

قال أوستاس: وأنا؟

لم يكن أوستاس قد لفت انتباهي حتى الآن، ولاحظت أن صوته كان يرتجف من شدة انفعاله. وجهه كان محتقناً وخيّل إليّ أن الدموع كانت تتجمع في عينيه. ارتفع صوته المرتجف بشكل هيستيريّ.

ـ يا للعار! هذا عار ملعون! كيف يجرؤ جدي على معاملتي بهذا الأسلوب؟ كيف يجرؤ على ذلك؟ أنا حفيده. كيف يجرؤ على جعل صوفيا وصية عليّ؟ هذا ظلم. إنني أكرهه. أكرهه. لن أغفر له هذه الإساءة طوال حياتي. عجوز فظّ وطاغية. كنت أتمنى موته، وأتمنى الخروج من هذا البيت. كنت أريد أن أصبح مسؤولاً عن نفسي. والآن يجب عليّ أن أقبل ما تقدمه لي صوفيا وأسمعها وهي تنهرني، وسوف أبدو غبياً أمام الجميع. أتمنى لو أنني أموت...

تلاشى صوته وأسرع في الخروج من الغرفة.

أصدرت إيديث دوهافيلاند صوتاً قوياً بلسانها. وقالت متمتمة: لا يعرف كيف يسيطر على نفسه.

صرخت ماجدة قائلة: أعرف تماماً شعوره.

قالت إيديث بمرارة: أنا واثقة من ذلك.

ـ حبيبي المسكين! يجب أن ألحق به.

ـ اسمعي يا ماجدة... وأسرعت إيديث تتبعها.

تلاشت أصواتهما. كانت صوفيا واقفة تتأمل فيليب، كأنها تتوسل إليه من خلال نظرتها. لكنه لم يستجب. نظر إليها ببرود وقد استعاد بعض قدرته للسيطرة على توتره.

ـ كنت بارعة في لعب الورق يا صوفيا قال ذلك وخرج من الغرفة.

قلت لها متضايقاً: هذا كلام قاسٍ؛ صوفيا... مدت يديها إليّ فأخذتها بين ذراعيّ.

ـ هذه تجربة قاسية جداً يا حبيبتي.

ـ قالت صوفيا: أنا أعرف تماماً كيف يشعرون.

ـ ذلك الشيطان العجوز، جدك، ما كان يجب أن يضعك في مثل هذا الموقف.

رفعت كتفيها قليلاً: كان مقتنعاً بأنني سأتحمل الموقف. وهذا صحيح. كنت أتمنى لو أن أوستاس لم يتأثر إلى هذه الدرجة.

ـ سيجتاز هذه المحنة.

ـ صحيح؟ لست واثقة من ذلك. إنه يفكر كثيراً. ولقد تضايقت من شعور والدي أيضاً.

ـ ردة فعل والدتك مقبولة.

ـ إنها متضايقة إلى حد ما. من الصعب عليها أن تطلب من ابنتها أن تموّل لها أعمالها المسرحية. خلال فترة قصيرة سوف تطلب مني تمويل مسرحية إيديث تومبسون.

ـ وماذا سيكون ردّك؟ إذا كانت موافقتك تسعدها...

ابتعدت صوفيا عني، وأرجعت رأسها إلى الوراء.

ـ سوف أرفض! إنها مسرحية سخيفة وأمي لا تقدر أن تمثل هذا الدور. الموافقة تعني تبذير المال بدون مقابل.

ضحكت بهدوء. لم أستطع أن أمنع نفسي.

سألتني بارتياب: ما بك؟

ـ بدأت أفهم السبب الذي حمل جدك على ترك الثروة بين يديك. أنتِ شبل من ذاك الأسد يا صوفيا.

■ ٢١ ■

لم يكن يــزعجني شيء ســوى أن جــوزفــين لم تشــارك في التطورات الأخيرة. كانت ستجد متعة كبيرة في ذلك.

استعادت عافيتها بسرعة، وكنا نتوقع عودتها في وقت قريب، ومع أن فترة غيابها لم تطل لكنها مع ذلك شهدت حدثاً بارزاً لم تعرف به جوزفين أيضاً.

ذات صباح كنت في حديقة الصخور برفقة صــوفيا وبــريندا حــين وصلت سيارة إلى البــاب الرئيسي. تــرجّل منهــا تاڤــيرنــر والرقيب لامب. صعدا السلم ودخلا الى البيت.

وقفت بــريندا بــلا حراك تتــأمــل السيــارة. وقــالت: هــذان الرجلان عادا ثانية، وأنا تصورت أننا لن نراهما مــرة أخرى... تصوّرت أن القضية انتهت. رأيتها ترتجف.

كــانت قد انضمت إلينــا منذ حــوالي عشر دقائق، وقــالت لنا وهي تلف نفسهــا بمعطفهــا الثمــين: أعتقــد أنني ســأصــاب بــالجنون إذا لم أتمشَّ وأتنشق الهــواء النقي. إذا خــرجت من البوابة الرئيسية أجد صحافياً ينتظرني. أشعــر أنني في حالــة حصار، هل سيستمر هذا الوضع طويلاً؟

قــالت صوفيــا أن رجال الصحــافــة ســوف يعتبــرون هــذا

الموضوع مملاً بعد فترة لن تكون طويلة. وأضـافت: تستطيعين أن تخرجي في سيارتك.

ـ لكنني أريد أن أتمشّى.

ثم سألتها بشكل مفاجىء.

ـ لماذا تريدين الاستغناء عن خدمات لورانس يا صوفيا؟

أجابت صوفيا بهدوء:

ـ إننا نعيد النظر في وضـع أوستاس. وجوزفين ستسافر إلى سويسرا.

ـ لورانس متضايق جداً لأنه يشعر أنك لا تثقين به.

لم تردّ عليها صوفيا، وفي تلك اللحظة وصلت سيارة تاڤيرنر.

وقفت بـريندا تـرتجف في هـواء الخـريف الـرطب، وقـالت متمتمة: ماذا يريدان؟ لماذا رجعا؟

كنت أعـرف سبب رجوعهمـا. لم أكن قد صـارحت صوفيـا بشأن الرسائل التي وجدت في غرفـة خزان الميـاه، لكنني كنت أعرف أنها وصلت إلى مكتب المدعي العام.

خرج تاڤـيرنر من البيت، واجتـاز الطريق والأرض المكسـوة بـالعشب وهو يتقـدم نحونـا. صارت بـريـنـدا تـرتجف بشكـل واضح. أخذت تردّد بعصبية: ماذا يريد؟ ماذا يريد؟

وصل تاڤيرنر وقال باختصار مستخدماً العبارات الرسمية:

ـ إنني أحمـل مذكـرة توقيف بحقـك... أنت متهمـة بحقن أريستيد ليونيدس بمادة «الإيسيرين» في التاسع عشر من شهر أيلول/ سبتمبر المـاضي. يجب أن أحذرك أن أي كـلام تقولينـه يمكن اللجوء إليه أثناء محاكمتك.

وانهارت بريندا. صرخت وتمسكت بي. قالت بأعلى صوتها: لا، لا، لا، هذا غير صحيح! تشارلز، قل لهم أنه غير صحيح! أنا لم أفعل ذلك. لم أكن أعرف شيئاً. هذه مؤامرة. لا تدعهم يأخذونني. هذا غير صحيح، أقول لك... غير صحيح... أنا لم أفعل شيئاً...

كان الموقف فظيعاً... إلى درجة يصعب تصديقها. حاولت تهدئتها، رفعت أصابعها عن ذراعي. قلت لها أنني سأكلف محامياً للدفاع عنها... وأنها يجب أن تحافظ على هدوئها... وأن المحامي سيقوم بالترتيبات اللازمة...

أمسك تافيرنر بذراعها بهدوء.

قال: هيا بنا يا سيدة ليونيدس. هل تريدين إحضار متاعك؟ لا؟ سنذهب في الحال إذاً.

تراجعت قليلاً إلى الوراء وحدقت فيه بعينين واسعتين كأنهما عينا قطة.

قالت: لورانس، ماذا فعلتم بلورانس؟

قال لها تافيرنر: لقد ألقينا القبض على السيد لورانس براون.

أصيبت بحالة ذهول، وبدا جسمها كأنه ينهار ويتقلص. انهمرت الدموع على خديها ومشت بصمت إلى جانب تافيرنر باتجاه السيارة. رأيت لورانس براون يخرج من البيت مع الرقيب لامب.

صعد الجميع في السيارة التي انطلقت بهم في الحال.

تنهدت بعمق والتفتّ نحو صوفيا. كانت شاحبة وعلى وجهها علامات الحزن. فقالت: هذا فظيع يا تشارلز، فظيع جداً.

- أعرف ذلك.

- يجب أن تـوكّل لهـا محاميـاً ممتازاً... أفضـل محـام في المدينة. يجب أن تحصل على أكبر قدر من المساعدة.

قلت: لا أحد يدرك أهمية موقف كهـذا إلاّ حين يعيشـه. أنا لم أر رجال الشرطة يلقون القبض على شخص من قبل.

- أعرف ما تعني. لا أحد يتصور ماذا يحدث.

ساد الصمت بيننا. كنت أفكـر في الرعب الـذي سيطر عـلى بريندا. بـدا ذلك مـألوفـاً وفجأة عـرفت السبب. كانت تعـابير وجهها تشبه التعابير التي رأيتها على وجه ماجدة ليونيـدس، في اليوم الأول لحضوري إلى البيت الأعوج، حين كانت تتحدث عن مسرحية إيديث تومبسون.

قالت: وبعد ذلك، لا شيء سوى الرعب.

لا شيءسوى الرعب... هكـذا كانت مـلامح بـريندا. لم تكن بـريندا جـريئة، وأنـا لم أكن أتصور أنهـا قادرة عـلى ارتكاب جـريمة. وهـي عـلى الأرجح لم تفعـل ذلك. قـد يكـون الجـاني لورانس براون، بإحساسه المهووس بأنه مضطهد، وبشخصيته الضعيفة، هو الذي استبدل محتويات قارورة بمحتويات قارورة أخـرى... عمل بسيط للغـاية... لكي تحصـل المرأة التي يحب على حريتها.

قالت صوفيا: والآن انتهينا.

تنهدت بعمق وسألتني:

- لماذا قرار إلقاء القبض عليهما؟ كنت أتصور أنه لا تـوجد أدلة كافية.

- برز دليل جديد، مجموعة من الرسائل.

ـ تقصد رسائل غرامية، كانا يتبادلانها؟

ـ أجل.

ـ هناك أشخاص أغبياء يحتفظون برسائل كهذه.

صحيح؛ أغبياء. الغباء الذي لا يستفيد أبداً من تجارب الآخرين. كلّ يوم نقرأ في الصحف عن لحظات غباء مماثلة... الرغبة المجنونة في الاحتفاظ بالكلمة المكتوبة، الإثبات الأكيد للحبّ القائم.

قلت: ما حدث كان بشعاً يا صوفيا، لكن لا داعي لكي نتضايق كثيراً بسببه. هذا ما كنا نريد، أليس كذلك؟ هذه كانت رغبتك التي ذكرتها ونحن في مطعم ماريو. قلت أن كلّ شيء سيكون على ما يرام إذا تبيّن أن الشخص المناسب هو الذي قتل جدّك. وبريندا هي الشخص المناسب، أليس كذلك؟ بريندا أو لورانس؟

ـ لا تقل ذلك يا تشارلز، لا تجعلني أشعر بفظاعته.

ـ أريد أن نكون عاقلينْ. الآن نستطيع أن نتزوج يا صوفيا. لم يعد بإمكانك التأجيل، لأن عائلة ليونيدس اجتازت المحنة التي كانت تواجهها.

أخذت تتأملني، ولم أكن من قبل قد لاحظت اللون الأزرق الزاهي لعينيها.

قالت لي: أجل، أعتقد أننا اجتزنا المحنة. لقد اجتزناها، أليس كذلك؟ هل أنت متأكد؟

ـ يا حبيبتي، لم يكن لدى أي فرد من أفراد العائلة دافع مقنع لارتكاب جريمة قتل.

شحب لونها فجأة.

ـ ما عداي يا تشارلز. أنا عندي دافع.

ـ أجل، بالطبع... اندهشت من كلامها، وتابعت: لكن هذا غير صحيح تماماً. أنت لم تكوني تعرفين بموضوع الوصية.

قالت هامسة: بل كنت أعرف ذلك يا تشارلز.

ـ ماذا؟ سألتها وأنا أحدق فيها، وشعرت فجأة ببرودة في جسمي.

ـ كنت أعرف أن جدي ترك لي كلّ ثروته.

ـ لكن كيف؟

ـ هو الذي أخبرني بذلك. قبل حوالي أسبوعين من وفاته. قال لي على نحو مفاجيء: إنني أترك كل ثروتي لكِ يا صوفيا. يجب أن تتولي رعاية شؤون العائلة بعد موتي.

حدقت فيها وقلت: أنت لم تصارحيني بذلك.

ـ لا. لأن الجميع أخذوا يتحدثون عن الوصية التي وقعها جدي أمامهم، فتصورت أنه ارتكب خطأ... أنه تخيّل بأنه خصّني بالتركة. أو إذا كانت هناك بالفعل وصية تنصّ على ذلك، تكون قد ضاعت ولا يمكن العثور عليها. لم أكن أريد أن يعثر عليها أحد... كنت خائفة.

ـ خائفة؟ لماذا؟

ـ أعتقد أنني كنت خائفة من... جريمة قتل.

تذكرت الرعب الذي سيطر على ملامح بريندا... الذعر غير المنطقي. تذكرت الرعب الذي افتعلته ماجدة حين أرادت أن تلعب دور المجرمة. لم يكن هناك رعب في تفكير صوفيا، لكنها كانت واقعية، وكانت تدرك بوضوح أن وصية ليونيدس تجعل

منها متهمة بالقتل. فهمت بـوضوح سبب رفضهـا الارتباط بي وإصرارها على التوصّل إلى الحقيقة. قالت لي أنها لن تقنع بـأي شيء إلّا بالحقيقة. تذكرت إصرارها وتأثرها وهي تقول ذلك.

أخذنا نتمشى باتجاه البيت وفجأة تذكـرت شيئاً آخـر كانت قد قالته.

كانت قد قالت أنها تعتقد نفسها قادرة على ارتكـاب جريمـة قتل، وأضافت أنه في حال حصل ذلك، فإنه يجب أن يكـون من أجل هدف يستحق.

■ ٢٠ ■

من خلف منعطف في الحديقة رأينا روجر وكليمنسي وهما يتقدمان نحونا برشاقة. بذلة روجر من التوير الفضفاض كانت تلائمه أكثر من البذلات الرسمية التي كان يرتديها للذهاب إلى المدينة. بدا متحمساً ومضطرباً. كليمنسي كانت عابسة.

قال روجر: مرحبا. وأخيراً! كدت أفقد الأمل أنهم سيلقون القبض على هذه المرأة الخائنة. ماذا كانوا ينتظرون، لا أعرف. المهم أنهم ألقوا القبض عليها وعلى صديقها البائس... وأتمنى أن يشنقوهما.

زاد عبوس كليمنسي وقالت: لا تكن فظّاً إلى هذه الدرجة يا روجر.

ـ فظ؟ وضعا السمّ بشكل متعمد وببرود تام لرجل عجوز مطمئن ولا حول له... وحين أفرح لأن المجرمين وقعا في يد العدالة وسوف يدفعا الثمن تقولين عني أنني فظّ! أشعر أنني قادر على خنق هذه المرأة بيديّ.

وأضاف: كانت معكما حين جاء المفتش ليأخذها، كيف كانت ردّة فعلها؟

قالت صوفيا بصوت منخفض: كانت فظيعة. لقد أصيبت بحالة ذعر كادت تفقدها صوابها.

ـ إنها تستحق ذلك.

قالت كليمنسي: لا تكن حقوداً.

ـ أعرف ذلك يا حبيبتي، لكن أنت لا تستطيعين أن تفهمي موقفي. الرجل الذي قُتل لم يكن والدك. وأنا أحب والدي. ألا تفهمين؟ أحبه!

قالت كليمنسي: أعتقد أنني أفهم ذلك الآن.

قال لها روجر مازحاً: خيالك غير واسع يا كليمنسي. تصوّري لو أن السمّ وُضع لي أنا...!

بدا الاضطراب عليها، وشدّت بحدة على يديها، وقالت بانفعال: لا تقل ذلك حتى من باب المزاح.

ـ لا داعي للقلق يا حبيبتي، سنرحل بعيداً في وقت قريب.

مشينا باتجاه البيت. روجر وصوفيا في المقدمة، وأنا وكليمنسي وراءهما.

قالت لي: أعتقد أن رجال الشرطة سيسمحون لنا بحرية التحرك الآن.

سألتها: وهل أنت متحمسة للسفر؟

ـ الحياة هنا ترهقني.

نظرت إليها مستغرباً. ارتسمت على وجهها ابتسامة شاحبة ويائسة وهزّت رأسها تقول:

ـ ألم تنتبه يا تشارلز أنني أعيش في حالة حرب دائمة؟

أحارب من أجل سعادتي. وسعادة روجر. كنت خائفة أن تحاول العائلة إقناعه بالبقاء في انكلترا. لأن هذا يعني التورط والالتزام بالقيود العائلية. خفت أن تعرض عليه صوفيا دخلاً فيختار الاستقرار في انكلترا لأجل راحتي وتأمين العيش الرغيد لي. المشكلة مع روجر أنه لا يرضى أن يسمع. يتعلّق بأفكار معينة... ولا تكون عادة أفكاراً صحيحة. إنه لا يعرف شيئاً. وهو كسائر أفراد أسرته يتصوّر أن سعادة المرأة في وسائل الراحة والمال. لكنني لا أرضى بذلك وسوف أحارب من أجل سعادتي... سأفعل ذلك. سأسافر مع روجر لكي أوفّر له نمط الحياة الذي يناسبه كي لا يشعر بأنه فاشل. أريده لنفسي... بعيداً عنهم جميعاً... في أسرع وقت...

قالت ذلك بصوت منخفض ومتوتر وبشيء من اليأس مما أثار دهشتي. لم أكن أتخيل أنها تعاني إلى هذا الحدّ. ولم أكن أعرف حقيقة مشاعرها نحو روجر وأنها تجاهد لكي تستحوذ عليه.

تذكرت كلمات قالتها إيديث دوهاڤيلاند. قالت: هذا أعبده ونبرة صوتها فيها ترنيمة خاصة. تُرى، هل كانت تفكر في كليمنسي؟

روجر أحبّ والده أكثر مما يستطيع أن يحب أي إنسان آخر، أكثر من زوجته مع انه يكرس حياته لأجلها. أدركت للمرة الأولى أن كليمنسي ترغب بإصرار أن تحتفظ بزوجها لنفسها. حب روجر هو كل شيء في حياتها. كان ابناً لها، وزوجاً وحبيباً.

وصلت سيارة إلى المدخل الرئيسي.

قلت: أهلاً، ها هي جوزفين.

ترجلت جوزفين وماجدة من السيارة. رأس جوزفين عليه رباط لكنها بدت متعافية تماماً.

قالت مباشرة: أريد أن أرى سمكاتي الذهبية. وتقدمت نحونا ونحو البركة.

صرخت ماجدة: يا حبيبتي، من الأفضل أن تدخلي لترتاحي قليلًا، وتتناولي قليلًا من الشوربة.

قالت جوزفين: لا داعي لهذه الضجّة يا أمي. أنا بخير، وأنا أكره الشوربة.

بدت ماجدة حائرة. عرفت أن جوزفين كانت في حالة تسمح لها بمغادرة المستشفى منذ بضعة أيام، وأن إقامتها طالت بناءً على رغبة تاقيرنر. لم يكن المفتش يريد المخاطرة بسلامة جوزفين فأرجأ عودتها إلى البيت إلى أن يتم القبض على المشبوهين.

قلت لماجدة: أعتقد أن الهواء الطلق مفيد لها. سألحق بها لأنتبه لها.

وجدت جوزفين واقفة قرب البركة.

قلت: حصلت أمور كثيرة وأنت غائبة.

لم تجبني، وظلت تتأمل بعينيها الضعيفتين السمك في البركة.

قالت: لا أرى فيرديناند.

ـ أية سمكة اسمها فيرديناند؟

ـ التي لها أربعة زعانف.

ـ وهذا النوع جميل. إنني أحب تلك السمكة الذهبية اللّماعة!

ـ هذا نوع عادي.

ـ لا تعجبني تلك السمكة البيضاء التي تبدو وكأن العتة نخرتها.

رمقتني جوزفين بازدراء.

ـ هذه سمكة من نوع نادر، وهي غالية جداً... أغلى بكثير من السمك الذهبي.

ـ ألا تريدين معرفة ما حدث في غيابك يا جوزفين؟

ـ أعتقد أنني أعرفه.

ـ هل تعرفين أن وصية أخرى ظهرت وأن جدك كتب كلّ ممتلكاته باسم صوفيا؟

أحنت جوزفين رأسها بانزعاج.

ـ قالت لي أمي. على أية حال كنت أعرف ذلك.

ـ هل سمعت بالخبر في المستشفى؟

ـ لا، أعني أنني كنت أعرف أن جدي ترك ثروته لصوفيا. لقد سمعته بنفسي وهو يقول لها ذلك.

ـ كنت تسترقين السمع خلف الباب؟

ـ أجل، كنت أستمع من خلف الباب.

ـ هذه عادة سيئة، ويجب أن تنتبهي أن الذين يستمعون من خلف الأبواب لا يسمعون كلمات طيبة عن أنفسهم.

رمقتني جوزفين بنظرة مختلفة.

ـ لقد سمعت ما قاله لها عني، إذا كنت تقصد ذلك.

وأضافت: تتضايق المربية كثيراً حين تمسك بي وأنا أستمع

من خلف الأبـواب. تقـول أن هـذا التصرف لا يليق «بـلايـدي مـهذبة».

ـ معها حق.

ـ لا تـوجد «لايـدي» في هذه الأيـام. هـذه الكلمـة صـارت مـهملة.

غيّرتُ الموضوع.

ـ وصلت متأخرة قليلاً ولم تشاركي في أبرز حدث، لقد ألقى المفتش تاڤيرنر القبض على بريندا ولورانس.

كنت أتوقع من جوزفين المولعة بإجراء التحـريات، أن تـهتـزّ لهذا الخبر، لكنها اكتفت بأن تردّد وكأنها منزعجـة من كلامي: أعرفـ ذلك.

ـ من غير المعقول أن تعرفيه لأنه حدث منذ قليل.

ـ مرت بجوارنا سيارة الشرطـة، وبداخلهـا المفتش تاڤـيرنر والشرطي الـذي ينتعل الحـذاء السـويـدي، ومعهمـا بـريـنـدا ولـورانس، وبالطبـع عرفت أنهمـا موقـوفـين. أتمنى أن يكـون المفتش قـد أطلعهما عـلى حقوقهمـا، هذا إجـراء ضروري كمـا تعرفـ.

أكدت لها أن تاڤيرنـر تصرفـ كما ينبغي. وقلت لهـا معتذراً: كنت مضطراً أن أخبره بشأن الرسائل. لقد عثرت عليهـا خلف خزان المياه. كنت أريدك أن تخبريه بنفسك، لكنك تلقيت ضربة على رأسك.

مدت جوزفين يدها بحذر إلى رأسها.

ـ كنت سـأمـوت وتـابعت بسرور: قلت لـك أنـه آن أوان

الجريمة الثانية. غرفة الخزان مكان رديء لإخفاء تلك الرسائل. قلت ذلك في نفسي مباشرة حين رأيت لورانس يخرج منها ذات يوم. أدركت في الحال أنه ليس رجلاً بارعاً يعرف كيف يصلح الحنفيات أو الأنابيب أو الأسلاك، لذلك عرفت أنه بالتأكيد يخبىء شيئاً هاماً هناك.

ـ لكنني كنت أعتقد أن... وسكت حين سمعت صوت إيديث دوهافيلاند الآمر:

ـ جوزفين، جوزفين، تعالي إلى هنا في الحال.

تنهدت جوزفين: مزيد من الضجيج. لكن من الأفضل أن أذهب. الطاعة واجبة مع الخالة إيديث.

ركضت تجتاز الأرض المكسوة بالعشب، وتبعتها ببطء.

تبادلت جوزفين مع الخالة إيديث بضع كلمات ثم دخلت إلى البيت. التقيت بإيديث دوهافيلاند على الشرفة.

في هذا الصباح كانت تبدو كبيرة في السن. لفتت انتباهي خطوط التعب والإرهاق المحفورة على وجهها. بدت منهكة ومهزومة. رأت الاهتمام في عينيّ وحاولت أن تبتسم.

ـ هذه الطفلة نجحت في المغامرة التي عاشتها. يجب أن نراقبها أكثر في المستقبل. لكنني... أعتقد أنه لم يعد هناك مبرر للقلق؟

تنهدت وقالت: أنا سعيدة لأن القضية انتهت. يا له من عرض! إذا ألقى رجال الشرطة القبض على شخص بتهمة القتل يجب أن يتمالك نفسه. أنا لا أطيق الأشخاص الذين يشبهون بريندا والذين ينهارون ويصرخون. هؤلاء جبناء. لورانس براون كان مثل الأرنب الذي وقع في الفخ.

انتابني شعور غامض بالإشفاق عليهما.

ـ حظهما سيء.

ـ أجل، حظهما سيء. يجب عليها أن تنتبه لنفسها، أعني أن توكّل محامياً ناجحاً... وتستخدم جميع الوسائل لتدافع عن نفسها.

هذا موقف غريب، إنهم جميعاً يمقتونها وفي الوقت نفسه يبدون اهتمامهم بأن تتوفر لها جميع السبل لتحاول إثبات براءتها.

تابعت إيديث دوهافيلاند تقول: كم من الوقت تستغرق جميع الإجراءات؟

قلت لها أنني لا أعرف على وجه الدقة. سوف توجه إليهما التهمة بالقتل في مركز الشرطة، ثم تبدأ محاكمتهما، والمحاكمة تستغرق حوالي ثلاثة أو أربعة أشهر، وإذا تمت إدانتهما يستطيع المحامي أن يطلب الاستئناف.

سألتني: هل تعتقد أن المحكمة ستدينهما؟

ـ لا أعرف. لا أعرف تماماً ما هي الأدلة التي توصل إليها رجال الشرطة. هناك بالطبع الرسائل.

ـ رسائل الحب... كانا حبيبين إذاً؟

ـ كانا حبيبين.

ازداد وجهها عبوساً.

ـ هذا لا يسعدني يا ليونيدس. أنا لا أحب بريندا، وكنت فيما مضى أكرهها كثيراً. قلت عنها كلاماً جارحاً. لكنني الآن... أشعر أن جميع الفرص يجب أن تكون متوفرة لها... جميع

الفرص الممكنة. كان أريستيد سيؤمن لها ذلك. أشعر أنني مسؤولة لكي... لكي تعامل بريندا معاملة جيدة.

ـ آه، لورانس! وهزت كتفيها بملل: الرجل يجب أن يهتم بنفسه. وأريستيد لن يغفر لنا إذا... ولم تكمل الجملة. ثم قالت: حان وقت الغداء. يجب أن ندخل الآن.

قلت لها أنني أنوي الذهاب إلى لندن.

ـ في سيارتك؟

ـ أجل.

ـ هل تستطيع أن تصطحبني معك؟ أعتقد أنهم يسمحون لنا بالتحرك بحرية الآن.

ـ تستطيعين طبعاً أن ترافقيني، لكنني أعتقد أن ماجدة وصوفيا سوف تذهبان إلى لندن بعد الغداء. ستكونين مرتاحة أكثر معهما، لأن سيارتهما أكبر من سيارتي ذات المقعدين.

ـ لا أريد الذهاب معهما. خذني معك ولا تتحدث كثيراً عن هذه المسألة.

اندهشت من طلبها لكنني نفذت ما طلبت. لم نتحدث كثيراً ونحن في طريقنا إلى المدينة. سألتها إلى أين تريدني أن أوصلها.

ـ شارع هارلي.

توقعت أمراً سيئاً، لكنني لم أرغب في طرح أي سؤال عليها. تابعت تقول:

ـ لا، لا يزال الوقت مبكراً. تستطيع أن توصلني إلى مطعم «دبنهامز» حيث أتناول الغداء وفيما بعد أذهب إلى شارع هارلي.

ـ إنني... بدأت الكلام وسكتّ.

ـ لهذا السبب لم أشأ مرافقة ماجدة. إنها تسعى دائماً لوضع أي موضوع في إطار دراميّ، وتثير الكثير من الضجيج.

قلت: أنا آسف فعلاً.

ـ لا داعي للأسف. لقد عشت حياة جيدة. حياة جيدة جداً.

وابتسمت فجأة وقالت: وهي لم تنتهِ بعد.

٢٣

لم أر والدي منذ بضعة أيام. وجدته مشغولاً بأمور لا علاقة لها بقضية ليونيدس، وتركته لأبحث عن تاڤيرنر.

كـان تاڤـيرنر يتمتـع بفترة قصـيرة من الراحـة ووافق عـلى الخـروج معي لنتناول كـأساً معـاً. هنأتـه لأنه نجـح في كشف ملابسات القضية، وهو تقبّل تهنئتي لكن أسلوبه في التعبير عن شكره كان بعيداً عن الابتهاج.

قال: حسناً، لقد أنهينا مهمتنا. صار عنـدنا قضيـة. لا أحد ينكر أن عندنا قضية.

ـ هـل تعتقد أن المحكمـة ستصـدر حكمهـا بـأن المتهمـين مذنبان؟

ـ من المستحيـل أن نخمّن ذلك. لأن الـدليل استنتـاجيّ... وهـو غالبـاً ما يكـون كذلـك في جرائم القتـل... يجب أن يكون كذلك. قدر كبير من الأهمية يعود للانطباع الـذي تأخـذه هيئة المحلفين عن المتهمين.

ـ وما هو دور الرسائل في هذا المجال؟

ـ للوهلة الأولى تبدو الرسائل مثـيرة جداً يـا تشارلـز. إنها

تشير إلى الحياة التي سيعيشانها بعد وفاة الزوج، وتضمّ عبارات مثل... لن ننتظر طويلاً. لكن الدفاع سيحاول أن يشرح المعنى من زاوية أخرى... الزوج كان عجوزاً ومن الطبيعي أنهما يتوقعان وفاته. ليست هناك إشارة لاستخدام السمّ... أي أنهما لم يشيرا إلى ذلك بكلمات واضحة... لكن هناك بعض الفقرات التي يمكن تفسيرها بأنها تعني ذلك. الأمر يتعلق بالقاضي الذي سينظر في القضية. فإذا تولى القاضي «كاربيري» هذه القضية فإنه سوف يدينهما، لأن من المعروف عنه أنه لا يتقبل الحب غير الشرعي. أعتقد أنهما سيوكلان إما «إيغلز» أو «هامفري كير» للدفاع... هامفري رائع في مثل هذه القضايا... لكنه يحتاج إلى ملفّ حول شجاعة موكّله الباهرة في الحرب، أو أي شيء من ذلك القبيل لكي تصبح مهمته أكثر سهولة، وموكّله من المعارضين بشدة لفكرة الحرب. وهذا يشكّل نقطة ضعف في مرافعته. والسؤال المطروح هو: ماذا سيكون رأي هيئة المحلّفين فيهما؟ من الصعب معرفة الإجابة. في الواقع يا تشارلز هذان المتهمان لا يستدران عطف الآخرين بسهولة. بريندا امرأة جميلة تزوجت من رجل عجوز طمعاً في ثروته، وبراون مريض عصبياً ومعارض للحرب. وارتكاب جريمة قتل بالنسبة لشخصين مثلهما ليس احتمالاً بعيداً مع أنك تميل إلى الاعتقاد بأنهما بريئان. قد يكون قرار هيئة المحلفين بأن براون هو الجاني وأنها لم تكن تعرف شيئاً... أو أنها هي الجانية وهو لم يكن يعرف شيئاً... أو أنهما شريكان في هذه الجريمة.

سألته: وما رأيك أنت؟

نظر إليّ بوجه لا يحمل تعابير واضحة.

– أنا لا أفكر في الأمر. لقد قدمت جميع الوقائع إلى المدعي

العام، وهو قرّر بأن القضية مكتملة. هذا كلّ شيء. قمت بواجبي ولا علاقة لي بأي شيء آخر. وهكذا عرفت رأيي يا تشارلز.

لكنني لم أعرف رأيه، ولسبب ما شعرت أنه لم يكن مرتاحاً.

بعد ثلاثة أيام التقيت بوالدي وصارحته بما يضايقني. منذ مدة وهو يتجنب الحديث حول هذه القضية. شعرت أن حاجزاً ارتفع بيننا... وأنني أعرف سبب ذلك، وقررت أن أقتحمه.

قلت: يجب أن نتكلم بصراحة، تاڤيرنر ليس مقتنعاً بأن بريندا وبراون هما اللذان ارتكبا الجريمة... وأنت أيضاً لست مقتنعاً بذلك.

هزّ والدي رأسه. قال لي ما سبق وسمعته من تاڤيرنر: الموضوع لم يعد في أيدينا. هناك قضية الآن والمحكمة ستصدر قرارها بشأنها.

ـ لكن أنت لا تعتقد... وتاڤيرنر لا يعتقد... بأنهما مذنبان؟

ـ الإجابة على هذا السؤال من حقّ هيئة المحلفين.

ـ أرجوك يا أبي، لا تتهرب من الردّ باستخدام هذه الإصطلاحات. ما هو رأيك... ورأي تاڤيرنر... رأيكما الشخصيّ؟

ـ رأيي الشخصي ليس مختلفاً عن رأيك يا تشارلز.

ـ بلى، إنه مختلف. أنت لديك خبرة أوسع في هذا المجال.

ـ سأكون صريحاً معك إذاً. أنا بالفعل... لا أعرف!

ـ قد يكونان مذنبين؟

ـ آه، طبعاً.

ـ لكنك غير واثق من ذلك؟

هزّ والدي كتفيه وسألني:

ـ وكيف أستطيع أن أكوّن رأياً واضحاً؟

ـ أرجوك يا أبي، لا تصدّني، أعرف أنه سبق لك وأبديت آراء واضحة في قضايا أخرى. هل كنت واثقاً تماماً من آرائك؟ ألم يكن لديك شك فيها؟

ـ بلى، في بعض الأحيان.

ـ أتمنى من كل قلبي أن تكون متأكداً من رأيك هذه المرة.

ـ وأنا كذلك.

ساد الصمت بيننا. كنت أفكر في بريندا ولورانس وهما يمشيان خلسة باتجاه البيت في العتمة: وحيدان ومرتبكان وخائفان. كانا دائماً خائفين. هل يدل خوفهما على إحساسهما بأنهما ارتكبا ذنباً؟

أجبت نفسي: ليس بالضرورة. بريندا ولورانس كانا خائفين من الحياة... لم يكن عندهما ثقة في أنهما قادران على تحاشي الوقوع في المخاطر والفشل، وهما يعرفان تماماً أن نمط الحب غير المشروع الذي يجمع بينهما يمكن الربط بينه وبين الجريمة التي وقعت.

قال والدي بنبرة جدية ولطيفة: دعنا نواجه الموقف بصراحة يا تشارلز. أنت لا تزال تعتقد أن أحد أفراد عائلة ليونيدس هو الجاني الحقيقي؟

ـ ليس تماماً. إنني فقط أتساءل...

ـ بل أنت تفكر في ذلك. قد تكون مخطئاً، لكنك تفكر في ذلك.

ـ أجل.

ـ لماذا؟

ـ لأن... فكرت قليلاً، محاولاً أن أتبيّن الأمر بوضوح... أن أركّز تفكيري... «لأن» (بلى، هذا ما أفكر فيه فعلاً) لأن أفراد العائلة هم أنفسهم يعتقدون ذلك.

ـ هم يعتقدون ذلك؟ هذا مثير. هذا مثير للغاية. هل تعني أن كل واحد منهم يتهم شخصاً آخر، أم انهم يعرفون من هو الجاني؟

ـ لست متأكداً لأن الموقف شائك ومرتبك. أعتقد أنهم يحاولون إخفاء ما يعرفونه عن بعضهم البعض.

أحنى والدي رأسه.

ـ باستثناء روجر. روجر مقتنع من كل قلبه أن بريندا هي التي قتلت والده، وهو يريد من كلّ قلبه أن تنال الحكم بالإعدام. من المريح أن تستمع إلى روجر، لأنه بسيط ويقول رأيه مباشرة، ليست لديه تحفظات.

وتابعت أقول:

ـ لكن الآخرين يسعون إلى التبرير، وهم غير مرتاحين... إنهم يحثونني على تأمين أفضل دفاع ممكن لبريندا... لكي تتوفر لها فرصة إثبات براءتها... لماذا؟

أجابني والدي: لأنهم غير مقتنعين في أعماقهم بأنها هي الجانية... أجل معك حق.

ثم سألني بهدوء:

ـ من هو الجاني برأيك؟ أنت تحدثت إليهم جميعاً، من هو المذنب بينهم؟

– لا أعـــرف. والتفكـير في هــذا المــوضـــوع سيـدفعني إلى الجنــون. لا أحـد بينهم يتــلاءم مــع الصـــورة التي رسمتهـا للمجرم، ومع ذلك فإنني مقتنع أن واحداً منهم هو المجرم.

– صوفيا؟

– لا. يا إلهي! لا.

– الاحتمال وارد في تفكيرك يا تشارلز... أجل، إنه موجود في تفكـيرك، لا تحاول الإنكـار، وله تـأثير كبـير عليك لأنــك ترفض الاعتراف به. وماذا عن الآخرين؟ فيليب؟

– فقط إذا تبيّن وجود دافع غير مألوف.

– قد تكون بعض الدوافع غير مألوفة... وقـد تكون سخيفـة في بساطتها. ما هو الدافع عند فيليب حسب رأيك؟

– إنه يغار كثيراً من روجر... وغيرته هـذه تأصلت فيـه منذ الطفولة. معاملة الوالد المميزة لروجـر جعلت فيليب ينكفىء على نفســه. وصل روجـر إلى حافـة الانهيار المـالي والرجـل العجوز عرف بالأمر، ووعد ابنه بأنه سوف يسـاعده عـلى الوقـوف على رجليه ثانية. فلنفترض أن فيليب عـرف ذلك: إذا مـات الرجـل العجوز في تلك الليلـة لن ينال روجـر المساعـدة المطلوبـة، وهو بالتالي سينال ضربة قـاضية في مجـال عمله. آه! أعـرف أن ما أقوله سخيف...

– لا، ليس سخيفاً. إنه غير مألـوف، لكنه قـد يحدث فعـلاً. هذه مشاعر إنسانية. وماذا عن ماجدة؟

– ماجدة تتصرف بشكـل طفولي. إنهــا... إنها تفهم الأمــور بطريقتها الخاصة. وما كان ليخطـر في بالي أنهـا قد تكـون على علاقة بما حدث لولا أنها أصرّت على سفر جوزفين إلى ســويسرا

بسرعة. لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير بأنها كانت خائفة أن تكون جوزفين تعرف شيئاً معيناً وأنها قد تبوح به...

ـ وبعد ذلك تلقت جوزفين ضربة على رأسها؟

ـ لكن أمها لم تفعل ذلك؟

ـ ولم لا؟

ـ يا أبي، لا تستطيع الأم أن...

ـ تشارلز، تشارلز، ألا تقرأ نشرة أخبار الشرطة عن أمهات يكرهن أحد أبنائهن؟ قد تكره الأم واحداً من أبنائها وتكون مولعة بالآخرين. هناك بالطبع أسباب تجعلها تشعر بذلك، لكن من الصعب فهمها، وفي حال وجودها تشكل لديها نفوراً غير منطقي ويكون هذا النفور قوياً جداً.

صارحته على مضض: كانت تقول عن جوزفين أنها طفلة مدسوسة.

ـ وهل كانت الطفلة تتضايق؟

ـ لا أظن ذلك.

ـ من تبقّى لدينا؟ روجر؟

ـ روجر لم يقتل والده. أنا متأكد من ذلك.

ـ نستبعد روجر إذاً. وزوجته... ما اسمها... كليمنسي؟

ـ أجل. إذا كانت هي التي قتلت ليونيدس العجوز، تكون قد ارتكبت الجريمة لسبب غريب جداً.

أخبرته بما دار بيني وبينها من حديث. قلت له أن رغبتها في إبعاد روجر عن انكلترا ربما تكون دفعتها لوضع السم عمداً للرجل العجوز.

ـ كانت قد أقنعت روجر بالسفر من دون إطلاع والده على الأمر. لكن الرجل العجوز عرف بنواياهما، وقرّر توفير الدعم اللاّزم لشركة التعهّدات المتحدة. وجميع آمال كليمنسي وأحلامها كادت تبوء بالفشل. وهي لم تكن بالفعل تهتم إلاّ بروجر وتعلّقها به كان... أكثر من العبادة.

ـ أنت تردّد ما قالته إيديث دوهاڤيلاند!

ـ أجل. وإيديث أيضاً قد تكون هي الجانية. لكنني لم أعرف السبب. إنني مقتنع إذا توفّر لديها سبب قوي ومقنع فإنها قد تتولى دور القانون بنفسها. إنها قاسية وعنيفة إلى هذا الحدّ.

ـ وهي أيضاً كانت مصرّة أن يتوفر لبريندا الدفاع الملائم؟

ـ أجل. قد يكون موقفها هذا سببه عذاب الضمير. أنا واثق أنها لو كانت هي التي ارتكبت الجريمة، فإنها لا تريد أبداً أن توجه التهمة إلى بريندا ولورانس.

ـ هذا محتمل. لكن هل تقوم بضرب الطفلة جوزفين على رأسها؟

قلت ببطء: لا. لا أستطيع أن أتخيل ذلك. وهذا يذكرني أن جوزفين قالت لي شيئاً أثار انتباهي، لكنني أحاول أن أتذكره دون جدوى. لو أنني أستطيع أن أتذكر الآن...

ـ لا عليك. سوف تتذكره فيما بعد. هل لديك أفكار أخرى؟

قلت: أجل. أريد أن أسألك ماذا تعرف عن شلل الأطفال، أعني تأثيره النفسي على الطفل الذي يصاب به؟

ـ أوستاس؟

ـ أجل. حين أفكر ملياً في الأمر، أشعر أن أوستاس قد يكون الشخص المناسب. كراهيته لجدّه ونفوره منه. غرابة أطواره وكآبته، مزاجه العصبي. إنه لا يتصرف بشكل طبيعي.

وتابعت أقول: إنه الشخص الوحيد في العائلة الذي أتصوّره وهو يضرب جوزفين على رأسها بصلابة إذا تبيّن له أنها تعرف شيئاً عنه... وهي تعرف أموراً كثيرة. إنها تعرف كلّ ما يدور في البيت. وهي تدون ملاحظاتها في دفتر صغير...

سكتّ. ثم قلت: يا إلهي! كم أنا غبي!

ـ ما بك؟

ـ الآن فهمت! أنا وتافيرنر أن الشخص الذي خرّب غرفة جوزفين كان يبحث عن تلك الرسائل. كنت أعتقد أن الرسائل بحوزتها وأنها خبأتها في غرفة الخزان. لكنها حين تحدثت معي إثر عودتها من المستشفى أشارت إلى أن لورانس هو الذي خبأ الرسائل هناك. كانت قد رأته وهو خارج من تلك الغرفة وتسللت إليها وتمكنت من العثور على الرسائل. وهي بالطبع قرأتها. إنها بالتأكيد قادرة على ذلك! لكنها أعادت الرسائل إلى مكانها.

ـ حسناً!

ـ ألم تفهم قصدي؟ الشخص الذي كان يفتش غرفة جوزفين لم يكن يسعى للحصول على الرسائل. من المؤكد أنه كان يبحث عن شيء آخر.

ـ وهذا الشيء...

ـ إنه الدفتر الأسود الصغير الذي تسجِّل فيه تحرياتها. هذا ما كان يبحث عنه ذلك الشخص! وأعتقد أنه لم يعثر عليه،

وأن جوزفين لا تزال تحتفظ به. لكن إذا كان هذا صحيحاً...

ووقفت.

قال والدي: إذا كان هذا صحيحاً فإنه يعني أن الطفلة لا تزال في خطر. هل هذا ما تريد قوله؟

- أجل. ولن تكون في مأمن من الخطر إلّا إذا كانت قد سافرت إلى سويسرا. أنت تعرف أنهم ينوون إرسالها إلى هناك.

- وهل هي راغبة في السفر؟

فكرت في الأمر وقلت: لا أعتقد ذلك.

قال والدي بجفاف: هذا يعني أنها على الأرجح لم تسافر بعد. وأنا أعتقد أنك على حقّ وأنها بالفعل في خطر. من الأفضل أن تزور ذلك البيت ثانية.

تساءلت بارتياب: أوستاس؟ كليمنسي؟

ردّ والدي بهدوء: بالنسبة لي تبدو جميع الوقائع تشير بوضوح إلى اتجاه واحد... إنني أستغرب أنك لا تراه بنفسك. أنا...

فتح غلوفر الباب.

- أرجو المعذرة يا سيد تشارلز، أنت مطلوب على التلفون. إنها الآنسة ليونيدس تتصل من سوينلي دين لأمر هام.

شعرت وكأن الأحداث تتكرّر بشكل مرعب. هل أصيبت جوزفين بسوء ثانية؟ وهل نجح المجرم هذه المرة في محاولته...؟

أسرعت إلى التلفون.

- صوفيا؟ أنا تشارلز.

كان صوت صوفيا يائساً حين قالت: تشارلز، يبدو أننا لم ننته بعد. لا يزال المجرم موجوداً بيننا.

ـ ماذا تقصدين يا صوفيا؟ ما الذي حدث؟ هل... جوزفين أصيبت بسوء؟

ـ جوزفين لم تصب بسوء، إنها المربية.

ـ المربية؟

ـ أجل، جوزفين لم تشرب الكاكاو وتركت الكوب على الطاولة. المربية شربت الكاكاو لأنها لم تكن تريد رميه.

ـ المربية المسكينة. هل إصابتها خطيرة؟

تلاشى صوت صوفيا وهي تقول:

ـ آه، يا تشارلز، لقد ماتت.

. ٢٤ .

ها نحن نعيش في الكابوس مرة أخرى.

هذا ما فكرت فيه وأنا مع تافيرنـر في السيارة، نقـوم برحلـة مماثلة للرحلة التي قمنا بها سابقاً.

من حين لآخر كان تافيرنر يطلق اللعنات.

أما أنا، فـإنني كنت أردّد، وبشكل سخيف، لا فـائدة منـه: بريندا ولورانس ليسا مذنبين. بريندا ولورانس ليسا مذنبين.

هل كنت أعتقد أنهمـا مذنبـان؟ كنت سعيداً بهـذه النتيجة. كنت سعيداً بالابتعاد عن احتمالات أخرى أكثر شؤماً...

وقـع الواحـد منهما في حبّ الآخـر. تبادلا رسـائل عـاطفية ورومنسية سخيفة. كانا يتوقعان أن يموت زوج بريـنـدا في وقت قريب بشكل مـريح وبـدون ألم... لكنني لم أكن متأكـداً أنهما كانا يتمنيان موته بصراحة، ويبدو أن حالة اليأس والشوق التي يعيشانها في إطـار حبهما الحـزين كانت تـلائمهما مثـل الحياة الزوجية المشتركة، أو حتى أكثر منها. لم أكن أعتقد أن بريندا مغرمة بالفعل. كانت ضعيفة وبليدة الشعور، وتتـوق إلى علاقـة رومنسيـة. ولورانس أيضـاً من النوع الـذي يتمتع بـالحرمـان

ويعيش في أحلام مستقبلية غير واضحة عن السعادة ويفضلها على السعادة الجسدية.

لكنهما وقعا في فخ، وأصيبا بالذعر ولم يتمكنا من إيجاد سبيل للخروج منه. لورانس لم يتخلص من رسائل بريندا، وهذا تصرف بمنتهى الحماقة. وعلى الأرجح، بريندا تخلصت من رسائله لها، لأننا لم نعثر عليها. ولم يكن لورانس هو الذي وضع تمثال الأسد الرخامي في أعلى باب غرفة الغسيل. الذي قام بهذا العمل شخص آخر لا يزال وجهه مخفياً وراء قناع.

توقفت بنا السيارة عند الباب الرئيسي. ترجّل تافيرنر أولاً، ثم ترجلت بدوري. التقينا برجل يرتدي ملابس عادية في القاعة، وأنا لم أكن أعرفه. ألقى التحية على تافيرنر، وتافيرنر انفرد به قليلاً.

لفتت انتباهي مجموعة من الحقائب وسط القاعة، مرتبة وجاهزة وعليها البطاقات التي تحمل الاسم والعنوان. فيما كنت أنظر إليها نزلت كليمنسي ودخلت إلى القاعة. كانت ترتدي ثوبها الأحمر نفسه وفوقه معطف من التويد وتضع على رأسها قبعة حمراء.

قالت لي: جئت في الوقت المناسب يا تشارلز كي نودّعك.

ـ أنتما مسافران؟

ـ سنذهب إلى لندن هذه الليلة. طائرتنا تقلع صباح الغد.

كانت هادئة وباسمة، لكن الحذر باد في عينيها.

ـ لكن هل تتركان البيت في هذه الظروف؟

ـ ولِمَ لا؟ كان صوتها حاداً.

ـ حادثة الموت...

ـ موت المربية لا علاقة لنا به.

ـ ربما يكون هذا صحيحاً. لكن مع ذلك...

ـ ولماذا قلت ربما؟ لا علاقة لنا به إطلاقاً. كنت أنا وروجر في الطابق العلويّ نوضّب حقائبنا. ولم ننزل أبداً خلال الفترة التي كان فيها فنجان الكاكاو على الطاولة.

ـ هل تستطيعين إثبات ذلك؟

ـ أستطيع أن أثبت ذلك بالنسبة لروجر. وهو سيثبته بالنسبة لي.

ـ ليس عندك أفضل من هذا... أنتما زوجان، يجب أن تتذكري ذلك.

غضبت وقالت: أنت مستحيل يا تشارلز! أنا وروجر سنسافر بعيداً... لكي نعيش حياتنا. لماذا نقوم بوضع السمّ لامرأة عجوز غبية وطيبة والتي لم يسبق لها أن تسببت لنا بأيّ أذى؟

ـ ربما لم تكونا تقصدانها هي.

ـ الاحتمال يتضاءل بالنسبة لوضع السم لطفلة، أليس كذلك؟

ـ هذا يعتمد على الطفلة.

ـ ماذا تقصد؟

ـ أقصد أن جوزفين ليست طفلة عادية. إنها تعرف الكثير عن الذين يحيطون بها. إنها...

سكت حين رأيت جوزفين تدخل من الباب الذي يفضي إلى غرفة الجلوس. كانت تلتهم التفاحة التي لا تفارقها كما يبدو،

وفوق محيطها الأحمر المستدير برزت عيناها المتألقتان بمرح مخيف.

قالت: المربية ماتت مسمومة. مثل جدي. هذا مثير للغاية، أليس كذلك؟

سألتها بحدّة: وأنت لست متضايقة أبداً ممّا حدث؟ كنت تحبينها، أليس كذلك؟

ـ ليس تماماً. كانت تؤنبني دائماً حول مسألة أو أخرى، وتثير ضجيجاً.

سألتها كليمنسي: وهل تحبين أحداً يا جوزفين؟

التفتت نحوها جوزفين بعينيها المخيفتين. وقالت: أحب الخالة إيديث. أحب الخالة إيديث كثيراً. وعندي استعداد لكي أحبّ أوستاس لكنه يعاملني دائماً بوحشية ولا يبدي اهتماماً لمعرفة الشخص الذي ينفذ جميع هذه الأعمال.

قلت لها: من الأفضل لك أن تتوقفي عن تحرياتك يا جوزفين، لأنها خطر عليك.

قالت جوزفين: لم أعد بحاجة لمعرفة المزيد. إنني أعرف ما أريد.

مرت دقيقة صمت. عينا جوزفين تأملتا كليمنسي بجدية وإصرار. سمعت صوت تنهيدة عالية. التفت ورأيت إيديث دوهافيلاند واقفة عند منتصف السلم... لكنني لم أكن متأكداً أنها هي التي تنهدت، لأن الصوت أتى من خلف الباب الذي دخلت منه جوزفين منذ قليل.

تقدمت بسرعة نحو الباب وفتحته، لكنني لم أجد أحداً هناك.

مع ذلك تضايقت كثيراً. كان هناك شخص واقفاً خلف الباب وقد سمع كلمات جوزفين الأخيرة. رجعت إلى جـوزفين وأمسكت بذراعها. كانت تقضم التفاحـة وتحدّق بغبـاوة بكليمنسي. كانت تخفي وراء جديتها متعة خبيثة.

قلت لها: هيا بنا يا جوزفين. أريد أن أتحدث اليك.

أعتقـد أنها حـاولت التملّص، لكنني لم أكن مستعداً لتقبّـل أي احتجاج من قبلها. أخذت أدفعها بـالقوة إلى الجنـاح الذي يخص عـائلتها. كـانت هناك غـرفة صغـيرة لا تستعمل غـالباً، فدخلناها كي لا يزعجنـا أحد. أغلقت البـاب خلفنا وأجلستهـا على كرسي. أخذت كرسياً آخر ووضعتـه أمامهـا وجلست عليه. قلت لهـا: الآن، إسمعيني يا جـوزفين، سـوف نستعـرض كـلّ الأمور. ما الذي تعرفينه على وجه التحديد؟

ـ أمور كثيرة.

ـ لا شك عندي في ذلـك. من المؤكد أن رأسـك تحتشد فيـه معلومات لها معنى ومعلومات ليس لها معنى. لكن أنت تفهمـين تماماً قصدي. أليس كذلك؟

ـ بالطبع، لست غبية.

لم أكن واثقاً ما إذا كانت كلمتها الأخيرة موجهة لي شخصياً أو لـرجال الشرطـة، لكنني لم أعلّق على هـذه المسألـة وتـابعت أقول:

ـ هل تعرفين من وضع لك سماً في الكاكاو؟

أحنت جوزفين رأسها.

ـ وتعرفين من وضع السمّ لجدك؟

أحنت جوزفين رأسها مرة ثانية.

- والشخص الذي أعدّ الفخ لكي تتلقي إصابة على رأسك؟

وأحنت جوزفين رأسها للمرة الثالثة.

- سوف تقولين لي إذاً كل ما تعرفين. سوف تقولين لي ذلك... الآن.

- لن أفعل ذلك.

- يجب أن تفعلي ذلك. كل المعلومات التي عرفتِها أو اكتشفتها يجب أن يطلع عليها رجال الشرطة.

- لن أقول شيئاً لرجال الشرطة. إنهم أغبياء. هم يعتقدون أن بريندا هي الجانية... أو لورانس. أنا لم أكن غبية مثلهم. لأنني أعرف تماماً أنهما ليسا مذنبين. كنت أشكّ بالشخص المسؤول منذ البداية، وقمت باختبار معين... والآن أنا واثقة أنني كنت على حق.

وأنهت كلامها بنبرة منتصرة.

أخذت أستجمع طاقتي على الصبر وبدأت محاولتي ثانية.

- اسمعيني يا جوزفين، أنت بصراحة ذكية جداً... بدت جوزفين مرتاحة. لكن ذكاءك لن يفيدك كثيراً إلّا إذا استطعت التمتع به. ألا تستطيعين أن تفهمي أيتها الغبية أنك طالما تحتفظين بأسرارك بهذه الطريقة البلهاء فإن حياتك في خطر حقيقي؟

أحنت جوزفين رأسها بالموافقة: طبعاً حياتي في خطر.

- حتى الآن نجوت مرتين من الموت بأعجوبة. المحاولة الأولى كادت تقتلك. والمحاولة الثانية أودت بحياة شخص آخر.

ألا تستطيعين أن تفهمي أنك طالما تتباهين وتدّعين بأعلى صوتك بأنك تعرفين القاتل، تعرضين نفسك لمحاولات أخرى... وقد تموتين أو تتسببين بموت أشخاص آخرين؟

قالت جوزفين بلذّة: في بعض الروايات يقوم المجرم بقتل مجموعة من الأشخاص، الواحد تلو الآخر، وتتوصل في النهاية إلى التعرف عليه لأنه يكون الشخص الوحيد الذي بقي على قيد الحياة.

ـ هذه ليست رواية بوليسية. نحن هنا في هذا البيت، في سويني دين، وأنت فتاة غبية قرأت أكثر مما ينبغي. سوف أجبرك على البوح بما تعرفين حتى لو كنت مضطراً لأن أهزّك حتى تصطكّ أسنانك.

ـ قد أقول لك أشياء غير صحيحة.

ـ لكنك لن تفعلي ذلك. أريد أن أعرف، ماذا تنتظرين؟

قالت جوزفين: أنت لا تفهم أنني قد لا أقول شيئاً. ربما أكون... أحب ذلك الشخص.

سكتت قليلاً كأنها تريدني أن أستوعب كلامها. ثم تابعت تقول: وفي حال قررت أن أقول ما أعرف، سأفعل ذلك بالطريقة المناسبة. سأطلب من الجميع أن يجلسوا في دائرة، ثم أستعرض معهم جميع الأحداث... وأكشف أمامهم نتائج تحرياتي، وبعد ذلك أقول بشكل مفاجيء وأنا أشير إلى واحد منهم: أنت القاتل...

وأشارت بإصبعها بأسلوب درامي فيما دخلت إيديث دوهاڤيلاند إلى الغرفة.

قالت لها: ضعي ما تبقى من التفاحة في سلّة المهملات يا

جوزفين. هل تحملين محرمة؟ أصابعك دبقة. سأصطحبك معي في السيارة. ونظرت إليّ نظرة لها معنى وتابعت: ستكونين في أمان بعيداً عن هنا.

أرادت جوزفين أن ترفض، لكن إيديث قالت لها: سوف نذهب إلى لونغ بريدج لنأكل الآيس كريم بالصودا.

التمعت عينا جوزفين وقالت: سأطلب مرتين.

ـ قد أوافق على ذلك. والآن اذهبي وأحضري قبعتك وارتدي معطفك ولا تنسي الشال الأزرق. فالطقس بارد اليوم. تشارلز من الأفضل أن ترافقها إلى غرفتها. لا تتركها وحدها. عندي بعض الملاحظات التي أريد أن أدونها.

جلست إلى طاولة وأنا رافقت جوزفين إلى خارج الغرفة. حتى بدون طلب إيديث دوهاقيلاند كنت سأبقى بجانب جوزفين.

كنت واثقاً من وجود خطر داهم وقريب يتهدّد الطفلة.

عندما انتهيت من الإشراف على جوزفين وهي تعدّ نفسها للخروج، دخلت صوفيا إلى الغرفة. بدت مدهوشة لوجودي هناك.

ـ تشارلز، هل صرت تعتني بالأطفال الآن؟ لم أكن أعرف أنك هنا؟

قالت جوزفين وكأنها ستقوم بعمل مهم: سوف أذهب مع خالتي إيديث إلى لونغ بريدج، لكي نتناول الآيس كريم هناك.

ـ في يوم بارد كهذا؟

قالت جوزفين: الآيس كريم لذيذ دائماً. حين تتناولين طعاماً

بارداً، تزداد حرارة الجسم في الخارج.

عبست صوفيا، وبدت قلقة، وأنا تفاجأت حين رأيت شحوبها والإرهاق في عينيها.

عدنا إلى الغرفة الصغيرة حيث كانت إيديث تقوم بإلصاق مغلفين. نهضت بسرعة، وقالت:

ـ سوف نذهب في الحال. طلبت من إيڤانز أن يحضر لي سيارة «الفورد».

مشت أمامنا إلى القاعة، وتبعناها.

انتبهت ثانية لوجود الحقائب والبطاقات ذات اللون الأزرق. لم أفهم لماذا كان منظرها يثير انزعاجي.

قالت إيديث دوهاڤيلاند وهي تضع قفازيها وتنظر إلى السماء: الطقس جميل اليوم. كانت سيارة الفورد متوقفة أمام الباب. بارد... لكنه منعش. يوم خريفي فعلاً. كم تبدو الأشجار رائعة بأغصانها العارية... ولا تزال هناك بضع وريقات ذهبية عالقة بها...

سكتت قليلاً، ثم التفتت وقبلت صوفيا. قالت لها: إلى اللقاء يا حبيبتي، لا تقلقي كثيراً؛ هناك أمور يجب علينا مواجهتها واحتمالها.

ثم قالت: هيا يا جوزفين. وصعدت إلى السيارة. جوزفين صعدت بجانبها.

لوحتا لنا بيديهما فيما كانت السيارة تبتعد بهما.

ـ أعتقد أنها على حقّ، وأنه من الأفضل أن تبتعد جوزفين

عن البيت لفترة. لكن يجب أن نقنع هذه الطفلة بأن تبوح لنا بما تعرف، يا صوفيا.

ـ قد تكون لا تعرف شيئاً. إنها تحاول أن تبدو مهمة فقط. جوزفين تحب التباهي بأهميتها، كما تعرف.

ـ أعتقد أن الأمر ليس بسيطاً إلى هذا الحد. هل توصلوا لمعرفة السم الذي وضع في فنجان الكاكاو؟

ـ يعتقدون أنه مادة «الديجيتالين». خالتي إيديث تأخذ «الديجيتالين» من أجل قلبها، وعندها قارورة مليئة بالحبوب الصغيرة في غرفتها. والقارورة الآن فارغة.

ـ كان يجدر بها أن تضع الدواء في خزانة مقفلة.

ـ لكنها كانت قد فعلت ذلك، ومع ذلك فإنه ليس من الصعب على شخص معين أن يعثر على المفتاح.

ـ ومن هو هذا الشخص؟ وتأملت الحقائب الموضّبة ثانية. وفجأت قلت بصوت عالٍ :

ـ يجب ألا يسافرا. يجب منعهما من ذلك.

بدت صوفيا مدهوشة.

ـ روجر وكليمنسي؟ تشارلز، أنت لا تفكر أن...

ـ حسناً، وما هو رأيكِ أنتِ؟

مدت صوفيا يديها بحركة يائسة. وقالت هامسة: لا أعرف يا تشارلز. لا أعرف سوى أنني عدت ثانية... عدت إلى الكابوس...

ـ أعرف ذلك، وقد قلت هذه الكلمات وأنا في طريقي إلى هنا مع تافيرنر.

ـ هذا كابوس حقيقي. أن نعيش وحولنا أشخاص نعرفهم وننظر إلى وجوههم... وفجأة تتغير وجوههم... ونشعر أننا لم نعد نعرفهم... صاروا غرباء... غرباء قلوبهم قاسية...

وقالت بصوت عالٍ: هيا بنا نخرج يا تشارلز... سنكون في أمان في الخارج... صرت أخاف من البقاء في هذا البيت...

■ ٢٥ ■

مكثنا وقتاً طويلاً في الحـديقة، ولم نحـاول الخوض في حـالة الرعب التي تحيط بنا، كـأننا كنـا متواطئـيْن على ذلـك، أخذت صـوفيا تتحـدث بمودّة عن المـربية وعن أشيـاء كثـيرة جمعت بينهمـا، وعن الألعاب التي كـانت تلعبهـا معهـا وهـي طفلـة... والحكـايات التي كـانت تقصّها عليهم عن روجـر وعن والـدهم وعن سائر الإخوة والأخوات.

ـ كانوا جميعاً بمثابة أولادها. وقد عادت تتـردّد على البيت لتساعدنا خلال فترة الحرب حـين كانت جـوزفين لا تـزال طفلة صغيرة، وأوستاس صبيًّا صغيراً أيضاً.

بدت صوفيا مرتاحة وهـي تستعيد تلك الـذكريـات فشجعتها على مواصلة الحديث.

تسـاءلت ماذا يفعـل تافـيرنر. إنـه على الأرجـح يستجـوب المقيمـين في البيت. انطلقت سيارة فيهـا الشرطي المصوّر ومعـه رجلان، وبعد قليل وصلت سيارة الإسعاف.

ارتعشت صوفيا قليلاً. وبعد فترة انطلقت سيارة الإسعـاف وكنا نعرف أن جثة المربية في داخلها وأنها أرسلت إلى المشرحة لتحديد أسباب الوفاة.

ولم نغادر الحديقة بل أخذنا نمشي ونتحدث ونجلس من حين لآخر... وتدريجياً صارت كلماتنا تعبّر على نحو أفضل عن حقيقة أفكارنا.

وأخيراً قالت صوفيا وهي ترتجف:

- صار الوقت متأخراً... بدأ الظلام يهبط. يجب أن ندخل الآن. خالتي إيديث لم تعد بجوزفين... من المفروض أن تكونا قد رجعتا الآن؟

شعرت بقلق غير واضح. ما الذي حدث؟ هل كانت إيديث تريد إبقاء الطفلة بعيداً عن هذا البيت الأعوج.

دخلنا إلى البيت، وصوفيا أسدلت الستائر في غرفة الجلوس. كانت النار تشتعل في الموقد وبدت الغرفة الواسعة متناسقة ويسودها جو غير واقعي من رخاء مضى. أوعية كبيرة من البرونز كانت تضم أزهار اللؤلؤ.

قرعت صوفيا الجرس ودخلت خادمة أعرف أنها كانت تعمل في الطابق العلوي، وكانت تحمل الشاي. كانت عيناها محمرّتين وهي تتنفس بصوت مسموع، ولاحظت أيضاً أنها تنظر بخوف وبسرعة خلف كتفها.

انضمّت إلينا ماجدة، لكن فيليب تناول الشاي في المكتبة. كان دور ماجدة صورة جامدة وصلبة من الحزن. لم تتفوه إلّا بكلمات معدودات. قالت مرة:

- أين إيديث وجوزفين؟ لقد تأخرتا كثيراً.

قالت ذلك وكأنها تفكر بشيء آخر.

أما أنا فقد بدأت أشعر بقلق حقيقي. سألت عن تافيرنر وما

إذا كان لا يزال موجوداً، وردّت ماجدة بأنها تعتقد ذلك. ذهبت للبحث عنه. قلت له أنني قلق بشأن الآنسة دوهافيلاند والطفلة.

رفع مباشرة سماعة التلفون وأجرى اتصالاً لإعطاء تعليمات محدّدة.

قال لي: سأطلعك على الأخبار حين تصلني.

شكرته وعدت إلى غرفة الجلوس. كانت صوفيا هناك مع أوستاس، وماجدة لم تكن موجودة.

قلت لصوفيا: سوف يطلعنا على الأخبار حال وصولها إليه.

قالت بصوت منخفض:

ـ أشعر كأن شيئاً ما حدث يا تشارلز.

ـ يا حبيبتي صوفيا، الوقت لم يتأخر كثيراً.

قال أوستاس: ولماذا أنتما متضايقان؟ إنهما على الأرجح في صالة للسينما. وخرج من الغرفة.

قلت لصوفيا: قد تكون خالتك اصطحبت جوزفين إلى أحد الفنادق القريبة... أو إلى لندن. أعتقد أنها تدرك أهمية الخطر الذي يحدق بالطفلة... وربما تكون تدرك ذلك أفضل منا.

ردت صوفيا بنظرة حزينة لم أفهم معناها.

ـ لقد قبلتني وودعتني...

لم أفهم تماماً ماذا قصدت بهذه الكلمات التي لم تكتمل؛ سألتها ما إذا كانت ماجدة قلقة.

ـ أمي؟ لا، إنها على ما يرام. ليس عندها إحساس بالوقت.

إنهـا تقرأ مسرحيـة جديـدة للكاتب ڤـاڤسّور جـونـز عنـوانهـا «تخطيط امرأة». إنها مسرحية فكاهية تدور حول جريمة قتل... امرأة تشبه صاحب اللحية الزرقاء... وهي بـرأيي مقتبسة عن «الأرسنيـك والشريط العتيق»، لكن الدور النسـائي جيد فيهـا، دور امرأة تصاب بالجنون بعد وفاة زوجها.

لم أقل شيئاً وجلسنا ونحن نتظاهر بأننا نقرأ.

كانت الساعة السادسة والنصف حين فتـح تاڤـيرنر البـاب ودخل. ملامح وجهه كانت توحي بما يريد قوله.

نهضت صوفيا.

سألته: ماذا حدث؟

ـ أنا آسف، لكن الأخبار التي أحملهـا سيئة. بلّغت جميـع الدوريات بـالبحث عن السيارة. قـال أحد رجـال الشرطة وهـو يركب دراجة نارية أنه شاهد سيارة فورد تحمل رقماً يعتقد أنه رقم السيـارة المبلّغ عنهـا، وقد انحـرفت السيارة عن الطـريق الرئيسية عنـد فلاكسبـور هيث... وانطلقت في طريق فـرعية في الغابة.

ـ الطريق التي تؤدي إلى مقلع الحجارة في فلاكسبور؟

ـ أجـل، يا آنسـة ليونيـدس. وسكت قليـلاً ثم أضـاف: تم العثور على السيـارة وقد سقطت في المقلـع، والراكبتـان فارقتـا الحياة. قد ترتاحين إذا عرفت أنهما لم تتعذبا وماتتا مباشرة.

صرخت ماجدة وهي تقف عند الباب: جوزفين!

ـ وارتفع صوتها كأنه نواح. جوزفين... يا حبيبتي.

تقدمت منها صوفيا وضمّتها بذراعيها. قلت: انتظروا قليلاً.

تذكرت شيئاً هاماً! إيديث دوهافيلاند كتبت رسالتين وكانت تحملهما بيدها حين خرجت إلى القاعة. لكنها لم تكن تحملهما حين صعدت إلى السيارة. أسرعت إلى القاعة وتوجهت إلى الصندوق الخشبي الطويل. وجدت الرسالتين وقد دفعتا خلف إبريق نحاسي.

إحداهما موجهة للمفتش تافيرنر.

كان تافيرنر قد تبعني، فسلمته الرسالة. فتح المغلف وبدأ يقرأ، ووقفت بجانبه أقرأ معه:

> إنني أتوقع أن تطلع على هذه الرسالة بعد وفاتي. لا أريد الخوض في أية تفاصيل، لكنني أعلن مسؤوليتي كاملة عن مقتل زوج أختي أريستيد ليونيدس والمربية جانيت رو. وأعترف بأن بريندا ليونيدس ولورانس براون بريئان من جريمة قتل أريستيد ليونيدس. عند سؤال الدكتور مايكل شافاس، ٧٨٣ شارع هارلي، سيتبين لكم أن حياتي لم تكن ستطول أكثر من بضعة أشهر. أريد أن أريح ضميري وأنا أقرّ ببراءة شخصين لا علاقة لهما بتهمة القتل الموجهة إليهما. أقرّ بهذا وأنا في كامل قواي العقلية.
>
> إيديث ألفريدا دوهافيلاند

حين انتهيت من قراءة الرسالة انتبهت أن صوفيا كانت تقرأها أيضاً... لا أعرف ما إذا كانت طلبت موافقة تافيرنر على ذلك أم لا.

قالت متمتمة: خالتي إيديث...

تذكرت إيديث دوهافيلاند وهي تسحق برجلها بشراسة نبتة اللبلاب. تذكرت الشكوك الأولى التي ساورتني. لكن لماذا...

وقالت صوفيا كأنها تقرأ أفكاري:

- لكن لماذا جوزفين؟ لماذا اصطحبت معها جوزفين؟

سألتها: ولماذا ترتكب هاتين الجريمتين؟ ما هو الدافع لديها؟

كنت أقول ذلك وشعرت أنني أعرف الحقيقة. رأيت الأمر بوضوح. أدركت أنني أحمل الرسالة الثانية في يدي. نظرت إليها ورأيت اسمي مدوناً على الغلاف.

كانت أكبر من الرسالة الأولى. عرفت ما تحتويه قبل أن أفتحها. مزّقت المغلف وسقط منه دفتر جوزفين الأسود الصغير. رفعته عن الأرض... كان مفتوحاً على الصفحة الأولى...

سمعت صوت صوفيا وكأنه آت من مسافة بعيدة جداً، وكان واضحاً ومتماسكاً.

قالت: لقد أخطأنا، إيديث لم تقتل أحداً.

قلت: معك حق.

اقتربت مني صوفيا وقالت هامسة:

- إنها جوزفين، أليس كذلك؟ جوزفين.

ونظرنا معاً إلى الصفحة الأولى في الدفتر الأسود وقرأنا الجملة الأولى المدوّنة بيد طفلة صغيرة لا تجيد الكتابة:

اليوم قتلت جدي.

■ ٣٦٠ ■

أخـذت أتساءل فيمـا بعد إلى أي حـدّ كنت أعمى عن رؤية الحقيقة مع أنهـا كانت واضحـة منذ البـداية. كـانت الصفات الضرورية لا تنطبق إلّا على جوزفين وحدها. غرورها وإحساسها بأهميتها، وسرورهـا وهي تتحدث وتـردّد كم هي ذكية، وكم هم أغبياء رجال الشرطة.

لم أكن ألتفت لـذلك لأنهـا كانت بنظـري مجرد طفلـة. لكن الأطفال قد يرتكبون جرائم القتل أحياناً، والجريمة الأولى التي وقعت هنا كان بمقدور طفل أن ينفذها. جدها بنفسه هو الـذي شرح الـوسيلة... قـدم التفاصيـل الضروريـة. ولم يكن عليهـا سـوى أن تتحـاشى تـرك بصمـات وهـذا تعـرفـه من الكتب البوليسية التي كانت تقرأها. وكل الأمور الأخرى كانت مزيجـاً مأخوذاً من روايات متعدّدة: دفتـر الملاحظـات... التحريـات... شكوكها التي كانت تدعيها... اصرارها بأنها لن تقول شيئاً قبل أن تتأكد...

وأخيراً اعتدت عـلى نفسها. وهـذا تصرف غير معقـول لأنها كانت بكل بساطة، تعرّض نفسها للقتـل. لكن يبدو أن تفكـيرها الطفولي لم يتركها تفكر بهذا الاحتمال. كانت بطلة. والبطلـة لا

تموت. وفي داخل غرفة الغسيل كان هناك دليل... آثار التراب على الكرسي القديم. جوزفين هي الوحيدة التي تحتاج إلى كرسي لتقف عليه وتضع التمثال الرخامي في أعلى الباب. ويبدو أنها لم تصب بأذى من المرة الأولى (وهذا تدل عليه الخدوش الموجودة على الباب) فوقفت على الكرسي مرة ثانية وأعادت التمثال إلى مكانه وهي تحمله بواسطة وشاحها كي لا تترك بصماتها عليه. وفي هذه المرة وقع على رأسها... ونجت من الموت بأعجوبة.

خطتها كانت ناجحة تماماً، وقد أعطت الانطباع الذي كانت تريده! كانت تريد أن تبدو في خطر، وأنها تعرف شيئاً، وأن شخصاً ضربها على رأسها!

فهمت أنها تعمدت أن تلفت انتباهي لوجودها في غرفة الخزان. وأنها هي التي تركت غرفتها في حالة من الفوضى قبل توجهها إلى غرفة الغسيل.

لكنها حين رجعت من المستشفى وعرفت أنه تمّ إلقاء القبض على بريندا ولورانس تضايقت. انتهت القضية وصارت هي بعيدة عن الأضواء.

لذلك سرقت «الديجيتالين» من غرفة إيديث ووضعته في كوب الكاكاو وتركت الكوب دون أن تتناول منه شيئاً على الطاولة في القاعة.

هل كانت تعرف أن المربية ستشرب منه؟ هذا محتمل. قالت ذلك الصباح أنها تكره الانتقادات التي توجهها لها مربيتها. وهل كانت المربية التي لها تجربتها في تربية الأطفال تشك في أمر جوزفين؟

أعتقد أن المربية كانت تعرف أن جوزفين ليست طفلة طبيعية. كان نموّها العقلي متطوّراً لكن حسّها الأخلاقي كان متأخراً. وقد يكون سبب ذلك العوامل الوراثية المختلفة... ما أطلقت عليه صوفيا «القسوة»... وجميعها تضافرت معاً.

كانت تتمتع بقسوة متسلطة من جانب عائلة جدتها، وأنانية ماجدة التي لا ترحم، والتي تجعلها ترى وجهة نظرها فقط. يبدو أنها عانت كثيراً، لأنها حساسة مثل فيليب، من وصمة البشاعة... الطفلة «المدسوسة»... في العائلة. وأخيراً بدأت تجري في عروقها العلامات المميزة للعجوز ليونيدس. كانت حفيدته وتشبهه في ذكائها وتفكيرها... لكن العجوز وجّه حبه إلى الخارج إلى أفراد أسرته وأصدقائه، فيما حولت جوزفين حبها إلى نفسها.

أعتقد أن ليونيدس العجوز أدرك ما لم يستطع أي فرد آخر في العائلة أن يدركه، أن جوزفين قد تشكّل خطراً على نفسها وعلى الآخرين. لم يسمح بإرسالها إلى المدرسة لأنه يخاف من أعمال قد ترتكبها. شكّل لها حماية واحتفظ بها في البيت، وأنا أفهم الآن طلبه إلى صوفيا أن تتولى جوزفين برعاية خاصة.

وقرار ماجدة المفاجىء بإرسال جوزفين إلى الخارج... هل كان ناجماً عن خوفها على الطفلة؟ لم يكن بالضرورة خوفاً واعياً، بل احساس أمومي غامض.

وإيديث دوهافيلاند؟ هل كانت تشك في البداية، ثم خافت... وأخيراً عرفت الحقيقة؟

نظرت إلى الرسالة التي كنت أحملها.

عزيزي تشارلز. هذه رسالة خاصة بك... وبصوفيا إذا شئت. من الضروري أن يعرف أحد الحقيقة. عثرت على

الـدفتر الـذي يضمـه المغلف في بيت الكلب المهجـور أمـام الباب الخلفي. كانت تخبئه هناك. إنه يؤكد شكوكي. العمل الذي أرغب في تنفيذه الآن قد يكون صحيحـاً أو خاطئـاً... لا أعرف، لكن حياتي على أية حـال تشارف عـلى نهايتهـا، وأنـا لا أريد أن تعـاني هذه الطفلـة وأعتقد أنهـا ستعاني كثيراً حين تضطر لمواجهة ما ارتكبت.

هناك دائماً احتمال للوقوع في الخطأ.

إذا كنت قـد أخطأت، أطلب من اللـه أن يسـامحني... لكنني سأنفذ عملي هذا بدافع الحب. بارك الله فيكما.

إيديث دوهافيلاند

تردّدت قليلاً، ثم أعطيت الرسالة لصوفيا. وفتحنا معـاً دفتر جوزفين الأسود الصغير.

ـ اليوم قتلت جدي.

أخـذنا نتصفحـه. لا شك أن أي طبيب نفسـاني يطّلع عـلى محتوياته سيعتبره مدهشاً ومثيـراً. إنه مـرض واضح ومخيف للأنانية المفرطة. كان الدافع للجـريمة مدوّناً بـأسلوب طفـولي وغير كاف ويثير الشفقة.

لم يكن جدي يسمح لي برقص الباليـه، لذلـك قررت أن أقتله. وبعد ذلـك ننتقل إلى لنـدن لنعيش هناك ووالـدتي لا تمانع في أن أتعلم الرقص.

إنتقلت إلى مداخل أخرى جميعها لها مغزاها.

لا أريـد الذهـاب إلى سويسرا... لن أذهب. إذا حـاولت أمي إجبـاري على السفـر سـأقتلهـا... لكنني لا أستطيـع الحصول على السم. قد أتمكن من تحضيره بواسطة التوت البري الذي ينبت في الحديقة. إنه من النوع السـام، هكذا يقول الكتاب.

أوستاس أثار غضبي اليوم. قال أنني مجرد فتاة لا قيمة لها وأن التحريات التي أقوم بها سخيفة. لم يكن ليقول عني أنني سخيفة لو أنه يعرف أنني انا التي ارتكبت الجريمة.

أنا أحب تشارلز... لكنه غبيّ إلى حدّ ما. لم اقرر بعد إلى من انسب الجريمة. ربما انسبها إلى بريندا ولورانس... بريندا تسيء معاملتي... تقول أنني لا أتصرف بوعي لكنني أحب لورانس... أخبرني قصة شارلوت كورداي... التي قتلت رجلاً في حوض الحمام. لم تنفّذ جريمتها بذكاء.

والمدخل الأخير كان واضحاً.

إنني اكره مربيتي... اكرهها... أكرهها... تقول انني لست سوى طفلة صغيرة. وتقول أنني أحب المباهاة. إنها تقنع والدتي أن ترسلني خارج البلاد... سوف اقتلها هي أيضاً... أعتقد أن دواء خالتي إيديث مناسب. إذا حدثت جريمة ثانية سوف يرجع رجال الشرطة وسوف تعود أجواء الإثارة إلى البيت.

ماتت المربية. أنا سعيدة. لم أقرر بعد أين أخبىء القارورة التي تحتوي الحبوب الصغيرة. في غرفة كليمنسي زوجة عمي... أو في غرفة أوستاس؟ حين اموت بعد أن أصبح عجوزاً سوف اترك هذا الدفتر وعليه عنوان المسؤول عن جهاز الشرطة حتى يعرف هؤلاء انني كنت مجرمة عظيمة.

أغلقت الدفتر، وكانت دموع صوفيا تنهمر بغزارة على خديها.

ـ آه، تشارلز... آه، تشارلز... هذا فظيع. إنها مجرد وحش صغير... ومع ذلك... ومع ذلك فإنها تثير الشفقة بدرجة مؤلمة.

كان يستحوذ عليّ الشعور نفسه.

كنت أحب جوزفين... ولا أزال... لا يقلّ مقدار محبتنا لشخص إذا كان مصاباً بالسلّ أو بأي مرض مميت آخر. جوزفين كانت، كما قالت صوفيا، وحشاً صغيراً، لكنها كانت وحشاً صغيراً مثيراً للشفقة. لقد ولدت وعندها مشكلة... إنها الطفلة العوجاء في البيت الصغير الأعوج.

سألتني صوفيا: لو أنها عاشت، ماذا كان سيحدث؟

ـ أعتقد أنهم كانوا سيرسلونها إلى اصلاحية أو مدرسة خاصة. وقد يفرجون عنها فيما بعد، أو يعتبرونها مصابة بحالة جنون... لا أعرف.

أصيبت صوفيا برعشة.

ـ من الأفضل أن الأمور انتهت بهذه الطريقة. لكنني متضايقة. أن تتحمل الخالة إيديث اللوم لما حدث.

ـ هي التي أرادت ذلك، ولا أعتقد أن الخبر سوف ينشر. أعتقد أنه حين يأتي موعد محاكمة بريندا ولورانس، سوف يتم الإعلان أنه لا توجد مبررات لرفع قضية ضدهما وسوف يطلقون سراحهما.

وتابعت أقول بنبرة مختلفة وأنا آخذ يديها بين يدي: أما أنت يا صوفيا فسوف تتزوجينني. بلغني قرار نقلي إلى إيران. سوف نسافر معاً، وأنت ستنسين البيت الأعوج الصغير. والدتك ستواصل التمثيل، ووالدك سيشتري المزيد من الكتب، وأوستاس سيلتحق قريباً بالجامعة. لا داعي لأن تشغلي بالك بهم أكثر من ذلك. فكري فيّ أنا.

نظرت إليّ صوفيا مباشرة.

ـ تشارلز، ألا تخاف أن تتزوجني؟

ـ ولماذا أخاف؟ بالنسبة للصغيرة جوزفين يبدو أن جميع الصفات السيئة في العائلة اجتمعت فيها أما أنت يا صوفيا، أنا واثق أن كل الصفات الطيبة والحميدة في عائلة ليونيدس وضعت فيك أنت. كان جدك يعرف قدرك وأعتقد أنه كان دائماً يصيب في قراراته. ارفعي رأسك عالياً يا حبيبتي. المستقبل لنا.

ـ سأفعل ذلك يا تشارلز. أنا أحبك وأريد أن أتزوجك وأن أسعدك. ونظرت إلى الدفتر وقالت: جوزفين مسكينة. قلت: جوزفين مسكينة.

***

سألني والدي: ما هي الحقيقة يا تشارلز؟

لم يسبق لي أن كذبت عليه.

قلت: إيديث دوهافيلاند ليست الجانية، يا سيدي. إنها جوزفين.

أحنى رأسه بهدوء.

أجل، هذا ما فكرت فيه منذ مدة. الطفلة المسكينة...

اسرة ليونيدس كانت تنعم في عيش هادئ وسعادة كاملة، في منزل كبير في احدى ضواحي مدينة لندن.

وفجاة، تعكرت اجواء الاسرة، بوفاة او على الأصح مقتل كبيرها اريستيد، وازداد غموض الموقف عندما تاكد جميع افراد العائلة ان القاتل هو احد افرادها.

من قتل اريستيد العجوز ابن الثمانين؟

زوجته الشابة التي تصغره بخمسين سنة تقريباً؟ ام حفيدته التي كانت تطمع بثروته الهائلة ام ابنه المهدد بالافلاس بسبب مغامراته التجارية الفاشلة ام شقيقة زوجته السابقة التي كرست حياتها لتربية اطفاله وحقدت عليه بسبب التفاوت الطبقي بينهما؟